الأركانُ الأربعةُ

الصَّلاةُ ـ الزَّكاةُ ـ الصَّومُ ـ الحجّ

أبو الحسن على الحسني النَّدْوي
دائرة الشيخ علم الله الحسني
رائي بريلي (الهند)

فِي ضَوءِ الكِتابِ والسُّنةِ مقارنةً مع الدِّياناتِ الأُخرى

تحقيق
وحيد قطب



المكتبة التوفيقية

الأركان الأربعة

الصلاة - الزكاة

الصوم - الحج

في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى

أبو الحسن علي الحسني النّدْوي

دائرة الشيخ علم الله الحسني

رائي بريلي (الهند)

تحقيق

وحيد قطب



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

التجهيزات الفنية
دار التوفيقية للطباعة

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان : أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس : ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان

توطئة:

الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الشاكرين، ونصلى ونسلم على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى امتن على من آمن به بمنن لم يدركها إلا بفضل الله عليه، فالإيمان بالله سبحانه من أفضل رزق الله- عز وجل - على المؤمنين، لأن راحة العبد لا تكون إلا إذا حقق ذاته ولن يحقق ذاته إلا بأن يؤدى الذى خلق له، والإنسان لم يخلق إلا لعبادة الله- عز وجل - ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا عرف العبد أن تأدية ما عليه من الفرائض، واجتهاده فيما يعمل من النوافل فيها سعادته فهم أن الأوامر الشرعية ليست تكليفاً، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فى المجلد الأول من الفتاوى فى هذا الموضوع، حيث أثبت رحمه الله أن التكاليف لم تذكر فى كتاب الله إلا على سبيل النفى ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وله بحث ظريف فى أن للإنسان لذة فى هذه العبادات[١] ونعيم من لا يشعر به فهو المحروم.

وفى هذا الكتاب قد تعرض المصنف أجزل الله له المثوبة والعطاء فى بيان أسرار بعض هذه العبادات، وفى تأكيد مثل هذه النكات، وقد حاولت أن يكون لى جهد فى هذا الكتاب بتخريج ما لم يخرجه المصنف وإتمام تخريجاته وببعض التوضيحات فى بعض الأماكن سائلاً الله تعالى أن ينفع بهذا العمل كل من أعان على نشره، وأن ينفع به قارئه فإنه ولى ذلك والقادر عليه.

وحيد قطب الصفتى ديب
دراسات عليا فى كلية التربية
جامعة الأزهر.

---

(١) راجع فتاوى ابن تيمية (١/ ٢٠-٢٨).

بَيْنَ يَدَىِ الكتاب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فهذا كتاب تحدَّثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة: الصَّلاة والزَّكاة، والصَّوْم، والحج، عن وضعها السماوى، وحقيقتها الشرعية، وتشريعها فى الإسلام، ومكانتها فى الدين، وفى الحياة الفردية والاجتماعية، وعن مقاصدها وأسرارها كما قرَّرها الكتاب والسُّنّة، وفهمها المسلمون فى القرون المشهود لها بالخير، والمتمسكون بلباب الدين، والراسخون فى العلم فى مختلف العصور والأجيال، فى غير تكلّف عجمى وتنطّع فلسفى، وتطرّف شخصى، وفى غير خضوع لأفكار أجنبية واتجاهات عصرية، وفى غير إخضاع -لمعانيها وحكمها ونظمها ومناهجها- للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى عصورهم وأمصارهم.

وقد درستُ -زمن تأليفه- القرآن الكريم من جديد، ومصادر السنة ودواوينها الصحيحة، وما كُتب فى موضوع هذه الأركان، وشرحها وتفسيرها، وبيان مقاصدها وأسرارها، وعُنيت بصفة خاصة بكتابات الأئمة الذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الإسلام وروحه، والوصول إلى أعماقه، فى غير تفريط وإفراط، وتكلف وإغراق، ووفقوا لبيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار التنزيل وحكم التشريع، كما أرادها الشرع، وكما فهمها المسلمون الذين توجه إليهم الخطاب، ونزل فى لغتهم الكتاب، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق، والعلم الغزير، والعمل القوى، والاتباع الدقيق (للرسول ﷺ) والمجاهدة الدائبة فى مجال العلم والعمل، فتمهَّدت لهم السبل، ولانت لهم الصعاب، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقد تشبّعوا بروح هذه العبادات، كما تضلّعوا فى علومها، ومارسوها بصدق وإيمان، كما دارسوها بدقة وإمعان، فنطقت هذه الأركان على لسانهم، وعبرت

عن مكنوناها ومضمراها فى شرحهم وبياهم، وكان أكثر استفادتى من كتاب (حجَّة الله البالغة)، لشيخ مشايخنا شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوي[1]، وهو كتاب فريد فى موضوعه، وقد جاءت خلاصة ما كتبه فى الأركان الأربعة وروحُه فى هذا الكتاب.

فبدأت بالكتاب والسُّنَّة وما ورد عن هذه الأركان، وعن روحها وحقيقتها، ومقاصدها وآداها، فى القرآن والحديث، وأردفت ذلك بما جاء فى كتب هؤلاء الأئمة فى تفسيرها وتفصيلها، وتوجيهها وتعليمها، فجاء تفصيلاً للمجمل، وتبسيطاً للموجز، ولم يمنعنى الحياء والشعور بالنقص عن عرض ما فتح الله به علىَّ -وهو الفتَّاح العليم- من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويها، وصلتها بالحياة، وفضّها لكثير من المعضلات والمشكلات، ولو أتوقف من نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين، وذلك كله فى أسلوب علمى أدبى عصرى، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم والجديد، ويمثّل المكتبة الإسلامية الزاخرة فى هذا الموضوع، ويعرضها عرضًا جديداً للجيل الإسلامى الجديد، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدمين وأساليبهم، وخير ما دبَّجَته أقلامهم وفاضت به خواطرهم، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد، وتفريطاً فى حق السلف، وإساءةً إلى المكتبة الإسلامية التى لا تُدانيها مكتبة دينية فى أمة من الأمم، وقد توارثت هذه الأمة فهم معانى العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها، وأحكامها وآداها، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فترة، أو جهالة أو غفلة، حتى وصل إلينا هذا الدين، متواتراً متصلاً، فى المعانى والأشكال، والمقاصد والهيئات. فليس لأحد فى هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان، مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة فى عمرها الطويل، أو يلبسه لباساً (مستورداً) من الخارج أو مستعاراً من أجنبي.

وبدا لى، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات -وهى العبادات التى تلتقى عليها جميع الديانات التى كانت لها أى صلة بالسماء فى عهد من العهود- فى الديانات الأخرى،

(١) (١١١٤-١١٧٤هـ) راجع لترجمته نزهة الخواطر للسيد عبد الحى الحسنى (المجلد السادس).

وهى التى لا يزال يدين بها خلق كثير وشعوب كبيرة فى العالم المعاصر، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ومناهجها وفلسفتها وأحكامها فى هذه الديانات، وبين أوضاعها ومناهجها وفلسفتها وأحكامها فى الدين الإسلامى، والشريعة الإسلامية، وأن أعتمد فى ذلك على مصادر هذه الديانات الأصيلة الموثوق بها عند أهلها، كما اعتمدت فى الحديث عن أركان الإسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن والحديث غالباً، وعلى كتب أئمة الإسلام نادراً، وأن يكون استعراضى لما كتب فى هذا الموضوع فى الديانات الأخرى، ودراستى له دراسة أمينة عميقة، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدى فى هذا البحث والدراسة إلى اللُّباب، والقوْل الفصل فى هذا الباب، عند فقهاء هذه الديانات وزعمائها.

وقد كانت هذه المهمة عسيرةً دقيقة، إذ الوضع الدينى والفقهى فى هذه الديانات يختلف عن الوضع الدينى والفقهى عند المسلمين، اختلافاً كبيراً، والباحث يواجه غموضاً واضطراباً عظيماً، وفراغاً علميًّا هائلاً، لا عهد له به فى كتب الشريعة والفقه، وتاريخ التشريع الإسلامى، وقد استطعت بحول الله أن أخرج فى هذا الكتاب بدراسة مقارنة تسدّ -إلى حدٍّ ما- فراغاً فى هذا الموضوع.

وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدِّر نعمة الإسلام، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذى ﴿ **لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولا أن يستوفى حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات فى الإسلام والعبادات فى الأديان الأخرى، فضلاً عن العقائد والمبادئ والأسس التى يقوم عليها صرح الإسلام العقائدى والكلامي. وقد أُثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال: «يوشك أن ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام لا يعرف الجاهلية». والموضوع خاضع للتوسع والترقى، وزيادة الإتقان ودقة البحث، لما يتجدد من معلومات، ويصدر بين حين وآخر من موسوعات علمية ومؤلفات دينية، بقلم علماء هذه الديانات، والمؤلف مستعد للإفادة منها فى الطبعات الجديدة.

وكان مما حفز المؤلّف على هذا التأليف -رغم أمراضه التى يعانيها، والأشغال

والمسئوليات التى ترهقه-ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات فى تفسير هذه الأركان، ومقاصدها وغاياها، وفوائدها ومصالحها فى هذا العصر، وإخضاعها فى جراءة كبيرة، وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية، والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاها وتعبيراها المحدودة، حتى كادت هذه الأركان فى عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض، تفقد حقيقتها وقوها، وتضيع مقاصدها التى شرعت لأجلها، وكاد معنى الإيمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية، وكاد التفكير المادى يطغى على روح العبادة والإخلاص، فكان ذلك - بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون- خطراً كبيراً على الأمة، وطليعة تحريف كبير فى فهم المعانى الدينية والمقاصد الشرعية.

وحدث أنّ مجلة (المسلمون) الغراء دعت المؤلّف إلى كتابة مقال الحج بمناسبة موسمه، واتفق ذلك ثلاث مرات، فكان المؤلف يكتب مقالاً كل عام، عن حقيقة الحج وروحه ومقاصده، تنشره المجلة العزيزة وتذيعه الإذاعة السعودية فى أكثر الأحيان، ويقرأه الشباب المسلم بعناية زائدة، وتقدير كبير، ونظر المؤلف فى هذه المقالات الثلاث، فشعر بأنه أسلوب جديد للكشف عن مقاصد الحج الشرعية الحقيقية، ومحاولة متواضعة للانتصار لهذا الركن المظلوم، الذى كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة والمعانى السياسية أكثر من كل ركن، حتى أصبح فى نظر كثير من المثقفين مؤتمراً سياسيًّا عالميًّا، يُعقد كل عام، وليست له إلاّ هذه القيمة السياسية الاجتماعية، فرأى أن يوسع هذا المقال وينشره كرسالة مفردة، تعرض الحج فى إطاره الإسلامى الأصيل الواسع، وتُثير معانيه العميقة ومقاصده البعيدة، وروحه القوية، الإبراهيمية الحنيفية.

وكذلك وفق المؤلف لكتابة مقالين عن رسالة الصيام، ومقاصده بمناسبة حلول رمضان، واقتراح مجلّة (المسلمون)، فبدا للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ويضم إليهما ركن الصّلاة والزكاة، وهكذا تكوّنت فكرة الكتاب، واستولت على مشاعر المؤلف وأعصابه، فشغلته عن كل عمل تأليفى، أو تحقيق علمى، وبقى يعيش فى هذه الفكرة أكثر من عام، يدرس النصوص ويراجع المصادر، ويُملى المقالات -لعجزه عن الكتابة

والمطالعة بنفسه- ويساعده بعض إخوانه وزملائه فى كتابة هذه الأمالى، وفى تخريج الأحاديث وفى النظر فى الموادّ الأجنبية، والبحث عن الموادّ، أخصّ بالذكر والشكر منهم العزيز نثار الحق الندوى، والأستاذ تقى الدين الندوى، والمفتى محمد ظهور الندوى، والأستاذ شاهد على، مدرس اللغة الإنكليزية فى دار العلوم، والعزيز على آدم الإفريقي[1]، والأخوين نذر الحفيظ وغياث الدين الندويين جزاهم الله جميعاً عن المؤلف والقراء، فجاء هذا الكتاب حصيلة مطالعة، ونتيجة تأملات، ورائد بحث أوسع وأعمق، والحمد لله الذى بعزّته وجلاله تتم الصالحات.

أبو الحسن على الحَسنى النَّدْوي
دائرة الشيخ علم الله الحسني
رائى بريلى (الهند)
٢-٢-١٣٨٧ هـ

---

(١) ومحمد سعيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةُ الطّبعَةِ الثّالِثَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن مؤلف الكتاب يشعر بابتهاج وغبطة، ويلهج لسانه وجميع جوارحه بالثناء على الله، والحمد على توفيقه، وهو يقدم للطبعة الثالثة لهذا الكتاب، الذى يعتبره من أحب الأعمال وأعظم القربات فى مجال الكتابة والتأليف، ويردّد قول الشاعر من أعماق قلبه:

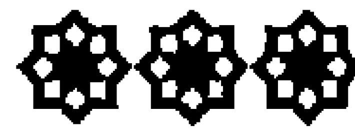
فلــو أنّ لى فى كل منبت شعرة لساناً، لما استوفيت واجب حمده

وقد كانت العناية بموضوع هذا الكتاب، والتنويه بشأنه فى الأوساط العلمية والدينية، فوق ما كان يتوقعه المؤلف، وأكثر مما كان يستحقه التأليف، وظهرت ترجمته بالتركية فى مدة قليلة، وترجمت بالأردية والإنجليزية، ونفدت الطبعة العربية الأولى فى بضعة أشهر، والتجأ الناشر لكثرة الطلب، وضغط الطالبين إلى إعادة طبعة بالتصوير، فلم يتمكن المؤلف من تصويب الأخطاء، والتى وقعت فى الطبعة الأولى، وكانت مع الأسف كثيرة، وصدرت الطبعة الثانية طبق الأصل فى كل شيء، وتأخرت مراجعة الكتاب، وتصحيح الأخطاء لكثرة أشغال المؤلف وأسفاره، حتى وفّقه الله لذلك أخيراً، فانصرف كليًّا إلى قراءة هذا الكتاب وتصحيحه، وتنقيحه، وتهذيبه، حتى أتّمه فى مدة قليلة.

وكان المؤلف يشعر بفراغ، أو بنقص فى المواد فيما يتصل بالصدقات فى الديانات الهندية القديمة، وعند اليهود والمسيحيين، فدرس هذا الموضوع من جديد، وألحق فصولاً جديدة فى هذا الموضوع، هى غاية ما وصل إليه علمه ودراسته، واحتوت عليه مصادر هذه الديانات، الموثوق بها، علاوة على زيادات يسيرة، وإيضاحات قليلة يجدها القارئ فى هذه الطبعة، فجاءت الطبعة الثالثة بحول الله أكبر قيمة، وأغنى مادة، وأكثر ضبطاً ودقة، من الطبعتين الأوليين.

وها نحن أولاً، نقدم هذا الكتاب فى طبعته المنقحة المزيدة، وفى ثوبه القشيب[1]، للشباب الإسلامى المثقف، ومديرى المدارس، ومنظّمى حلقات الدراسة والمطالعة، ولقادة الحركات الإسلامية، ورجال التربية، عسى أن يكون حلقة مفقودة، كان المربون والموجهون بحاجة ملحّة إليها فى التثقيف الدينى الصحيح، وفى تكوين المزاج الإسلامى النبوى، والتمسك بلباب الدين وروحه، وإثارة روح الإيمان والاحتساب فى العاملين، وتغذية العقل والقلب فى وقت واحد، فى الدراسات الإسلامية، وهى غاية ما أمّله المؤلف من تأليف هذا الكتاب، وتشوّف إليه، والله من وراء هذا القصد.

أبو الحسن على الحَسنى النَّدوي
لست عشر خلون من رجب
سنة تسع وثمانين وثلاث مئة وألف
زاوية الشيخ علم الله الحسنى رحمه الله
رائى بريلي—الهند



(١) [القشيب: الجديد].

الصَّلَاةُ

الصَّلاةُ

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١]

الحاجة إلى فهم الصلة التى تقوم بين العبد والرب:

لا يفهم الصلاة، ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوّقها، إلاّ من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة، التى تقوم بين العبد وبين الرب، إنها صلة غريبة فريدة، لا نظير لها ولا مثال، إنها لا تقاس على صلة بين طرفين وبين اثنين فى هذا الوجود، إنها لا تقاس على صلة بين صانع ومصنوع، وبين حاكم ومحكوم، وبين قوى وضعيف، وبين فقير وغنى، وبين مُسْتَجَد مكدّ، وبين جواد منعم، فحسب، إنها صلة أدقّ من جميع هذه الصلات، وأعمق وأقوى وأشمل.

الصِّلات تابعة للصفات نابعة منها:

ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب، إلاّ من عرف صفة العبد والرب، والصلة دائماً تابعة للصفة، نابعة منها، إنك لا تستطيع أن تحدّد صلة بين طرفين، وعلاقة بين اثنين، إلاّ إذا عرفت صفة كل واحد منهما، وعرفت التفاوت أو التفاضل بينهما، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر، وفضل أحدهما على الآخر، وجميع الصلات التى نمارسها فى الحياة، والتى تشكّل القانون، وتكوِّن المدنية، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التى نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات، أو أعضاء الأسرة أو ذوى السلطان.

الصفات والأسماء ومكانتها فى الدين والقرآن:

لذلك لهجت الصحف السماوية، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدّد الصلات، وتدعو إلى العبادات، وتسنّ الفرائض وتحثّ على الطاعات. ولذلك سبقت العقيدة فى جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامهما وشرائعهما، ودعا جميع الرسل فى مختلف الأدوار والأمصار إلى العلم الصحيح والمعرفة الصحيحة، ووصف الله الوصف

الصحيح، ودعوا إلى التقديس والتنزيه قبل أن يدعوا إلى شيء آخر، وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ فى أوقاتهم وأكبر قسط فى جهودهم، وأكبر مكان فى صحفهم ودعواتهم، وجاهدوا فى ذلك الجهاد الأكبر.

والقرآن الذى جاء مهيمناً على هذه الكتب كلها، وكان الكتاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك. فهو الموضوع المكرّر المنوّع الذى احتلّ المكان الرئيسى فى هذا الكتاب المعجز، وسمّى ما تجلّى فيه هذا الموضوع بأكبر قوة ووضوح على وجازته وقصَره (وهى سورة الإخلاص): ثلث القرآن[1]، وذكرت من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنى، وأفعاله وتصرفاته العجيبة، وقوته وقدرته، وصنعه وإبداعه، ولطفه ورحمته، وحبه ورأفته، وجوده وكرمه، وعفوه وصفحه، وإعطائه ومنعه، وضرره ونفعه، وعلمه ومعرفته، وقربه ودنوّه، وإحاطته ومعيّته، وقَبوله واستجابته، ما يجعله المثل الأعلى فى الجمال والجلال، والكمال والنوال: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، ويجعله متفردًا فى صفات الحُسن والإحسان: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

الإنسان.. المخلوق الغامض المتناقض:

وكذلك وردت نصوص وإشارات فى هذه الكتب –وشهد العلم والتجربة بصحتها– بوصف هذا الإنسان المخلوق، وبيان ما فُطر عليه، وتركّبت به طبيعته من أضداد ومتناقضات، فليس هنالك مخلوق –على كثرة المخلوقات والموجودات– أدق وأعمق منه صنعاً، وأكثر منه غرابة وغموضاً، وأعظم منه تناقضاً وتضارباً؛ فهو ضعيف يحب القوة والغلبة، فقير يحب الغنى والخير، خاضع لناموس الموت والفناء، محبّ للخلود والبقاء، متعرض للأمراض والأخطار، ولوع بالصحة والسلامة، هلوع جزوع، ولوع

(١) جاء فى حديث رواه مسلم فى صحيحه أخرجه البخارى (٦/٢٤٤٩) ((باب كيف كانت يمين النبي– ﷺ) برقم (٦٢٦٧) من حديث أبي سعيد– ﷺعن أبي هريرة ﷺ ألا إنها (يعنى سورة الإخلاص) تعدل ثلث القرآن. ((باب فضل قل هو الله)). [(١/٥٥٧) برقم (٨١٢)].

طموح، كثير الحاجات دقيق الرغبات، عميق الهواجس والخواطر، بعيد الآمال والنظرات، لا تروى غلته ولا تُشبع جوعته، ملول طرِف[١]، سؤوم ضجر، يكره القديم التليد، ويطلب المزيد الجديد، ويزهد فى الميسور الموجود، ويرغب فى المعدوم المفقود، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه، وأطول من حياته، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود.

وفى هذا التناقض الغريب، والصراع العنيف، وفى هذا الطموح البعيد، والحرص والنهامة[٢]، والطلب والاستزادة، سرّ شرفه وكرامته، واصطفائه وخلافته، وبه استطاع أن يتسلّم الأمانة التى اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ﴿ **فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وبه استحقّ الخلافة فى هذه الأرض، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون.

مخلوق أليف حنون:

وكذلك عُجنت طينته بالحب والحنان، ورُزِق -عدا الحواس الخمس التى يستخدمها ويتمتع بها فى حياته المادية- حاسة سادسة هى حاسة الحب والحنان. قد تضعف وقد تقوى، وقد تكمن وقد تبرز، ولا يحرمها بتاتاً إلا من فقد الاستعداد وحاد عن الفطرة ودخل فى الجماد، فهو مخلوق أليف حنون، قوى العاطفة رقيق الشعور، يندفع إلى الجمال أو الكمال اندفاعاً لا يوجد عند غيره من المخلوقات، من حيوانات وجمادات، ويعطيها من نفسه ومشاعره، وحبه وعاطفته وتفانيه ما لا يعطيه غيره، تشهد بذلك أخبار العشاق والمتيَّمين الذين لم يخلُ منهم عصر أو مجتمع، وأخبار العارفين المحبّين فى أمم الأنبياء، ويشهد بذلك الشعر الغزلى والأدب العاطفى الوجدانى، الذى تزخر به مكتبة الآداب العالمية.

---

(١) كثير الملل من القديم، محب لكل جديد طريف.

(٢) **النهامة**: إفراط الشهوة فى الطعام، وأن لا تمتلئ عين الآكل ولا تشبع. لسان العرب مادة نهم، ومقصود المصنف الولوع بالمرغوب فيه وعدم الشبع منه.

خاضع خاشع بالغريزة:

وكذلك حمل - مع الغرائز التي يحملها - غريزة التواضع والخضوع، والتطامن والخشوع، وقد تجلّت هذه الغريزة فى كل دور من أدوار حياته، وفى كل طبقة من طبقاته، فكان فى دوره البدائي- ولا تزال له بقية فى كثير من المجتمعات- يخضع أمام الأحجار وبعض الأشجار والأنهار، وكان يعبد النار، ويعبد الشمس أو القمر أو الكواكب، ويخشع أمام مظاهر الطبيعة أو الظواهر الكونية، ويخضع للسدنة والكهّان، والأحبار والرهبان، والجن والأرواح، ولكل ما تعسّر فهمه ودقّ علمه، ولا يزال رغم ثقافته الواسعة، وعقليته المترقية، ودعاويه الطويلة العريضة، ورغم عتوِّه واستكباره، وثوراته التي لا تكاد تنتهى، يخضع للحكام والسلاطين، وزعماء الأحزاب ورؤساء الحكومات، والنظم والفلسفات التي هى من وضعه، أو وضع بنى جنسه، ويخضع كذلك فى دور نبوغه وتحضّره للمبدعين والعبقريين، والشعراء والأدباء والفنانين، وكثير من المفكرين والمشرِّعين، وكبار الأغنياء الموسرين وأصحاب الحَول والطَّول، والأمر والنهى خضوعاً فيه كثير من الوله والهُيام، وكثير من التقديس والتأليه، فهو إنسان ولوع حنون، خاضع خاشع، متطامن ومتواضع بالغريزة والفطرة.

لا بدَّ من مثل أعلى:

فلا بدَّ له من مثل أعلى للجمال أو الكمال، أو القوة والعزّة، أو الغرابة والغموض، أو السيطرة والنفوذ، ليشغل هذه الغريزة ومقتضياتها، ويرضى مطالبها ويحقق غاياتها.

"...لة العادلة المعقولة التى يجب أن تكون دائماً بين (الإنسان) وبين (الله):

تأمّل فى صفات الرب التي سبقت، من قوة وقدرة، وعلم وخبر، ورحمة ولطف، وكرم وجود، واستجابة وقَبول، وقرب لا مزيد عليه، وبكل ما نطق به القرآن من صفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، وبكل ما جاء به فى ذلك من المعجب المطرِب، من النعوت والأوصاف، والأخبار والآثار.

ثم تأمّل فى صفات هذا الإنسان المخلوق، واستعرض كل ما اتّصف به، من ضعف

وعجز، وفقر وفاقة، ثم انظر إلى طموحه الذى لم يُعرف لأى مخلوق، ونهامته -للماديات أو المعنويات- التى تفوق كل شرَه ونهامة عند أكبر حيوان، وإلى حاجاته التي لا يشاركه مخلوق آخر في كثرتها وتنوعها ودقّتها، وإلى آماله ومطامعه التى لا تكاد تنتهى، ثم انظر إلى غريزة الحب والحنان، والخضوع والانحناء المودعة فى هذا الإنسان.

أما احتاج هذا الإنسان إلى أن يكون فى خضوع دائم، وفى ركوع أو سجود لا انقطاع لهما، وفى مناجاة ودعاء لا نهاية لهما، أمام الربّ الذى هو الإله الحق والجواد المطلق، والذى أعطاه من كل ما سأل بلسان القال أو بلسان الحال؟: ﴿ **وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والذى يعلم الخواطر الدقيقة الدفينة، والأمانى الموءودة المَنسية أو الأحلام القديمة المطمورة، التى نسيها الإنسان أو تخلّى عنها أو يئس من تحقيقها، والتى قد يَغار عليها القلب فلا يشرك فيها العقل ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ **وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ [طه: ٧]، والذى هو أقرب من كل قريب، والذى هو دائماً سميع مجيب ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق: ١٦]، ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾ [الواقعة: ٨٥]، والذى كان السائل الملحف(١)، والداعى المتشبث، أحب إليه من أبيٍّ ممتنع؛ وصامت مستغن: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٥]، ويقول رسول الله ﷺ: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٢).

---

(١) والإلحاف شدة الإلحاح فى المسألة، وفى التنزيل ﴿**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣] لسان العرب مادة [لحف].

(٢) **صحيح**: رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ «كتاب الأدعية باب ما جاء فى فضل الدعاء» (٤٥٦/٥) (٣٣٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٢٤١٨).

الكون فى خضوع دائم وعبادة مستمرة:

لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون، تنشر النور وتمنح الحياة والحرارة، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السبيل ويحدد الشهور والسنين، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبلّغ رسالتها، ووقفت الأشجار على قدم وساق، وافرة الثمار وارفة الظلال تعبد الربّ وتخدم الإنسان -سيد هذا الكون وخليفة الله فى أرضه- وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان، وهبّت الرياح لواقح تحمل أمانة الماء من جهة إلى جهة، وسارت السُّحب تحمل الأمطار وتحيى الأرض بعد موتها، وجرت الأنهار تروى ظمأ الإنسان وتسقى الزروع، وتثير دفائن الأرض، ومشت الحيوانات والدّواب على أربع كأنها فى ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلى مكان، وتحمل الأثقال، وله فيها دفء ومنافع، ومطاعم ومشارب، وزحفت كثير من الحيوانات على صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان.

فهذه المخلوقات التى لا عقل لها ولا قلب، فى عبادة دائمة، فى طاعة وخضوع لأمر الله تعالى، فلا عصيان ولا ثورة، ولا تمرّد ولا جموح، ولا ملل ولا سآمة، ولا إضراب ولا انقطاع عن العمل، ولا راحة ولا عطلة، فكأنها دائماً فى السجود: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [الحج: ١٨]، ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]، ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** ﴾ [الرحمن: ٥، ٦]، ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، فهذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وعلى تنوع عباداتها فى

صلاة، تتفق مع طبيعتها ووظيفتها، وفى حمد وتسبيح لا يفقههما إلا من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١] .

مركز الإنسان فى هذا العالم وما يقتضيه وسبب تميُّزه عن سائر الكون فى العبادة:

لقد كان الإنسان بشرفه واختصاصه، وعقله وقلبه، أحقّ من جميع هذه المخلوقات التى سبق ذكرها، بأن يكون فى عبادة دائمة لا انقطاع لها، من قيام وركوع وسجود، ومن حمد وتسبيح وذكر لا يفتر عنه لسانه، وقد كانت الهبات التى اختص بها، والعناية الإلهية التى كان موضعها، والنعم التى تدفقت عليه ونزلت كالمطر الغزير، تقتضى أن لا ينقطع عن هذه العبادة، ولا ينصرف عن هذه (الصلاة) طرفة عين، وأن يكون كالملائكة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ولكنه اختير ليكون خليفة الله فى أرضه، وهُيِّئ لهذا المنصب فخلقت فيه الشهوات، ووضعت فيه الحاجات، وأودعت فيه المشاعر والأحاسيس، والعواطف والرغبات، وأودع فيه الحب والحنان والرقة، والتألم والالتذاذ، ووضع فيه الاستعداد للمعرفة، واستخدام ما خلقه الله فى هذه الأرض وبثه من دفائن وخزائن، ونعم وخيرات، وقوى وطاقات، وكان تعليم الأسماء الذى خُصّ به من دون الملائكة رمزاً لهذا الاستعداد الفطرى، ومظهراً من مظاهر الخلافة الأرضية، ومفتاحاً من مفاتيح الاتصال بهذا الكوكب الذى مُنح إمارته والتصرف فيه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا

أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فكان اختياره لهذا المنصب الخطير، وكانت خلقته التى طابقت هذه الغاية وخضعت لها، وكان قيامه بواجبه كخليفة فى الأرض كُتبت له الوصاية على خيراتها وطاقاتها تأبى وتنافى أن يكون فى قيام دائم، أو فى ركوع دائم، أو فى سجود دائم، أو فى تسبيح لا ينقطع، وفى ذكر لا يفتر، شأن الأجرام الفلكية، أو الجبال الجامدة، أو النباتات الساكنة، أو الحيوانات العجماء، فإذا حاول ذلك أو التزمه، أقام الدليل على إخفاقه وخيبته، كخليفة الله فى الأرض، وصدّق ما قالته الملائكة وبرّر ترشيحهم أنفسهم لهذا المنصب الجليل، على أساس التسبيح والتحميد والعبادة الدائمة.

عبادة مطابقة لوضعه الخاص ومركزه الدقيق:

إذاً كان لا بد من عبادة تليق بفطرته وبمنصبه، ومركزه فى هذا الوجود، والمهمة التى ألقيت على عاتقه، والواجبات التى يجب أن ينوء بها، فكان لا بد من عبادة لأنها مقتضى الفطرة، ونتيجة الغريزة، ونداء الضمير، وواجب الشرف، وحاجة الإنسانية، وغذاء القلب، وكان لا بدّ أن تكون هذه العبادة مطابقة كل المطابقة لوضعه الخاص، ومركزه الدقيق، وموقفه الفريد، وأن يكون لباساً قد فُصِّل على قامته، وعلى قدر حاجته.

لباس فُصِّل على قامته:

فكانت الصلاة المفروضة هى اللباس المفصّل على قامته من غير طول وفضول، ومن غير قصر وضيق: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

حكمة التشريع فى تخفيف عدد الصلوات المفروضة وفوائده النفسية:

واختارت لذلك الحكمة الإلهية والتشريع الربّانى طريقة حكيمة تجمع بين المثل

الأعلى وبين التدريج والتيسير، ففرضت الصلاة خمسين صلاة فى المعراج، ثم أنزلها الله إلى خمس صلوات[1] ليعلم المسلم أن الأصل المفروض كان خمسين صلاة، وأن ربّه تبارك وتعالى قد رآه أهلاً لذلك، وجديراً به، فيثير ذلك فيه الثقة بنفسه والاعتزاز بكرامته، فلا يستقل هذه الصلوات الخمس ولا يستعظمها، ويرى أنه قد كان كفؤاً لأضعافها، وأضعاف أضعافها، فإنها لو بقيت فريضة محكمة لقام بها، ولكن ربّه لطف به، فجعلها خمس صلوات تساوى خمسين صلاة، ولا يزال هذا الأصل الأول مصدر التشجيع، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمّة، والتسامى فى العبادة.

نظيره فى القرآن:

ونظيره فى القرآن أن المسلمين كان يُطلب منهم فى أول الأمر، أن يقفوا فى وجه عدوّهم، وهو أكثر منهم عشر مرات، ثم كان التيسير والمسامحة، فطُلب منهم أن يقاوموه، ويقفوا فى وجهه، وهو ضعفهم، فقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِى حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وكان الحكم الأول –ولا يزال– مصدر القوة والشجاعة، ومصدر الثبات والاستقامة، ومصدر المغامرة التى هى من أقوى عوامل الانتصار، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمّة، والتسامى فى الجهاد، ولهذه الحكمة الدقيقة –والله أعلم بأسرار

(١) **صحيح**: جاء فى حديث طويل عن الإسراء، رواه البخارى فى صحيحه: «فُرض علىَّ خمسون صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى عليه السلام، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة! قال ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربى، فقلت يا رب خفّف على أمتى، فحطّ عنى خمساً، إلى أن قال، فلم أزل بين ربى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، ولكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة». الجامع الصحيح «كتاب الإسراء». (١٤١٠/٣) (٣٦٧٤) من حديث مالك بن صعصعة –رضي الله عنه

كتابه- بقيت الآية المنسوخة تتلى فى الكتاب لتضمَّ شجاعة إلى شجاعة، وتزيد حماسة إلى حماسة، وذلك هو المثل الأعلى للمؤمنين الصادقين والمجاهدين المستميتين.

وجبات روحية، وحقن صحية عيّن أعدادها وأوقاتها العليم الحكيم:

وهذه الصلوات الخمس تؤدّى فى أوقاتها المعيّنة التى حدّدها الله فقال: ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً** ﴾ [النساء: ١٠٣]، وأشار إلى أوقاتها فى القرآن[(١)]، ولها ركعات معدودة تؤدّى بها هذه الصلوات الخمس دائماً، وقد داوم عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم مدة حياته، حتى فى الحروب، وتواترت أخبارها تواتراً لا يُعرف لأى عمل أو عبادة فى ملّة من الملل، وفى دور من أدوار التاريخ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد، حتى فى أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزماتها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها، وجبات روحية وحقن صحّية، شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذى ليس طبيب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم وصانعها الحكيم كذلك، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها، ولا بد من التمسّك بها، والعضّ عليها بالنواجذ، والإتيان بها فى أوقاتها، التى لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجلّيات وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب، ولعبّاد الأحجار والنار[(٢)]. وقد خضعت الأجيال البشرية، والعقول السليمة، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم

(١) يقول الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** ﴾ [الإسراء: ٧٨]. استنبط بعض المفسرين من كلمة (الدلوك) ثلاثة أوقات: (الظهر) و(الفجر) و(المغرب)، ومن (غسق الليل): (العشاء)، و(قرآن الفجر): (صلاة الصبح). انظر التفصيل فى (سيرة النبي) لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوى المجلد الخامس، وراجع فى (لسان العرب) كلمة (الدلوك).

ويقول الله تعالى: ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى** ﴾ [طه: ١٣٠] وراجع فى تفسيره الكتاب المذكور.

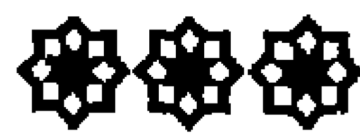
(٢) انظر البحث النفيس فى ذلك فى كتاب (حجة الله البالغة) الجزء الأول لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم (ولى الله الدهلوي-١١٧٦هـ) تحت عنوان: (باب أسرار الأوقات، ص ٧٧-٧٩).

وتحديداتهم، وهم من بنى جلدتهم، وفى مستواهم البشرى، لتجارب محدودة، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم؟ ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]، ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]؟

الحكمة فى تكرر الصلوات وتعاقبها:

وفى تكرّر هذه الصلوات وتعاقبها فى يوم وليلة حكمة بالغة، وتغذية صالحة كاملة للنفوس، ووقاية لها عن الغفلة عن الله، واستحواذ المادية على القلب والروح، يقول شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى فى حكمة تكرار الصلوات، وتعاقبها فى كل يوم وليلة:

((وسياسة الأمة لا تتم إلاّ بأن يؤمر بتعهد النفس بعد برهة من الزمان، حتى يكون انتظاره للصلاة واستعداده لها من قبل أن يفعلها، وبقية لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلها فى حكم الصلاة، فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات إن لم يكن استيعاب كلها، وقد جرّبنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل فى النوم البهيمى، وأن المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوى، وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد أن لا يفوته، لا يتجرد للبهيمية، وهذا سر قوله ﷺ ((من تعارّ[1] من الليل)) الحديث، وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧][2].



(١) **صحيح**: إشارة إلى حديث رواه البخارى (٣٨٧/١) (١١٠٣) باب ((فضل من تعار من الليل فصلى)) وأبو داود (٣١٤/٤) (٥٠٦٠) باب ((ما يقول الرجل إذا تعار من الليل)) والترمذى (٥/ ٤٨٠) (٣٤١٤) باب ((ما جاء فى الدعاء إذا انتبه من الليل)) وغيرهم عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ ولفظ البخارى: ((من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله والله وأكبر ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لى، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ قبلت صلاته)) (كتاب التهجد).

قال الحافظ ابن حجر قال فى المحكم: ((تعار الظليم معارة، صاح، والتعار أيضاً السهر والتمطى والتقلب على الفراش ليلاً مع الكلام)). (وقال ابن التين: ظاهر الحديث أن معنى ((تعار)) استيقظ، وإنما ذلك لمن تعود الذكر واستأنس به، حتى صار حديث نفسه من نومه ويقظته، فأكرم من اتصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته).

(٢) حجة الله البالغة: ٧٨/١، باب أسرار الأوقات.

الصلاة ومكانتها فى الإسلام:

وكان لا بد من الخضوع لحكمة التشريع والإيمان بأن الصلاة فريضة الله على عباده، وأنها عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين(١)، وشرط النجاة وحارسة الإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿ الـم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١-٣]، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، وقال: ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٢، ٢٣]، وقال وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩]، وقال وهو يحكى أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣]، وقال عن المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢].

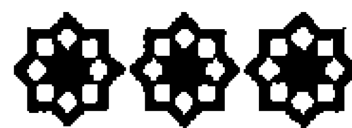
---

(١) وقد ورد فى القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١] وجاء فى سورة براءة: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، وجاء: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. وقد روى مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبى ﷺ قال: ((بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة)) (٨٨/١) (٨٢) باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، وفى رواية: ((بين الرجل والشرك ترك الصلاة (١٣/٥) (٢٦١٨) باب ((ما جاء فى ترك الصلاة)) من حديث جابر ﷺ، وللترمذى ((بين الكفر والإيمان الصلاة)) أخرجه ابن جابر فى صحيحه (٣٠٥/٤) (١٤٥٤) باب ((ذكر لفظة أوهمت غير المتبحر فى صناعة الحديث أن تارك الصلاة حتى خرج وقتها كافر بالله-جل وعلا-، والحاكم (٤٨/١) (١١) فى كتاب ((الإيمان)) وصححه وأخرجه أحمد (٣٤٦/٥) (٢٢٩٨٧)، والنسائى فى المجتبى (٢٣١/١) (٤٦٣) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٤٣) وعن بريدة رفعه: ((العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)) (١٣٣٩/٢) (٤٠٣٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع وروى ابن ماجه عن أبى الدرداء، قال: ((أوصانى خليلى أن لا تشرك بالله شيئاً، وإن قطعت وحرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر)). (٧٣٣٩) وروى مالك فى الموطأ (٦/١) (٦)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٥٣٦/١) (٢٠٣٨) أن عمر بن الخطاب ﷺ: كتب إلى عماله: إن أهم أموركم عندى الصلاة، من حفظها أو حافظ عليها، حفظ دينه، ومن ضيعها، فهو لما سواها أضيع.

وهى فريضة دائمة مطلقة على عبد وحرّ، وغنى وفقير، وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقُط عمّن بلغ الحلم فى حال من الأحوال، بخلاف الصيام، والزكاة، والحج، الأركان الثلاثة التى وجبت بشروط وصفات، وفى أوقات معيّنة محدودة، حتى أمر بها فى ساحة الحرب، وميدان القتال، وشرعت صلاة الخوف، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مُّبِيناً * وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٣]، وقال: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

دوام التكليف بالصلاة والخطر فى تركها:

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبى مرسل، فضلاً عن صالح أو عارف، أو مجاهد، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩][(١)]. ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين و[المشاهدة] أو لحسن بلائه فى الإسلام، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة، فقد أتلف نفسه وعرّضها للخطر الأكبر.



(١) أجمع العلماء المفسرون الذين يعتد بهم على تفسيره بالموت، ومسألة عدم سقوط التكليف عن العاقل البالغ معروفة فى علم العقائد والكلام.

مثل تارك الصلاة لفضل يعتمد عليه:

وكان الذى يترك الصلاة «اعتماداً على شيء آخر»، كمن عمد من ركاب سفينة الفضلاء الحكماء، إلى لوحة فى السفينة، ورأى أنها من فضول الصناعة وعملية التكوين، وأنه يُستغنى عنها فخرقها، أو عمد إلى بعض المسامير الرئيسية، فرأى فيها الإسراف والمبالغة، وجرّه حبُّ الفضول والدخول فيما لا يعنى، فقلعها، فجرّ على السفينة وعلى نفسه الشقاء، وكان سبباً للكارثة العظيمة(١).

سر المحافظة على الصلوات وعقوبة من أنكر ذلك أو ثار عليه:

وفى الصلاة سر لسلامة الإيمان، وسلامة الدين، والاتصال بالله تعالى والبقاء فى حظيرة الإسلام، والانخراط فى سلك المؤمنين، لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد ضرب بعض العارفين لذلك مثلاً عظيماً، فقال:

«كانت لأحد الأغنياء الحكماء حديقة غنّاء، ولمّا حضرته الوفاة، دعا ابنه وقال له: أوصيك بالمحافظة على هذه الحديقة، وعلى ما فيها من أشجار وأزهار، ونباتات وحشائش، فلا تقص منها شيئاً استغناءً عنه أو زهداً فيه، فإنها كلها تقوم على حِكَم غامضة، وفوائد مستورة، ولمّا مات الرجل وآل الأمر إلى ولده، رأى أن نباتاً قد ذوى وأصبح حشيشاً لا رائحة فيه ولا غناء فيه، ورأى أنه يشغل مكاناً من غير جدوى، ويسيء إلى الحديقة وجمالها ومنظرها، فاقتلع الجرثومة، فما لبث أن دخلتها حيّة سوداء، فلسعت سيّدها فمات من ساعته، وعلم الناس أن الجرثومة كانت وقاية من الحيّات والأفاعى والحشرات السامّة، فلا تدخل حديقة فيها هذه الجرثومة»(٢).

كذلك من ترك الصلاة، واستغنى عنها، اعتماداً على وصوله إلى الغايات، والنتائج التى يعتقد أن الصلاة شرعت لها، وكانت قنطرة إليها، أو اعتماداً على مأثرة من مآثره فى خدمة الإسلام والمسلمين، وكثرة عبادته فى الماضى، أو طول جهاده وحسن بلائه،

---

(١) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيرى الهندي. (م٧٨٦هـ).

(٢) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيري.

أو شدة اشتغاله بعمل مثمر، يعود على الإسلام والمسلمين بالفائدة والخير الكثير(١)، فقد عرَّض نفسه للهلاك، وأعماله للحبط، وإيمانه للضياع، وكان كالشاة المفارقة للقطيع والراعى، التى يختطفها الذئب ويفترسها.

الصلاة للمؤمن العارف كالماء للسمك:

وكانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء والمناجاة، والإطراح على عتبة القوى الغنى، الجواد الكريم، الرءوف الرحيم، الحافظ المانع، المعطى الباذل، العليم الخبير، السميع المجيب، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء، وغريزة الحب والحنان، وغريزة الخضوع والتواضع، والعبودية والتذلل، فهو فى ذلك كالسمك لا يعيش إلا فى الماء، وإذا أخرج من الماء لم يزل فى حاجة إلى الماء، وفى حنين وفى فرار والتجاء إليه، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجُعل قرة عينى فى الصلاة»(٢) وقوله لمؤذنه بلال: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها»(٣).

معقل المسلم ومفزعه:

وكانت الصلاة أقرب إلى المؤمن وأكثر إيواءً، وأسرع نجدة وإسعافاً، وأسخى وأحنى وأعطف عليه من حِجر الأم الرءوم الحنون، على الطفل الشريد اليتيم الضائع، الضعيف العاجز، كلّما عُوكس أو هُدِّد، وكلما أصابه الروع أو الفزع، أو مسه الجوع أو

---

(١) شأن كثير من الزعماء السياسيين، ورجال الحكم، والعاملين فى حقل الاجتماع والسياسة والتعليم والتربية فى كثير من البلاد الإسلامية. فإنهم يستهينون بأمر الصلاة ويعتذرون بأنهم فى شغل شاغل فى خدمة الأمة أو الوطن، وفى جهاد متصل لا يترك لهم وقتاً لأداء الصلوات المكررة، المتكثرة فى اليوم والليلة.

(٢) **صحيح**: رواه النسائى (٧/٦١) (٣٩٣٩) باب «حب النساء»، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤) من حديث أنس - رضي الله عنه.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود عن رجل من خزاعة من أصحاب النبى ﷺ «كتاب الأدب، باب فى صلاة العتمة». (٤١/٢٩٦) (٤٩٨٥) باب «فى صلاة العتمة»، وأحمد (٥/٣٦٤) (٢٣١٣٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٩٢) من حديث رجل.

العطش، أوى إلى أمه فرمى نفسه فى أحضانها، أو تشبث بأذيالها، كذلك الصلاة معقل المسلم وملجؤه، الذى يأوى إليه، والعروة الوثقى التى يعتصم بها والحبل الممدود- بينه وبين ربّه- الذى يتعلق به، وهو غذاء الروح وبلسم الجروح ودواء النفوس، وإغاثة الملهوف، وأمان الخائف، وقوة الضعيف، وسلاح الأعزل، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فعن حذيفة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى[١]، وروى أبو الدرداء: كان النبى ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح، إذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي[٢].

وكان هذا شأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فقد أخرج أبو داود عن النضر قال: ((كانت ظلمة على عهد أنس فأتيته، فقلت يا أبا حمزة، هل كان يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال معاذ الله! إن كانت الريح لتشتدّ فنبادر إلى المسجد مخافة القيامة))[٣].

وكان حنينهم إلى الصلاة، وإيثارهم لها على كلّ ما حُبّب إلى النفس البشرية، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم فى سبيلها معروفة عند المشركين، وقد روى مسلم عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جهينة، فقاتلوا قتالاً شديداً [إلى أن قال]: ((وقالوا إنه ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولاد))[٤].

كل من الجسم والعقل والقلب ممثل فى الصلاة:

وذلك، لأن الصلاة ليست حركات رياضية، ونظاماً رتيباً خشبيًّا جامداً، لا روح

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (٢/٣٥) (١٣١٦) من حديث حذيفة ﷺ وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وفيه زياد بن صخر.

(٣) أخرجه أبو داود (١/٣١١) (١١٩٦) باب ((الصلاة عند الظلمة ونحوها))، والبيهقى (٣/٣٤٢) (٦١٧١)، والحاكم فى مستدركه (١/٤٨٣) (١٢٤١). قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (١/٥٧٥) (٨٤٠) باب ((صلاة الخوف)).

فيه ولا حياة، ولا نظاماً عسكرياً، لا إرادة فيه ولا خيار، إنما هو عمل يشترك فيه الجسم، والعقل والقلب، ولكل منها نصيب غير منقوص، وكلٌّ فيها ممثّل تمثيلاً حكيماً عادلاً، فللجسم قيام، وركوع وسجود، وانتصاب وانحناء، وللسان تلاوة وتسبيح، وللعقل تفكير وتدبّر، وتفهم وتفقه، وللقلب خشوع ورقة والتذاذ، وقد أعطى الله تعالى فى كتابه المحكم كلاً نصيبه فقال: ﴿ وَقُومُوا للَّه قَانتينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]، وكل ذلك من أعمال الجسد، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فنصَّ على أن الصلاة لابد أن تكون عن تعقّل وشعور، وذلك من أعمال العقل، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمنُونَ * الَّذينَ هُمْ فِي صَلاتهِمْ خَاشعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] والخشوع من أعمال القلب، وقال: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] والخوف والطمع من أعمال القلب.

الاقتصار على تمثيل واحد من الثلاثة جهل وضلال:

ذلك لأن الإنسان جسم وعقل وقلب، فجاءت الصلاة المشروعة فى الإسلام أكمل صلاة، مثلت فيها الطبيعة البشرية، بنواحيها الرئيسية وشُعَبها المميزة، وقد ضلّ من المشرّعين والمتعبدين من اقتصر على الحركات الرياضية، كما كان عند اليهود فى الدور الأخير، وضلّ من اقتصر على التدبّر والتفكّر، والمراقبة والتأمّل، كما فعل بعض الصوفية المنحرفين، وكثير من الحكماء المتفلسفين، وضل كذلك من اقتصر على الخشوع والرقة، والبكاء والدعاء، أو السكر بالمحبة والحنين، كما فعل بعض المتألهين، أو الرهبان المتعبدين، من جَهَلة النصارى، أو أدعياء المسلمين.

وضع الصلاة الدقيق الحكيم ونظامها التربوى المعجز:

وقد هيأت الحكمة الإلهية، والتشريع الربانى (الصلاة) تهيئة دقيقة عميقة، هى من المعجزات التشريعية، لتحقّق غاية العبودية، والإخلاص لله تعالى، وغاية الخضوع

والتذلّل، والاستغاثة والابتهال، وإحياء الصلة بالله تعالى، وتجديدها، والانقطاع عمّا سوى الله، وإعلان الثورة على كل من نازع الله فى ألوهيته، أو ربوبيته، أو عظمته وكبريائه، أو حكمه وطاعته المطلقة، ومن دعا إلى نفسه -بلسان المقال أو بلسان الحال- بالإخبات والخضوع، أو بالعبادة والخشوع، ومن زعم -ولو بلسان الحال- أنه يأمر وينهى، ويُرجى ويخشى، ولتنشئ فى النفس قوة روحية، وإيماناً عميقاً جديداً، ونوراً يفيض به القلب، يستطيع أن يقاوم به أقوى الفتن والمغريات، وأقسى الحوادث والكوارث، ويتغلب به على شرور النفس ومكايدها، ومواضع ضعفها وسقطتها.

استقبال القبلة فى الصلاة حكمته وتأثيره:

أُمر المصلى باستقبال الكعبة فى الصلاة، وهو البيت العتيق الذى بُنى لله وحده، واختصّ بالعبادة لله حين كانت البيوت، والمعابد، والهياكل على ظهر الأرض لغيره، تعبد فيها الأصنام والأحجار، والأجرام الفلكية، والآلهة الخيالية[1]، فكان هو البيت الأول الوحيد، الذى انفرد بعبادة الله، والدعوة إليه، وكان رمزاً أبدياً، وشعاراً عالمياً للتوحيد، ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، بناه أبو الأنبياء، وإمام التوحيد، ومؤسّس هذه الملة الأولى، إبراهيم الخليل، وابنه الجليل إسماعيل، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨]. وكان أساسه على نقيض ما كان عليه النّاس يومئذ من عبادة غير الله، وإطاعة الطاغوت، وإعلان الحرب على كل ذلك: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِى وَبَنِى أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] فكان اختصاصه بالتوجه إليه، واستقباله فى أعظم العبادات وأعمّها، إعلاءً لشعار التوحيد، وإعلاناً بموافقة إبراهيم فى عقيدته

(١) كإله (الحب) وإله (الجمال) وإله (الحرب) وغيرها من الآلهة والإلهات عند اليونان، والهنود، والآشوريين، وقدماء المصريين.

ودعوته، وشارته وقبلته، والانتماء إليه، ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج: ٧٨]. يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

«لما كانت الكعبة من شعائر الله، وجب تعظيمها، وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم، وكان الاستقبال إلى جهة خاصة هنالك بعض شعائر الله منبّهاً للمصلى على صفات الإخبات والخضوع، مذكراً له هيئة قيام العبيد بين أيدى ساداتهم، جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة»[1].

وقد أنتج هذا التشريع الحكيم وحدة الاتجاه العالمية التي ليس لها نظير، والتي لها الأثر الكبير في وحدة الملة، وفي وحدة القلوب، وفي وحدة التفكير، والأثر الكبير العميق في اجتماع الخواطر، وتركُّز الهمة، وانصراف التوجه إلى جهة واحدة، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي: «وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضى الله بالتقرب منه، أجمع للخاطر، وأحثّ على صفة الخشوع، وأقرب لحضور القلب، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته»[2]، ويقول: «إن توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي هي من شعائر الله، مقامه كالوضوء وستر العورة، وهجر الرجز، فإنه لما كان التعظيم أمراً خفياً، نُصبت الهيئات التي يؤاخذ الإنسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم، ويعدّونها تعظيماً»[3].

جلال كلمة التكبير ومعانيها وآفاقها:

وشرع افتتاح الصلاة بالتكبير، وبالكلمة المأثورة المتواترة المشروعة، لافتتاحها، وهي قول «الله أكبر»، الكلمة البليغة الواضحة، المفهومة في كل زمان ومكان، ولكل مجتمع وبيئة وفرد، القوية المدويّة المجلجلة، التي يخشع أمامها الجبابرة، ويهوى لها كل صنم، ويضطرب بها كل طاغية وطاغوت، -لو قالها المصلى بفهم ووعى، وإيمان وعقيدة، ولو فهمها الأدعياء والمتزعّمون، والمتسلّطون على حقيقتها-. إن القدر المُشترك

(١) حجة الله البالغة: ٣٦/١.
(٢) حجة الله البالغة: (٢/٢).
(٣) حجة الله البالغة: (٧٣/١).

بين الأصنام التى تُعبد، والأشخاص التى تؤلّه، والأشياء التى تقدّس، والقوى التى يخضع لها، والرؤساء والزعماء الذين يطاعون طاعة عمياء مطلقة، هو العظمة والكبرياء، والتفوّق والترفّع، والاستعلاء والاستيلاء، فجاءت هذه الكلمة الموجزة المعجزة التى أمر بها فى قوله: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]؛ تنفى هذه الدعاوى والدعوات، والمزاعم والإعلانات، والأوهام والخرافات، والمظاهر والسخافات، ويثور بها المصلى ثورة حاسمة عارمة، شاملة كاملة، فهو بذلك ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولا وكراً من أوكار الفساد، ولا خلية من خلايا الطغيان، إلاّ أتى عليها، إنها أبلغ كلمة تفتتح بها صلاة المسلم الموحِّد.

طبيعة هذه الشهادة والعقيدة وأمثلة رائعة لها من التاريخ:

وإذا آمن الإنسان بهذه الكلمة، التى يفتتح بها صلاته، فيعتقد ويشهد بعظمة الله وكبريائه، ويقول بلسان صدق وجدّ: «الله أكبر»، وهيمنت عليه هذه العقيدة والشهادة، وتغلغلت فى أحشائه، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء، يتظاهر بها الملوك والرؤساء، أو العظماء الكبراء –كما يسمّيهم الناس–، وزالت مهابتهم من القلب، حتى تراءوا له حيوانات حقيرة، أو صوراً ودمىً هزيلة، واستخفّ بمظاهر دولتهم وسطوتهم استخفاف العماليق بسخافات الأقزام، واستخفاف الشيوخ الكبار، بمهازل الأطفال الصغار.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم خير مثال لذلك، وقد روى المؤرخون الشيء الكثير ممّا يدلّ على استخفافهم بمظاهر القوة والعظمة، ومشاهد الزينة والزخرفة، منها ما رواه المؤرخون ابن كثير عن ربعى بن عامر، قال: «أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق المذهّبة، والزرابى الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعى بثياب صفيقة، وسيف وترس، وفرس قصيرة، و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضة

على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى، فإن تركتمونى هكذا، وإلا رجعت، فقال رستم: «ائذنوا له»، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها»[1].

ولم تزل هذه العقيدة العميقة تصنع العجائب فى جميع أدوار التاريخ الإسلامى، وتنشئ فى أصحابها القوة الخارقة للعادة، فيواجهون الملوك والأمراء بما لا يواجه به كثير من الناس الفقراء والضعفاء، وتتبخّر أمامهم أُبَّهة الملك وحشمة الملوك، فكأنها لا شيء. ومن روائع قصص هذا الإيمان العميق، والشجاعة الخليقة، ما رواه الباجى أحد أصحاب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام[2]، يقول: «طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان[3] فى يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفّين بين يديه ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه فى زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدى السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه بأيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوّئ لك ملك مصر، ثم تُبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم! الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون، فقال: يا سيدي! هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبى، فقال: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة! فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة، وسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر، يا سيدي! كيف الحال؟ فقال، يا بنى، رأيته فى تلك العظمة، فأردت أن أهينه، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي! أما خفته؟ فقال: والله يا بنى استحضرت هيبة الله، فصار السلطان قدّامى كالقط»[4].

ولم يزل تاريخ الدعوة والعزيمة، وتاريخ الإيمان والعقيدة، يعيد نفسه فى كل عصر ومصر، فقد روى المؤلف الهندى (الشيخ محمد بن مبارك الكرمانى)[5] قصة مماثلة، يقول:

---

(١) البداية والنهاية: ٩/٧.

(٢) توفى سنة ٦٦٠هـ.

(٣) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب، توفى ٦٤٧هـ.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: (٨٦/٥).

(٥) توفى سنة ٧٧٠هـ.

«طلب السلطان محمد تغلق[1] الشيخ قطب الدين المنور[2] إلى دَهلى، يعاتبه أو يعاقبه، على عدم حضوره لتحية الملك، وقد مرّ بجواره، فلما حضر (البلاط) ودخل الديوان، رأى الأمراء والوزراء والحكام، ورجال البلاط واقفين سماطَين، متخشعين مسلحين، فى هيئة تنخلع منها القلوب، وكان معه ولده نور الدين، وكان حديث السنّ لم يزر (بلاط) الملك فى حياته، ففزع لهذا المنظر الغريب، وامتلأ رعباً، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً: يا ولدى، العظمة لله، يقول نور الدين: إنى استشعرت فى نفسى قوة غريبة بعد هذا النداء، وزالت الهيبة من نفسى وذابت، وبدا الجميع عندى، كأنهم قطيع من ضأن أو معز»[3].

أذكار الافتتاح وأدعيته:

ثم تأمل فى جميع الأذكار والأدعية، التى كان رسول الله ﷺ يفتتح بها صلاته، كلها إخلاص وتوحيد، وتقديس وتمجيد، أو إخبات وإنابة، وتلهُّف واستغاثة، وحسبك أن تنظر فيما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ :

«سبحانك اللَّهم بحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك»[4].

أو قوله: «اللهم باعد بينى وبين خطاياى، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم

---

(١) الملك الجبار الذى اشتهر فى تاريخ الهند بسطوته، وعسفه، وسفك الدماء، توفى ٧٥٢هـ.

(٢) من شيوخ الهند الكبار، توفى ٧٥٧هـ.

(٣) صحيح: سير الأولياء، ص ٣٥٣-٣٥٥.

(٤) صحيح: رواه أهل السنن عن أبى سعيد الخدرى، أخرجه أبو داود (١/٢٠٦) (٧٧٥) باب «من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، والترمذى (٢/٩) (٢٤٢) باب «ما يقول عند افتتاح الصلاة»، والنسائى (٢/١٣٢) (٨٩٩) باب «نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة»، وابن ماجه (١/٢٦٤) (٨٠٤) باب «افتتاح الصلاة» وروى عن عائشة أم المؤمنين، أخرجه أبو داود (١/٢٠٧) (٧٧٦)، فى الموضع السابق، والترمذى (٢/١١) (٢٤٣) فى الباب السابق، وابن ماجه (١/٢٦٥) (٨٠٦) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٦٧) وصح عن عمر بن الخطاب أنه كان يستفتح به فى مقام النبى ﷺ ويجهر به ويعلمه الناس، أخرجه مسلم (١/٢٩٩) (٣٩٩) باب «حجة من قال لا يجهر بالبسملة»، قال العلامة ابن القيّم: وغيره من الاستفتاحات عامتها إنما هى فى قيام الليل فى النافلة وهذا كان عمر يفعله ويعلمه الناس فى الفرض؛ زاد المعاد، ١/٥٣.

نقّنى من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرَد))(١)،

أو قوله: ((الله أكبر كبيراً، الحمد لله كثيراً، سبحان الله بكرة وأصيلاً اللّهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همْزه ونفخه ونفثه))(٢).

ثم يتعوذ من الشيطان الرجيم، ويبسمل اهتماماً بهذه الصلاة التى يدخل فيها، وحرصاً على أن لا يكون للشيطان نصيب فيها، وإجلالاً وتعظيماً للقرآن الذى يقرأه، وعملاً بقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [النحل: ٩٨].

سورة الفاتحة جمالها وجامعيتها وتأثيرها فى الحياة:

ثم تأمل فى سورة الفاتحة، التى هى الدرَّة الفريدة فى المعجزات السماوية، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية، لو اجتمع أذكياء العالم وأدباء الأمم، وعلماء النفس وقادة الإصلاح، وزعماء الروحانية، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم، وعلى تنوع حاجاتهم، وعلى تشتت خواطرهم، يتقدمون بها أمام ربهم، ويتعبدّون بها فى صلواتهم، تعبّر عن ضمائرهم ومشاعرهم، وتفى بحاجاتهم وأغراضهم، لما جاءوا بأحسن منها أو مثلها، ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾[الحجر: ٨٧].

وقد افتتحت بالحمد، وهى الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء، ومن الكلمات البليغة المعجزة، التى لا يمكن ترجمتها في لسان آخر، والحمدُ خير ما يبتدأ به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى، وعرف قدره، وهو خير ما يُفاتح به فى هذا الموقف الشريف، وفى هذا المقام المحمود.

ثم يقرّر المصلى أن الربّ الذى يحمده، ويقوم ليستعين به ويعبده، هو ليس ربّ قبيلة

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١/٢٥٩) (٧١١) باب ((ما يقول بعد التكبير))، ومسلم (١/٤١٩) (٥٩٨) باب ((ما يقال بعد تكبيرة الإحرام والقراءة)) من حديث أبى هريرة-رضي الله عنه.

(٢) راجع تخريج حديث أبى سعيد-رضي الله عنه-السابق واقرأ الأذكار والصيغ الأخرى فى كتاب (زاد المعاد للعلامة الحافظ ابن قيم الجوزية وغيره من كتب السنة).

أو شعب، أو أسرة أو فصيلة، أو بلد ووطن، إنما هو رب العالمين، العقيدة الغربية الثائرة، التى تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة، التى جنت على الإنسانية أكبر جناية، وهكذا يُعلن المسلم وحدتين، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام الإسلام، فى كل زمان ومكان، وهما وحدة الربوبية، والوحدة البشرية، ووحدة نسل بنى آدم من غير فرق بين بلد ووطن، أو لون ودم، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين، مرةً «وهى الأساس»، لأن الرب واحد، ومرة ثانية، لأن الأب واحد، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفى شرحه وتطبيقه، يقول رسول الله ﷺ فى حجة الوداع:

«إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى، أو فاجر شقى، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربى على أعجمى إلاَّ بالتقوى»[(١)].

ثم يذكر المصلى من صفات الرب الكريمة، الكثيرة، التى عرفها وآمن بها، صفة الرحمة التى هى من أليق الصفات -وكلها لائقة كريمة- بهذا الموقف الذى يقفه المسلم عابداً خاشعاً، داعياً مبتهلاً، محتاجاً فقيراً، تائباً آيباً، والمقام مقام الرجاء لا اليأس، ومقام التفاؤل لا التشاؤم، ثم يذكر ويتذكر يوم الدين ويوم الجزاء والعقاب، الذى يتجلى فيه ملك الله وملكوته، فى أروع مظهر، لا ينازعه فيه ملك زائف، أو حكم عارض، ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. فيجدد فى نفسه الإيمان بالآخرة، واستحضارها الذى هو مصدر الخوف والمراقبة، ومصدر الرقابة على النفس والضمير، وما أحوج المسلم وهو الذى يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات، ويخوض فيها، إلى هذا الاستحضار!

ثم يُعلن فى كل تأكيد عرفته لغة العرب التى نزل فيها القرآن، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية -الرسمية- وفى أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية، أنه لا يعبد إلا

---

(١) صحيح: رواه الترمذى وغيره عن النبى ﷺ. أخرجه الترمذى (٧٣٥) (٣٩٥٦) باب «فى فضل الشام واليمن» من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٨٢).

الله، ولا يستعين إلاّ به[1]، وما الحياة إلا عبادة واستعانة، وهما يتصل الإنسان بالإنسان، والضعيف بالقوى، والفقير بالغنى، والمحكوم بالحاكم، والعابد بالمعبود، فإذا جُرِّدتا، وأفردتا لله تعالى، فُكّت السلاسل والأغلال وحُطّمت الأوثان والأصنام، وبطل الشرك وزالت الفتنة، وكان الدين كله لله، أعظم إعلان يعلنه مسلم، وأكبر تعهد يتعهده، فلينظر ما يقول. وليكن على نفسه حسيباً رقيباً. فكل ما يواجهه فى الحياة خارج الصلاة، إما يدعوه لخضوع واستكانة، وإما يدعوه لسؤال واستعانة، وقد كفر بهما جميعاً، وثار على كل من تزعمهما، أو تظاهر بهما.

ثم يدعوه للهداية للصراط المستقيم، التى هى أعظم حاجاته، وأعز مطالبه، وهى التى بعثت لها الأنبياء، وأنزلت لها الصحف، وقامت عليها سوق الجنة، هى التى لا قيمة لشيء إذا فُقدت، ولا نقص فى الحياة والسعادة إذا وُجدت، وهى التى فُطرت النفوس البشرية على حبها وطلبها، والبحث عنها، والجهاد فى سبيلها، ولكن الهداية لا تقوم فى الخلاء، ولا تفهم إلاّ بأهلها، ولا تتمثل إلاّ فى أصحابها، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم -من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين -وقد حث القرآن- وجميع الصحف السابقة- على حبهم والانتساب إليهم والانضواء إلى رايتهم، والاقتداء بهديهم، ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ويتبع ذلك التبرؤ من الذين جانبوا الهداية وكفروا بالنعمة، واتبعوا الهوى، وسلكوا طريق الردى، أولئك الذين أسرفوا فى العناد، وبالغوا فى الإفراط، فحلّ عليهم غضب الله، أو بالغوا فى التحريف، وتورّطوا فى التفريط، فوقعوا فى الضلال: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**[2] **وَلاَ الضَّالِّينَ**[3] ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

---

(١) انظر فائدة التقديم لضميره المنصوب المنفصل وما يفيده من الحصر والتأكيد، وما فيه من النكات النحوية والبلاغية، فى كتب التفسير، والنحو، والبلاغة.

(٢) لا يتذوق كلمة ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ** ﴾ ولا يؤمن بصحتها وانطباقها على اليهود إلا من درس تاريخهم وعرف سيرهم، والدور الهدام الذى لعبوه فى تاريخ الإنسانية والمدنية، وما يحملونه من حقد دفينٌ للأجيال البشرية عامة، ومن حب الاستعلاء بالاستئثار.

(٣) وكذلك لا يفهم الإنسان سر اختصاص النصارى بالضلال ووصفهم بـ ﴿ **الضَّالِّينَ** ﴾ إلا إذا قرأ =

تلاوة ما تيسّر من القرآن:

وشرعت تلاوة ما تيسّر من القرآن: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠] لتؤكد هذه المعانى وتغرسها فى النفس، أو تشرحها، وتسقيها، وتُغذيها، لأن الصلاة عبادة وتعليم.

الخضوع الطبيعى المتدرج:

ويتدرج المصلى فى الخضوع والانحناء، فيفتتح الصلاة بالقيام، فيثنّى بالركوع، ويثلّث بالسجود، وهو شأن الخاضع الطبيعى، ولا يخرُّ ساجداً من ركوع، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة، ثم ينحنى للسجود، ليكون أبلغ فى الخشوع وأوقع فى النفس، وأدلّ على الذلّ[1]. وكذلك يتدرّج فى التعظيم والتمجيد، فيقول فى ركوعه: «سبحان ربى العظيم»، ويقول فى سجوده: «سبحان ربى الأعلى»، فإذا بلغ الغاية فى الخضوع والتذلّل، ونصب أشرف أعضائه على أذلّ شيء فى الوجود، الأرض التى هى موطئ الأقدام، ومضرب المثل فى الذلّة والهوان، هتف بأعظم كلمة يُعلن بها عظمة الله وعلوّه، فيقول: «سبحان ربى الأعلى»، وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان، مع روعة البيان والإعلان، ويفصل بين السجدتين بجلسة خفيفة، لتكون السجدة مستأنفة مجدّدة، ولتنبه النفس من غفوتها وتشعر بلذة جديدة.

= تاريخ المسيحية، وما تعرضت له من المسخ والتحريف، والغموض والالتباس، منذ نشأتها وفى عهدها الباكر، والدور الذى لعبه (بولس) فى تطوير هذه الديانة وتلوينها بلون خاص، والدور الذى لعبته الكنيسة فى تكوين العقيدة النصرانية وتفسيرها، وخضوع العالم المسيحى لجميع هذه العوامل والمؤثرات، راجع -على سبيل المثال- كتاب (إظهار الحق) للعلامة (رحمة الله الكيرانوى الهندى ١٢٣٣-١٣٠٨هـ).

(١) يقول شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى، وهو يذكر حكمة القومة بين الركوع والسجود: «بها يحصل الفرق بين الانحناء الذى هو مقدمة السجود، وبين الركوع الذى هو تعظيم برأسه» (حجة الله البالغة: ٧٦/١).

السجدة الخاشعة الحنون التى يضطرب لها الكون:

وإذا سجد، فك سلاسل التقليد، السلاسل التى فرضها عليه المجتمع والأعراف، والعادات والآداب، فخرّ ساجداً لله تعالى يمرِّغ وجهه، ويعفّر جبينه، وأعطى القلب زمامه، وأرسل النفس على سجيَّتها، فلا حجر على الخشوع، ولا ملامة على الدموع، وقد غلى مرجل الصدر، وفاضت كأس القلب، ولذلك يقول الصحابة رضى الله تعالى عنهم: «ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(١). وحكى عمرو بن العاص عن صلاة رسول الله ﷺ فى الكسوف فقال: «ثم نفخ فى آخر سجوده، فقال أف أف، ثم قال: ربِّ ألم تعدنى أن لا تعذِّبهم وأنا فيهم، ألم تعدنى أن لا تعذّبهم وهم يستغفرون»(٢)، وفى رواية: (حين ينفخ يبكي).

والسجود أقرب هيئات المصلى وأحبها إلى الله، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»(٣)، فينتهز المصلى هذه الفرصة الثمينة، وينثر كنانة القلب، ويُفرغ جعبة الدعاء والعبودية، فيقول بلسان المقال أو بلسان الحال(٤): «أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، ودعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عَبرته، وذلّ لك جسمه، ورغم لك أنفه»(٥).

وهذه هى السجدة التى ترتعش لها الجبال الراسيات، وتهتزّ بها الأرض، ويرتعد لها

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١/٢٣٨) (٩٠٤) عن عبد الله بن الشخير والنسائى (٣/١٣) (١٢١٤) باب «البكاء فى الصلاة»، وأحمد (٤/٢٥) (١٦٣٥٥) وصححه الأرناؤوطى فى تعليقه على المتن.

(٢) رواه أبو داود (١/٣١٠) (١١٩٤) باب «من قال يركع ركعتين»، والنسائى فى الكبرى (١/١٩٥) (٥٤٧) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-، وفى إسناده عطاء بن السائب وكان اختلط.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١/٣٥٠) (٤٨٢) باب «ما يقال فى الركوع والسجود» من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-

(٤) يرى الفقهاء الحنفية رحمهم الله أن الأدعية المأثورة، أو ما يريد المصلى من دعاء محله التطوع والنوافل، بخلاف ما يراه السادة الشافعية، والمحدِّثون الكرام.

(٥) من الدعاء المأثور فى عرفة فى (كنز العمال) وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٦/١٦٣) مرورياً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الجبابرة الطغاة، ولها فى تاريخ الأمة ومغامراتها ومحنها، شئون وأخبار غريبة.

[illegible] فى الصلاة وحكمتها:

وهكذا يستمر المصلى فى صلاته، يكرر القيام والركوع، والسجود، وأجزاء الصلاة الأخرى، حتى يقعد القعدة الأخيرة، ويتشهّد ويسلّم على النبى ﷺ فيقول: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته»[1]، ثم يسأل الله أن يصلى ويبارك عليه وعلى آله، كما صلّى وبارك على إبراهيم وآله، فيقول: «اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

لقد كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام، وسائط بين الحق والخلق فى الهداية، وبهم تتحقق معرفة الذات والصفات، وهم يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويوفّقون للكلم الطيب، والعمل الصالح، لذلك لم يقف أهل الجنة عند قولهم: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ٤٣]. بل ضمّوا إليه قولهم: ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فقد كانوا هم السبب الطبيعى فى وصول الهداية إليهم، والتوفيق لكل ما يخلّصهم من الجهل والضلال فى الدنيا، والشقاء والعذاب فى الآخرة، فاستحقّوا بذلك شكر الأمم التى جاهدوا فى دعوتها وتعليمها الجهاد الأكبر، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الهداية والمعرفة، والإنابة والعبادة، وما كانت هذه الصلاة التى يقومون بها أمام ربهم، إلاّ نتيجة الرسالة التى حملوها، والجهاد الطويل الشاق الذى قاموا به، فاقتضت طبيعة الشكر والاعتراف بالجميل، أن لا ينصرفوا من صلاتهم حتى يستوفوا هذا الحق.

ثم كان لمحمد القدحُ المُعلّى، والمقام المحمود فى الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، والجهاد فى سبيلها، فقد بدأ دعوته وجهاده، وليس على ظهر الأرض، إلاّ أفراد قلائل مُشتّتون موزّعون، يعبدون الله وحده، وليس فى جزيرة العرب التى بُعث فيها مؤمن بالله يعبد الله مخلصاً له الدين، ويطأطئ له الرأس، وينصب له الجبين، وقد كان فى جوف

---

(١) صحيح: من حديث التشهد، أخرجه البخارى (٢٨٦/١) (٧٩٧) باب «التشهد فى الآخرة» ومسلم (٣٠١/١) (٤٠٢) باب «التشهد فى الصلاة» من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥]، فلم يفارق هذه الدنيا، و لم يلق ربّه حتى قرّت عينه، إذ رأى غرسه يُثمر ويؤتى أُكله، فانتشر الإسلام فى الجزيرة، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وبُنيت المساجد، وارتفع صوت الأذان فى كل مكان، ورأى المسلمين سراعاً إلى مسجده، وقد منعه المرض الشديد عن الإمامة، فما فتّر ذلك نشاطهم، ولا نقص من عددهم، أفلم تكن هذه الصلاة التى وفّق لها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، إلا حسنة من حسناته، وثمرة من ثمرات دعوته وجهاده، أفلا يجدر بالمسلم إذا أدى حق الله فى حمده، والثناء عليه، أن يختم ذلك بالدعاء للنبى ﷺ بالرحمة والبركة؟!

ثم إن فى ذلك وقاية وحرزاً عن الشرك، فمن سأل الله الصلاة والرحمة على النبى ﷺ، ورأى أن ذلك يفيده ويسرّه، كان فى مأمن من أن يعتقد أن فى العالم من يستغنى عن رحمة الله، ويستغنى عن مثوبته وكرامته، ويُشارك الله فى ذاته أو صفاته(١)، فقد كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، وسيد الأولين والآخرين، وقد دعا الله للصلاة عليه، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وحث النبى ﷺ بنفسه على الصلاة عليه، وسأل أمته ذلك، كما جاء فى أحاديث صحيحة مستفيضة تكاد تبلغ حد التواتر(٢).

ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه:

وقد كان للمصلى الذى أدى حق الله فى الحمد والثناء عليه، وحق الرسول فى الدعاء له والصلاة عليه، حظٌ من السلام الذى يحتاج إليه ويحرص عليه، والذى كان شعاراً للإسلام، وتحية للمسلمين، فيقول المصلي: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وبذلك يتعين مكانه وحزبه، فهو مع عباد الله الصالحين فى كل مكان وزمان، يشاركهم ويلتقى معهم على دين الله الإسلام، وفى الإخاء والسلام، وذلك

(١) الفكرة مستفادة من كتاب (معارف الحديث) للشيخ محمد منظور النعمانى (المجلد الثالث).

(٢) اقرأ الأحاديث الواردة فى الصلاة والسلام، ومعانيها وحكمها، ولطائفها فى كتاب «جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام»، للعلامة ابن قيم الجوزية.

ينشئ فيه الأمل والثقة ويحارب فيه اليأس، وما يسمّيه علماء النفس اليوم «بمركّب النقص»، إذ يقرن بينه وبين زملائه المصلّين، وبين فضلاء الأمة وعباد الله الصالحين، ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم يدعو المصلى لنفسه، ويتعوذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال[١]، فكل ذلك جدير بأن يتعوذ منهم المسلم ويلتجئ إلى الله من شره وفتنته، وقد جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «إنه لم يكن نبى بعد نوح إلا قد أنذر الدجَّال قومه، وإنّى أُنذركموه»[٢].

نهاية الصلاة وحسن خاتمتها:

وبعد ذلك كله، وبعد ما بذل جهده فى إحسان هذه الصلاة، وأداء حقوقها، يعترف بالتقصير، كأنه يقول بلسان الحال: «ما عبدناك حق عبادتك» ويقول فى لفظ النبى ﷺ الذى أوصى به خليله أبا بكر الصديق رضى الله عنه،وكان أفضل الأمة بعد نبيّها،وكانت صلاته أكمل الصلوات بعد صلاة الرسول[ﷺ]: «اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم»[٣]، فيكون الاعتراف بالتقصير آخر الكلام، ويكون الندم مسك الختام، وهو أفضل ما تختم به صحيفة أعمال.

(١) روى مسلم (١/٤١٣) (٥٩٠) باب «ما يستعاذ منه فى الصلاة» عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: قولوا: «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». وروى أيضاً (١/٤١٢) (٥٨٨) فى الموضع السابق عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال».

(٢) رواه الترمذى وأبو داود. أخرجه أبو داود (٤/٢٤١) (٤٧٥٦)، والترمذى (٤/٥٠٧) (٢٢٣٤)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٠٧٤) عن أبى عبيدة بن الجراح، اقرأ فى موضوعات الدجال وفتنته تفسير سورة الكهف فى كتابنا (تأملات فى القرآن).

(٣) روى البخارى فى صحيحه (١/٢٨٦) (٧٩٩) «باب الدعاء قبل السلام»، ومسلم (٤/٢٠٧٨) (٢٧٠٥) باب «استحباب خفض الصوت بالتكبير» عن أبى بكر الصديق ﷺ قال: قلت يا رسول الله علمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى، قال: قل: «اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم».

ولا ينصرف من الصلاة ولا يقوم منها مسرعاً، كأنه أُنشط من عقال، أو خرج من سجن، بل يختم ذلك بخاتمة جميلة كريمة، مباركة طيبة، فيلتفت عن يمينه وعن شماله، ويسلّم على المصلين وجماعة المسلمين، وعلى الملائكة الشاهدين، فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله»[١] كأنه كان قد انتقل إلى عالم آخر، وانقطعت صلته عن كل ما يحيط به من موجود مشهود، ثم عاد إلى مكانه الأول، ومركزه فى الحياة، فأقبل على من حوله وسلّم عليهم، شأن العائد من سفر، أو الحاضر من غيبته[٢]، وقد جاء فى الحديث الصحيح: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»[٣].

تناقض الصلاة «الحقيقية» مع عبادة غير الله وعبودية الإنسان والحياة الجاهلية:

ومثل هذه الصلاة الخاشعة المخلصة، التى يحافظ عليها المسلم بروحها وحقيقتها، وآدابها وأوقاتها، لا تتفق ولا تنسجم مع عبادة غير الله -ومن مظاهرها: الشرك، والوثنية، والخرافة،- وعبودية غير الله، -ومن مظاهرها: رهبة الملوك والأمراء، وأصحاب القوة والثروة، والأمر والنهي- واعتقاد النفع والضرر فيهم، والتزلف إليهم بكل وسيلة، وتملقهم، ومسايرتهم فى جَورهم وعدوانهم، والمناداة على العقيدة والضمير[٤]، كما شاهدنا فى عصر الملوكية الأول، وكما نشاهد كل يوم فى عصر الحرية، (والديمقراطية) الحاضر.

---

(١) يقول شيخ الإسلام ولى الله الدهلوي: «وجعل التشهد ركناً، لأنه لولا هذه الأمور لكان الفراغ من الصلاة مثل فراغ المعرض أو النادم» (حجة الله البالغة: ٥/٢).

(٢) من كلام الإمام محمد قاسم النانوتوى رحمه الله (١٢٩٧هـ) فى رسالته البديعة (قبلة نما) يعنى دليل القبلة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود والترمذى والدارمى وابن ماجه أخرجه أبو داود (١٦/١) (٦١) باب «فرض الوضوء»، والترمذى (٨/١) (٣) باب «ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور»، وابن ماجه (١٠١/١) (٢٧٥) باب «مفتاح الصلاة الطهور» عن على ﷺ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٨٥) عن النبى ﷺ. انظر الفضل الدقيق العميق فى بيان المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والآداب، ونحو ذلك فى الصلاة، لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى فى كتابه (حجة الله البالغة: ٧٥/١، ٧٦).

(٤) يعنى بيعهما بالمزاد العلنى كما يقول المصريون.

فجميع أركان الصلاة، وجميع ما يقوله المصلي فيها، ويقطعه على نفسه ويعلنه ينافي ذلك أشد المنافاة، ويعارضه أشد المعارضة، وهو يعارض الكلمة التي يفتتح بها صلاته، وهو قوله: «الله أكبر»، ويعارض قوله: ﴿ الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] فلا رب غيره ولا حمد لغيره، وهو يعارض قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره، وهو ينافي الركوع والسجود، «فلا ركوع جسدياً ومعنوياً»، «ولا سجود ظاهراً وباطناً» إلاَّ لله تعالى، لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة، من أشجع النّاس أمام الملوك والأمراء، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق، وأزهدهم في حطام الدنيا وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان(١).

تأثير الصلاة في الأخلاق والميول:

وللصلاة تأثير في صرف النفس عن الأخلاق الرذيلة، والفحشاء والمنكر، والتمتع بالمتعة الرخيصة، ليس لشيء آخر بعد كلمة التوحيد، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، وذلك لأنها تصرف صاحبها من جهة إلى جهة، ومن ذوق إلى ذوق، ومن طلب إلى طلب، ومن تفكير إلى تفكير، ومن سفساف الأمور إلى معاليها، وتحبب إليه الإيمان، وتزيّنه في قلبه، وتكرِّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، هذا، إذا كانت الصلاة حقيقية تتدفق بالحياة، وتفيض بالحرارة

(١) ومن أمثلته الرائعة المستطرفة التي ليس عصرها بعيداً، أن شيخاً ممن صحب السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) إمام دعوة التوحيد والجهاد ومؤسس الحكومة الشرعية في القرن الماضي في الهند، قصد مرة طبيباً مسلماً في بلده، وكان الشيخ قد علت سنه وأنهكه المرض، وكان المحل بعيداً فما وصل إلى الطبيب إلا وقد بلغ الجهد، وأعياه المشي على الأقدام، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهة طويلة، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاق أقبل على عبادة مبتدعة، فيها تعظيم لغير الله، فما كاد يقع نظر الشيخ عليه، إلا أمر تلميذه بالانصراف، وخرج من ساعته، فلما كان في الطريق، قال له: ما رأيت كاليوم! أجهدت نفسك في الوصول إلى الطبيب، وأطلت الانتظار، فلما خرج بادرت إلى الانصراف و لم تقض حاجتك منه، فقال له: ويحك ألم تره يعصي الله ويشرك به؟ فقال: ما لنا ولعمله، عليه ضلالته وسخافته، ولنا صناعته وبراعته، فقال عجباً لأمرك! إذا سكت على ذلك واستعنت به، فكيف أقوم في الليل أمام ربي، وبأي لسان أقول في قنوت الوتر: «ونخلع ونترك من يفجرك».

والقوة، ولذلك لما فوجئ قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد، والفضيلة والتقوى، والإنكار على ما كانوا فيه من ظلم وبخس وتطفيف، أقبلوا على حياة شعيب يلتمسون فيها مصدر هذا الانقلاب وهذا الاختلاف، فقد وُلد ونشأ فيهم كابن قبيلة وابن بلد، والذى يردون إليه طبيعة هذا الخصام والنزاع، فلم يجدوا فى حياته شيئاً أوضح من الصلاة التى كانوا يشاهدونها، ويتعجبون لحُسنها وطولها، فقالوا: ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

التشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة وخلق الجو المناسب لها:

وقد هيّأ الله بتشريعه الحكيم لها جواً من الإجلال والتعظيم، ومن الخشوع والرقة، ومن الجد والرزانة، ومن الوقار والسكينة، ومن التعاون والاجتماع، ما لا يوجد له نظير لعبادة أو نسك فى دين آخر، وفى ملة أخرى.

الأذان نداء للصلاة ودعوة للإسلام:

فشرع للدعوة إلى الصلاة والجمع عليها نداءً، لم تتجلّ فيه مقاصد الصلاة، ومعانيها فحسب، بل تجلّت فيها كذلك مقاصد الإسلام وشعار التوحيد، وروح الدين، بوضوح وبلاغة وإيجاز، وجمال ونغمة، أصبح بها هذا النداءُ الذى يرفع به المؤذن صوته من مكان عالٍ خمس مرات فى كل يوم، دعوة مركّزة إلى الإسلام، تعريفاً بمقاصده وتعليماته، قد يؤثر فى نفوس كثير من غير المسلمين، فيشرح الله صدورهم للإسلام، وليس لهذا النداء -الذى يجمع بين الجمال والبساطة- نظير فى أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات فى الديانات الأخرى[1] إنه هو النداء الدينى الوحيد الذى ابتعد عن كل مظهر خارجى،

(١) وقد وردت أخبار وأحاديث صحيحة فى بدء الأذان، وكيف شرع، وكيف عدل رسول الله ﷺ عن أساليب الدعوة الأخرى، التى استخدمها غير المسلمين، وآثر هذه الطريقة التى كانت تلقيناً من الله، وإلهاماً منه، منها ما رواه أبو داود عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار، قالوا: «اهتم رسول الله ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها، آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك، فذكر له القمع، وهو شبّور اليهود، فلم يعجبه، فقال هذا من أمر اليهود، فذكر له الناقوس، فقال هو من أمر النصارى، فانصرف عبد الله بن زيد الأنصارى، وهو مهتم لهمّ رسول الله ، فأُرى الأذان فى منامه، فغدا على النبى ﷺ إنى بين نائم ويقظان، إذ أتانى

وعن استعانة بالآلات والإغراءات وجاء فيه لباب الدين، وخلاصته.

إنه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه، وأنه أكبر من كل كبير، ويضم الشهادتين، شهادة «أن لا إله إلاّ الله» وشهادة «أن محمداً رسول الله» ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها فى جماعة فى المسجد، ثم الإخبار بأنها وسيلة الفلاح فى الدنيا والآخرة، وأن لا فلاح بدونها، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة، ودعوة كاملة، ونداءً بليغاً، يخاطب القلب والعقل، ويلفت المسلم وغير المسلم، وينشّط الكسلان، وينبه الغافل. يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

«واقتضت الحكمة الإلهية أن لا يكون الأذان صرف إعلام وتنبيه، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والنبيه، تنويهاً بالدين، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله، فوجب أن يكون مركّباً من ذكر الله، ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرّحاً بما أُريد به»[1].

التطهر وما يورثه من اهتمام:

وشرع للصلاة التطهر والوضوء فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وذلك لأن التطهّر والوضوء، وخصوصاً إذا كان بإيمان واحتساب[2]، يورث

= آت، فأرانى الأذان، وكان عمر قد رآه قبل ذلك، فكتمه عشرين يوماً، ثم أخبر النبى ﷺ، فقال له: ما منعك أن تخبرنا؟ فقال: سبقنى عبد الله بن زيد، فاستحييت، فقال ﷺ: قم يا بلال، فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد، فافعل، فأذن بلال».

(١) حجة الله البالغة: ١٥٢/١.

(٢) معناه أن يكون مؤمناً بما وعد الله عليه، وأخبر به رسوله من الأجر والثواب، ويكون طامعاً فى ذلك راغباً فيه، مقدراً له كل التقدير، وله تأثير كبير عميق فى قبول الأعمال ووزنها عند الله، وقد جاء فى =

الاهتمام ويوقظ النفس، ويهيئها لاستقبال الصلاة وما فيها من نور وسكينة.

وقد سنّ رسول الله ﷺ كتكميل فوائد الوضوء والطهارة، والإستعداد للصلاة التى هى مناجاة مع الله، السواك، وحثّ عليه حثاً شديداً حتى قال: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[(١)].

المساجد.. فضلها ومركزها فى حياة المسلمين:

ثم بُنيت لها المساجد التى لا يوجد لها نظير فى معابد الأمم والملل، فى السذاجة والبساطة[(٢)]، والنظافة والسكينة، وفى الجوّ الخاشع الروحانى الذى يسودها، وفى شعائر التوحيد التى تتجلى فيها: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، ﴿ وَأَنَّ

= حديث صحيح رواه الترمذى (٦/١) (٢) عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، أو نحو هذا، وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»، وفى صحيح مسلم (٢١٥/١) (٢٤٤) باب «خروج الخطايا مع ماء الوضوء» والموطأ (٣٢/١) (٦١) باب «جامع الوضوء» زيادة: «فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء».

(١) صحيح: رواه البخارى ومسلم أخرجه البخارى (٣٠٣/١) (٨٤٧)، ومسلم (٢٢٠/١) (٢٥٢) عن أبى هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم.

(٢) الأصل فى المساجد أن تكون بعيدة عن الزخرفة، والإسراف فى الأموال، وتقليد الأعاجم، وأهل الملل الأخرى فى معابدهم، وقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «ما أمرت بتشييد المساجد، قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى» (رواه أبو داود) (١٢٢/١) (٤٤٨) باب «فى بناء المساجد»، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٥٠) وعنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أراكم ستشرفون مساجدكم بعدى كما شرفت اليهود كنائسهم وكما شرفت النصارى بيعها» (رواه ابن ماجه) (٢٤٤/١) (٧٤٠) «باب تشييد المساجد»، وصححه الألبانى فى ضعيف الجامع (٧٤٣) وأخرج رزين عن أبى سعيد، قال: «كان سقف المسجد من جريد النخل، فأمر عمر فى خلافته ببناء المسجد، وقال أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس» وعلقه البخارى بصيغة الجزم فى صحيحه (١٧١/١) باب «بنيان المسجد» وقال أبو سعيد: كان سقف المسجد من ...

الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١][(١)].

وكانت هذه المساجد -ويجب أن تظل هكذا- مركز حياة المسلمين وتعلّمهم ودراستهم، ومصدر الإصلاح والتوجيه، تعالج فيها قضايا المسلمين الاجتماعية والدينية، ويتلقّون فيها أحكاماً فى حياقم ومهمّاقم، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذا حدث حدثٌ أو نزل بالمسلمين أمر، وكانوا فى حاجة إلى توجيه جديد، أو تعليم مزيد، أمر أن ينادى فى الناس، «الصلاة جامعة»[(٢)]، وظلت المساجد هكذا، فكانت القطب الذى كانت تدور حوله رحى الحياة، وتنفجر منها عيون العلم والهداية، وينبثق منها نور الإصلاح والإرشاد، وتنطلق منها موجة الكفاح والجهاد، ولا تزال منها بقيّة يحسد عليها المسيحيّون، والوثنيون، المسلمين في بلادهم، وينظرون إليها تارة بعين التلهف والحسرة، وطوراً بعين الإشفاق والوجل، ولا بدّ لنشأة المسلمين الجديدة أن تعود هذه المساجد والجوامع إلى مركزها الأول، فى حياة المسلمين وقيادقم.

الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيمانى الروحاني:

وشرع فى الآداب والتوجيهات النبوية الحكيمة ما كان كفيلاً بالخشوع والسكينة، والإقبال على الله تعالى، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أحدكم فى الصلاة، فإنه يناجى ربّه، فلا يبزقنّ بين يديه ولا عن يمينه ولكن عن شماله وتحت قدميه»[(٣)]، وأمر المصلى بطاعة الإمام وتقليده، واتّباعه، وكان فى ذلك تجريد عن

(١) اعتمدنا فى الاستشهاد بهذه الآيات على تفسير كلمة (المساجد) و(المسجد) بمكان الصلاة والبيت الذى بنى لها وهو التفسير المشهور (راجع تفسير ابن كثير) وقد فسرها بعض المفسرين من السلف والخلف بأعضاء السجود أو بالصلاة (راجع تفسير ابن كثير كذلك).

(٢) انظر: باب العلامات بين يدى الساعة، وأبواب صلاة الخسوف فى الصحاح.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (١/١٥٩) (٣٩٧)، ومسلم (١/٣٩٠) (٥٥١) باب «النهى عن البصاق فى المسجد فى الصلاة وغيرها» من حديث أنس ﷺ رواه عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ (أخرجه البخارى ومسلم).

الفوضى والافتئات، وعن اتباع الهوى، والانسياق مع الرَّغبات، فلا تقدّم عن الإمام ولا تخلّف عنه، ولا يسمح له بالبقاء فى هيئة واحدة، مهما وجد فيها لذة، ومهما حدَّثته نفسه بالبقاء فيها، والزيادة منها، فروح الصلاة إنما هو طاعة الله وامتثال ما أمر به ومحاكاة الرسول وتقليده فى عبادته: «صلّوا كما رأيتمونى أصلّي»(١) واتباع الإمام فى حركاته وسكناته، وفى انتقالاته وتقلباته: «إنما جعل الإمام ليؤتم به»(٢).

والمساجد تتجلى فيها عظمة الله، فلا عظمة لمخلوق، ولا اختصاص لعظيم أو كبير، وهو مكان مُشاع يتساوى فيه الحرّ والعبد، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير فهو كـــ«مِنى مناخ من سبق»(٣) والإسلام لا يعرف تلك الامتيازات التى لم تكن إلاَّ من بِدَع الملوك والأمراء بعد عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم، ولا تقدّم ولا امتياز فى المساجد إلاَّ على أساس العلم، والحظ من القرآن الكريم والفقه والتقوى، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم» ثلاثاً(٤).

الجماعة.. أهميتها وفضلها:

وشرعت الصلاة المفروضة بالجماعة، وهى طبيعة الصلاة المشروعة فى الإسلام، ووضعها الصحيح، ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣] ولذلك داوم عليها الرسول ﷺ وأصحابه مداومة شديدة، حتى كأنها جزء من الصلاة، ولم يتركها حتى فى مرضه الذى مات فيه، وقد جاء فى صحيح البخارى (عن عائشة رضى الله عنها): «ثقل النبى ﷺ، فقال: أصلّى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لى ماءً فى

(١) **صحيح**: رواه البخارى، فى باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة (١/٢٢٦) (٦٠٥).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم أخرجه البخارى (١/١٤٩) (٣٧١) باب «الصلاة فى السطوح والمنبر والخشب»، ومسلم (١/٣٠٨) (٤١١) عن أنس بن مالك، باب ائتمام المأموم بالإمام.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١/٣٢٣) (٤٣٢) باب «تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها» عن أبى مسعود ﷺ أخرجه الترمذى (١/٤٤٠) (٢٢٨) باب «ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهي» عن عبد الله بن مسعود -ﷺ.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم، فى كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف؛ ورواه أبو داود والنسائى وانظر الحديث السابق.

المخضب، ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: أصلّى الناس؟ قلنا، لا، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لى ماء فى المخضب، ففعلنا، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: أصلّى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لى ماء فى المخضب، فاغتسل ثم ذهب لينوء، فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: أصلّى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، والنّاس عكوف فى المسجد ينتظرونه ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل ﷺ إلى أبى بكر، أن يصلّى بالناس(١) [إلى آخره].

وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم من أشد الناس التزاماً لهذه الجماعة، يقول عبد الله بن مسعود: ((ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتّ يقام فى الصف))(٢)، وفى رواية عنه: ((رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلاّ منافق قد عُلم نفاقه، أو مريض(٣))). وقد كان رسول الله ﷺ شديد الإنكار على من كان يتغيّب عن الجماعة، ولا يشهد الصلاة مع المسلمين، وقد جاء فى الصحاح، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ فقد ناساً فى بعض الصلوات، فقال: ((لقد هممت أن آمر رجلاً يصلّى بالنّاس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم فيحرّقون عليهم بحزم الحطب بيوتهم))(٤).

بعض حِكَم الجماعة ومصالحها وبعض آدابها:

وفى الجماعة حكم دقيقة ومصالح عظيمة للمسلمين، منها: ما هى اجتماعية وخلقية كالوحدة والاجتماع، والتعاون والتعارف، وقد بحث عنها علماء الإسلام، وحملة الأقلام، وأفاضوا فيها، ومنها: ما هى أدق، ولم يفطن لها كثير من الباحثين، والكتّاب العصريين(٥).

---

(١) صحيح: حديث متفق عليه أخرجه البخارى (٢٤٣/١) (٦٥٥) باب ((إنما جعل الإمام ليؤتم به))، ومسلم (٣١١/١) (٤١٨) باب ((استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما)).

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود والنسائى أخرجه مسلم (٤٥٣/١) (٦٥٤) باب ((صلاة الجماعة من سنن الهدي)).

(٣) صحيح: رواه مسلم، فى صحيحه (٤٥٣/١) (٦٥٤) باب ((صلاة الجماعة من سنن الهدى)).

(٤) صحيح: رواه مسلم فى باب فضل الصلاة بجماعة وبيان التشديد فى التخلف عنها (٤٥٢/١) (٦٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والحديث فى الصحاح.

(٥) اقرأ البحث الدقيق العميق فى (أسرار الجماعة ومصالحها) وشرح ما ورد فيها من الأحاديث، والأخبار فى كتاب حجة الله البالغة: ١٩/٢، ٢١ لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوي.

منها: أن لاجتماع المسلمين راغبين فى الله، راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه، خاصية عجيبة فى نزول البركات، وتدلى الرحمة، وهذا هو السرّ فى دعاء الاستسقاء وجماعته، وفى جمع الحج[١].

ومنها: التشجيع على العبادة والمحافظة على الصلوات، والتنافس فى إحسانها، وإتقانها، والإكثار منها، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد أو من خلل للانفراد أو الجهل، وتعلّم ما فات من أحكامها وآدابها. وأذكارها وقراءتها والتأسى بالعلماء الفقهاء، والعباد المخلصين.

ومنها: أن إخلاص بعض المخلصين، وإخباته وخشوعه، يؤثر فى الجماعة كلها، ويوقظ النفوس الخامدة، ويحرّك الهمم الفاترة، وقد يكون سبباً فى قبول عبادة الجميع، والغض عمّا فيها من ضعف أو خلل أو تقصير، وذلك شيء لا يخالف المعقول أو المنقول، فأهل الإخلاص والخشوع، قوم لا يشقى بهم جليسهم.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الاهتمام بتسوية الصفوف، شديد الإنكار على الإخلال بها، والتفريط فيها، إذ لا تتحقق فوائد الجماعة ولا تكتمل إلاّ بالمحافظة عليها، وقيام المسلمين فيها، كالبنيان المرصوص، ولأن الصلاة والجماعة تربية للحياة كلها، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئاً من عمل الدنيا والآخرة، وقد روى أنس بن مالك عن النبى ﷺ، قال: «سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»[٢]، وعن النعمان بن بشير، قال: «كان رسول الله ﷺ ليسوّى صفوفنا حتى كأنما يسوِّى بها القداح، حتى رأى أنّا قد عقلنا عنه، ثم خرج يوماً، فقام، حتى كاد أن يكبِّر، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف، فقال: «عباد الله لتُسوُّون صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم»[٣].

---

(١) مقتبس من كتاب (حجة الله البالغة) بتعديل يسير.

(٢) **صحيح:** رواه البخارى ومسلم أخرجه البخاري (٢٥٤/١) (٦٩٠) باب«إقامة الصف من تمام الصلاة»، ومسلم (٣٢٤/١) (٤٣٣) باب «تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول» من حديث أنس ﷺ.

(٣) **صحيح:** رواه مسلم برقم (٤٣٦) فى الموضع السابق من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

الجمعة.. مكانتها وخصائصها:

وشرعت صلاة يوم الجمعة، واتخذت لها آداب، وزيادات وتحريضات، وخصائص، تزيد فى جلالها وفخامة شأنها، وتورث الاهتمام بها، وتساعد على الانتفاع بها، فى العبادة والتقرب إلى الله وجمع شمل المسلمين، والتعاون على البر والتقوى، وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِى لِلصَّلاةِ[1] مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الجمعة: ٩]. وقد ورد فى الحديث: «من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه»[2] وجاء: «لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكوننّ من الغافلين»[3]، وقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً ليصلى بالناس ثم أحرّق على رجال يتخلفون عن الجمعة، بيوتهم»[4].

وشرع فيه الاغتسال واستعمال السواك والتطيّب، والنظافة الزائدة، وشرعت الخطبة، ولم تكن خطبة النبى ﷺ تقليدية، لا حياة فيها ولا روح، ولا رسالة فيها ولا توجيه، بل كانت متصلة بالحياة وبالواقع كل الاتصال، يقول جابر رضى الله عنه: «كان النبى ﷺ إذا خطب، احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبّحكم ومسّاكم»[5]، قال العلامة ابن القيّم فى زاد المعاد: «وكان يعلّم

---

(١) هو الأذان الذى يتقدم الخطبة، إذ كان هو الأذان الوحيد فى عهد النبى ﷺ، وفى خلافة أبى بكر وعمر، فلما كان عهد عثمان، وكثر الناس وانتشروا، زاد الأذان الأول، وارتضاه الصحابة والمسلمون وجرى العمل به فى الأعصار والأمصار، اقرأ تفسير الآية، فى كتب التفسير وراجع (زاد المعاد).

(٢) صحيح: لأصحاب السنن أخرجه أبو داود (١/٢٧٧) (١٠٥٢)، والترمذى (٢/٣٧٣) (٥٠٠)، والنسائى (٣/٨٨) (١٣٦٩)، وابن ماجه (١/٣٥٧) (١١٥٢) من حديث أبي الجعد الضمري-رضي الله عنه-، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٤٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم والنسائى أخرجه مسلم (٢/٥٩١) (٨٦٥) باب «التغليظ فى ترك الجمعة»، والنسائى (٣١/٨٨) (١٣٧٠) من حديث عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

(٤) صحيح: رواه مسلم فى صحيحه (١/٤٥٢) (٦٥٢).

(٥) صحيح: رواه مسلم والنسائى أخرجه مسلم (٢/٥٩٢) (٨٦٧) باب «تخفيف الصلاة والخطبة» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أصحابه فى خطبته، قواعد الإسلام وشرائعه، وكان يأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهي»[١]، ويقول منتقداً للخطباء المتأخرين: «ثم طال العهد، وخفى نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً، تقام فى غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها، وزيّنوها بما زيّنوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغى الإخلال بها وأخلّوا بالمقاصد، التى لا ينبغى الإخلال بها، فرّصعوا الخطب بالتسجيع والفِقر، وعلم البديع، فنقص، بل عدم حظ القلوب منها، وفات المقصود بها»[٢].

ورغم أن خطبه كانت واقعية دافقة بالحياة والنور، والتأثير، لم تكن طويلة مملّة، شأن خطباء الجوامع اليوم، ومحاضراتهم الطويلة، التى يتبارون فيها، ويتناولون فيها المباحث المحليّة المؤقتة، التى تقبل المناقشة والجدل الكبير، وتُثير إنكار كثير من المستمعين، وامتعاضهم[٣]، وتفقد الخطب والجوامع، قدسها وجلالها، ونزاهتها، بل كانت كسائر كلامه قولاً فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، يقول جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه: «كانت صلاة النبى ﷺ قصداً ، وخطبته قصداً، يقرأ بآيات من القرآن الكريم ويذكّر الناس»[٤]، وفى رواية: «كان ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هنّ كلمات يسيرات»[٥].

وأمر الناس بالإنصات إلى الخطبة لتحصل الفائدة المقصودة فى جو هادئ خاشع، تغشاه السكينة والوقار، ولأن الموقف موقفُ العبادة، لا موقف الخطابة فحسب، فأمر بالإنصات إلى الخطيب، وشدّد فى ذلك حتى نهى عن منع الجليس عن الكلام، لأن الناس إذا تولّوا ذلك، حدث تشويش وضوضاء، فورد فى حديث: «من قال يوم الجمعة لصاحبه: أنصت، فقد لغا»[٦].

---

(١) زاد المعاد: ١١٥/١.

(٢) زاد المعاد: ١١٥/١.

(٣) غضبهم.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم، وأصحاب السنن.

(٥) **صحيح**: رواه مسلم، وأصحاب السنن أخرجه مسلم (٥٩١/٢) (٨٦٦) باب «تخفيف الصلاة والخطبة».

(٦) رواه أبو داود عن على بن أبى طالب مرفوعاً.

وطبيعة الجمعة، ومقتضى المصالح التى قُصدت، أن تكون فى مسجد واحد فى المدينة، أو فى أقل عدد ممكن من المساجد(١)، إذا اتسعت المدينة وانتشرت أطرافها، واستبحر عمرانها لدفع الحرج، ليجتمع المسلمون فى مكان مرة واحدة فى كل أسبوع، فيكون ذلك أدعى للائتلاف والاتحاد وأبعد عن التحريف والفساد، وقد تهاون المسلمون فى ذلك تهاوناً عظيماً، يكاد يُفقد الجمعة جلالها وروعتها وتأثيرها وقوتها.

الجمعة ميزان الأسبوع:

والرجل المشغول المسئول المرهق بتكاليف الحياة، وحقوق الأسرة، يحتاج إلى يوم تتحرك فيه همته، ويتفرغ فيه باله للعبادة والقربات، وإجلاء صدأ القلب وتصقيله، فيسرى نوره فى سائر الأيام، وتعيش فى كنف هذا اليوم، وفى ظله، وكان ذلك يوم الجمعة فى الأسبوع، وليلة القدر فى رمضان، ورمضان فى سائر الشهور(٢)، وقد أحسن العلامة ابن القيّم فى قوله، وهو يشير إلى هذه النكتة:

«إنه [أى يوم الجمعة] اليوم الذى يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع العبادات واجبة ومستحبة، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلّون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو فى

---

(١) قال العلامة بحر العلوم عبد العلى اللكهنوى فى كتابه (رسائل الأركان): «ولأجل، أن الجمعة جامعة للجماعات، قال الإمام أبو يوسف لا يجوز تعدد الجمع فى مصر واحد، وهو رواية عن الإمام أبى حنيفة، وبه قال الشافعى، فإنه لو جاز التعدد لما كان واحد منهما جامعاً لاجتماعات، قال الإمام محمد: ورواه عن الإمام أبى حنيفة، وهذه الرواية هى المختارة، وعليه الفتوى، أنه يجوز تعدد الجمعة مطلقاً اثنين أو أكثر».

(٢) وقد أصبحت الجمعة فى بعض نواحى الهند، وخصوصاً فى القرى ولعلها كذلك فى كثير من بلاد الإسلام، هى الرابطة الوحيدة بين الفلاحين وأهل المهن وبين الإسلام، يغتسلون فيه، ويتهيئون للصلاة ويعرفون شعائر الإسلام وشرائعه، ويتجدد فيهم الشعور بإسلامهم، والاعتزاز به، فيعتصمون به عن أن يكونوا فريسة الردة، ودعوات الانسلاخ عن الإسلام، أو دعوات الجاهلية كالوثنية وغيرها، فلولا الجمعة واجتماعاتها ومقدماتها، لذاب عدد كبير من المسلمين فى المجتمعات الجاهلية، التى يعيشون فيها، وافترستهم الدعوات التى تكتسح بيئتهم، ونسوا أنهم مسلمون، لذلك توسع بعض علماء الحنفية المتأخرين فى صلاة الجمعة فى القرى فى هذه البلاد، ولا يضايقون فيها مضايقة فقهية شديدة نظراً إلى هذه المصالح.

الأيام كشهر رمضان من الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان، ولهذا من صحّ له يوم جمعته وسَلِم، سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر، وبالله التوفيق»[١].

صلاة العيدين وامتيازهما الإسلامي:

اُعتبرت الأعياد فى الشعوب والأمم، وفى الملل والنحل، أيام حرية وانطلاق، ومواسم لذة ومتعة، واتّسمت «من غير استثناء تقريباً» عند أهلها بخلع العذار وطرح الحشمة والوقار، والإسراف فى اللهو والتسلية، حتى أصبحت مناقضة للعبادات ومفهومها، بعيدة عن كل جدٍّ ورزانةٍ، وخشوع وعبادة.

ولكن بالعكس من ذلك، صُبغ العيدان (عيد الفطر وعيد الأضحي) اللذان شُرعا فى الإسلام استجابة للغريزة الإنسانية، وتسليماً للأمر الواقع[٢]، بالصبغة الدينية الروحية، فشرعت صلاة العيد بتكبيرات زائدة وخطبة بعدها، وسُن الإكثار من التكبير قبل الصلاة وفى الطريق، وصدقة الفطر قبل صلاة عيد الفطر، والأضحية بعد صلاة عيد الأضحي.

وكان الأصل أن تقوم فى مكان واحد فى البرّية ليجتمع المسلمون مرتين فى السنة، شأنهم كل أسبوع فى الجمعة، ولكن تهاون المسلمون فى ذلك، وأصبحت صلاة العيد تقام فى كل مسجد كبير وصغير، وضُعف تأثير هذه الصلاة، ومقاصدها، كما ضَعُف تأثير الجمعة ومقاصدها، يقول العلامة ابن القيّم:

«كان ﷺ يصلى العيدين فى المصلى الذى على باب المدينة الشرقى، وهو المصلى الذى يوضع فيه محمل الحاج، ولم يصلِّ العيد بمسجده إلاّ مرة واحدة، أصابهم مطر،

(١) زاد المعاد: ١/١٠٦.

(٢) عن أنس بن مالك، قال: قدم النبى ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر» رواه أبو داود (١/٢٩٥) (١١٣٤) باب «صلاة العيدين» من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٤٣٨١).

فصلّى بهم العيد فى المسجد -إن ثبت الحديث وهو فى سنن أبي داود وابن ماجه- وهديه كان فعلهما فى المصلى دائماً»[١].

ويقول شخ الإسلام ولى الله الدهلوى وهو يذكر حكمة تشريع العيدين، وما شرع لهما من اهتمام:

«إن كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم، ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء، وذوات الخدور، والحيَّض، ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين، ولذلك كان النبى ﷺ يخالف فى الطريق ذهاباً، وإياباً، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين»[٢].

فضل الجمعة والجماعة فى عصمة الدين عن التحريف وحفظ المسلمين من البدع والفوضى فى العبادة:

وقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها فى الأمصار والأقطار فضل كبير، فى سلامة هذا الدين، وسلامة الشريعة الإسلامية، والأوضاع الدينية، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه، وبُعدِها عن تحريف المحرِّفين وعبث العابثين، فلو كان المسلمون -أعاذهم الله عن ذلك- تركوا الجمعة والجماعة، وانفردوا بعباداتهم وصلواتهم فى بيوتهم، وقاموا بها منفردين منعزلين، موزّعين مشتتين، لحُرفت هذه الصلوات ومُسخت مسخاً كبيراً، وأفقدها أصالتها ووضعها الأول، وتنوَّع المسلمون فيها، وصاروا فيها فرقاً وأقساماً، كما كانوا فى كثير من مظاهر حياتهم المدنية، وآدابهم الاجتماعية، وكانت للصلاة أنماط ونماذج، محليّة وفردية، كما كانت لليهود والنصارى، وكما هو معلوم وشائع فى ديانات الهند وطوائفها الدينية، فقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين فى العبادات، وإحكام الدين من التحريف[٣].

(١) زاد المعاد: ١١٩/١.

(٢) حجة الله البالغة: ٢٣/١.

(٣) الفكرة مقتبسة من كتاب حجة الله البالغة، للإمام ولى الله الدهلوي.

ولهذه الحكم والمصالح، ولما فيها من اهتمام وانتباه، ولما لا يحيط به علمنا، كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ أضعافاً مضاعفة، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه، خمسة وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلاّ الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحطّت عنه خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه: اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة»(1).

وروى ابن عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة»(2).

الصلاة فى الديانات الأخرى:

وقبل أن نتقدّم فى الحديث عن أنواع (الصلاة الإسلامية) الأخرى، وسماتها وملامحها، وأثرها فى النفس والحياة يحسن بنا أن نلقى نظرة فاحصة على (الصلاة) فى الديانات التى سبقت الإسلام، وظلّت تعاصره إلى يومنا هذا، ونتعرّف بفكرها ومفهومها، وحقيقتها، عند هذه الديانات وأصحابها، ووضعها وهيئتها، وأحكامها وآدابها بقدر الإمكان، فقد يكون الوصول إلى حقيقتها ولبابها، وفى زحمة من الأقوال والآراء، والتفاسير، وكثرة من القياس والتخمين، وتقديم صورة كاملة، واضحة القسمات والملامح لها -كما استطعنا أن نفعل ذلك بسهولة فى صفة الصلاة الإسلامية وتصويرها، تصويراً صادقاً دقيقاً- أمراً عسيراً جداً، أو ضرباً من المستحيل، ولا بدّ من ذلك للدراسة المقارنة، للحكم العلمى الصحيح، ولتقدير قيمة الإسلام، وما جاء به من آداب وأحكام، وكيف بقى هذا الدين

---

(1) صحيح: للستة إلا النسائى واللفظ للبخارى أخرجه البخارى (١/١٨١) (٤٦٥) باب الصلاة فى مسجد السوق، ومسلم (١/٤٥٠) (٦٤٩) باب «فضل صلاة الجماعة والتشديد فى التخلف عنها»، وأبو داود (١/١٥٣) (٥٥٩) باب «ما جاء فى فضل المشى إلى الصلاة»، والترمذى (١/٤٢٦) (٢١٦)، وابن ماجه (١/٢٥٩) (٢٥٩) من حديث أبى هريرة ﷺ.

(2) صحيح: رواه مالك (١/١٢٩) (٢٨٨)، والبخارى (١/٢٣١) (٦١٩) ومسلم (١/٤٥٠) (٦٥٠)، والترمذى (١/٤٢٠) (٢١٥)، والنسائى (٢/١٠٣) (٨٣٧) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

بعيداً -على مرّ العصور والأحقاب، وعلى تنوّع من الشعوب والأمم التى دانت به- عن كل تحريف وتصرّف، محافظاً على وضعه النقى الأصيل.

الصلاة عند اليهود:

إن تاريخ تشريع الصلاة وأحكامها، وهيئتها ووضعها، يكتنفه الشيء الكثير من الغموض، فى تاريخ اليهود وديانتهم، يصعب معه عرض صورة واضحة واحدة للصلاة، فى جميع العصور والأجيال، وقد تطوّرت فكرتها وتشريعها تطوّراً عظيماً، على مرّ الأيام والأحداث -بخلاف الصلاة فى الإسلام- وتناولها الإصلاح والتجديد، وهى لا تزال خاضعة بطبيعة الحال، لعوامل التجديد والتطوير، فيصعب على الباحث، أن يهتدى إلى وضعها الأصيل القديم الموحَّد، الذى كان عليه أنبياء اليهود وأحبارهم، وفقهاؤهم، فى أقدم العهود، وهنا نقدّم خلاصة بحث لعالم يهودى كبير، هو أستاذ لمادة الديانة اليهودية وشريعتها، فى كلية عبرية كبيرة، فى الولايات المتحدة الأمريكية، يقول الأستاذ Samuel S.Cohon[(١)]:

«رغم أنه لم يرد فى التوراة أمر صريح بالصلاة، لأن وضع العبادات التقليدى فى العهد القديم، كان محصوراً فى الذبائح والقرابين[(٢)]، مع ذلك قد اعتبروا الدعاء والصلاة

---

(١) Samuel S،Cohon، Professor of Jewish Theology At The Hebrew Union College،Cincinnati.ohio.

(٢) ولكن القرآن الذى جاء مهيمناً على الكتب السابقة، قد ذكر ما يدل على وجود (الصلاة) فى بنى إسرائيل، ومحافظة الأنبياء والصالحين من الأمة عليها، فقد جاء فى سورة الأنبياء: الآية ٧٣، عن إبراهيم، وإسحق، ويعقوب: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وجاء فى سورة مريم: الآية ٣١ قول عيسى عن نفسه: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [مريم: ٣١]، وجاء فى سورة آل عمران الآية ٤٣: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]. ويظهر أن اليهود قد أضاعوا الصلاة وتهاونوا فيها من العهد القديم المبكر، فقد جاء فى سورة مريم الآيات ٥٨-٥٩: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم: ٥٨، ٥٩].

وسيلة للتقرّب إلى الله، إن أنبياء اليهود أحياناً نعوا على نظام القرابين الطّقسى، وعاشوا حياة الالتجاء والإنابة، وأن النبى (إرميا) كان يلتجئ أحياناً إلى التوبة والاستغفار، والتذلّل لله، فراراً من أشغال الحياة الشاقّة ومتاعبها، وقد أوصى اليهود المنفيّين فى (بابل) بأن يوطّنوا نفوسهم على استحضار الله تعالى، والقرب منه، عن طريق الدعاء والعبادة، وقد استمرّ على ذلك مؤلّفو سفر المزامير، وإنّ تديّنهم وورعهم، هو الذى كوّن الصلاة اليهودية الفردية والجماعية، وصاغها صياغة خاصة».

لقد استنبط أحبار اليهود الذين بحثوا عن أساس للصلاة فى التوراة، مفهوم الصلاة من آية وردت فى سفر التثنية وتقول:

«وتحبّه وتعبد الربّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك» «(١٢-١٠)».

وتدّل الكلمات العبريّة التى وردت فى معنى الدعاء والعبادة، على ما كانت عليه الصلاة عند اليهود، وماذا تعنى، وإن أشهر هذه المصطلحات (Tephillah) وقد ترجمها (جولد تسهر) بالابتهال إلى الله كحاكم، والاستسلام له.

لقد أصبحت الصلاة ثلاث مرات (عند الفجر، وفى الظهيرة، وعند غروب الشمس) فى اليوم، والتى كانت من شعار المتدينين الأتقياء فى عهد الهيكل، نظاماً مشروعاً للصلاة الفردية والاجتماعية فى عهد الأحبار، قد اعتبرت أوقات هذه الصلوات الثلاث، وأساليبها، وأساليب يوم السبت، وصلاة الهلال الجديد، وصلاة الأيام المقدّسة المضافة، وصلاة يوم الكفارة الخاصّة، تعدل الذبائح والقرابين العمومية فى عهد الهيكل.

إن نظام العبادة التقليدى عند اليهود، يأمر بفصل الإناث عن الذكور، فى الصلاة، ويقوم على تغطية الرأس وإحنائه[1]، وعلى القيام فى صلوات خاصة، ويتأخر المصلى ثلاث خطوات إلى الوراء، عند تلاوة (عيمداه) وفاتحة سفر الحزقيل.

أما فى صلاة الصبح فى أيام الأسبوع، فينبغى للمصلّى أن يرتدى مُلاءة خاصة، ويربط التعويذات (فلقطير) بالذراع الأيسر والرأس، ولا بد من ذلك لكل من يتجاوز

---

(١) يظهر أن الصلاة عند اليهود لم يكن فيها سجود، وقد اكتفى القرآن فى ذكر صلاتهم بالركوع فقط، فقال: ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

الثالثة عشرة من السنّ من الذكور، أما فى يوم الكفارة، فيستعملون الطيلسان الأبيض (الذى يستعملونه فى الكفن بعد الموت)، ولا تفرق الشريعة اليهودية بين الأئمة وعامة المصلّين فى الصلاة، وتقول إنهم متساوون أمام الله.

إنّ الطبقة المتجددة فى اليهود، عُنيت بالموسيقى فى العبادة عناية خاصة، وقد اختارت لكل صلاة ألحاناً خاصة، ونغمات مخصوصة، حتى تكون هذه العبادة أوقع فى النفس، وأعمق تأثيراً. إنَّ اليهودية المجدَّدة التى ألحّت على الذوق والجمال قد قلّلت قيمة حركات الجسم المنبعثة، وألغت نظام صفوف الذكور والإناث، المنفصل بعضها عن بعض، وألغت تغطية الرءوس، واستعمال الأردية، ولما كانت الجماعة المتجدّدة، اقتصرت على صلاة يوم السبت والأيام المقدّسة، فأصبح تقليد ربط التعاويذ لا حاجة إليه، وأصبح القيام والسكوت وإحناء الرءوس فى بعض الأحيان محدوداً شاذاً فى مناسبات خاصة.

إن ضم الغناء الموسيقى إلى الصلاة اليهودية، قد جنى على أهمِّ أجزاء الصلاة ومقاصدها جناية كبيرة، وقد تجرّد اليهود المتجدّدون، واليهود المحافظون بطريق سواء عن روح العبادة، وهو الخشوع، والإقبال إلى الله بالقلب والقالب فى عباداتهم، بسبب التلحينات التى وضعها البارعون فى فنّ الموسيقى والغناء من غير اليهود، والتى طغت على الهياكل اليهودية، ومناهج عباداتها بشكل فظيع»[(١)].

ويزيد ما جاء فى (دائرة المعارف اليهودية) فى مقال: (الصلاة عند اليهود) ما قدّمناه وضوحاً وتفصيلاً فى بعض الجوانب، نلتقط منه بعض التفاصيل:

«وبناءً على ما أمر إسرائيل بالاستعداد اللازم للقاء ربّه»، كان اليهود يقومون باستعدادات خاصة قبل الصلاة، فقد كان الصالحون القدامى منهم يبذلون فيها ساعة كاملة، وكما كان من اللازم، أن يغسلوا الجسد قبل الصلاة بحيطة بالغة، ويرتدوا ملابس ملائمة للصلاة امتثالاً لأمر النبى عزرا.

(دعاء الصلاة) يُقرأ قائماً متوجهاً إلى الأرض المقدّسة، ولذلك دُعى باسم (عميداه).

---

(١) Judaism A.way of life pages: 298،316. to-318، and 358، to-360 .

ولا ينبغى للمصلّى أن يصعد على صُفّة، بل يجب عليه أن يصلّى فى مكان هابط، ولتكن الأقدام متصلة بعضها ببعض، ومستقيمة، كما تفعل الملائكة، ويلزم على المصلّى أن يمدّ يديه، ويرفعها إلى (الحاكم المقدّس) وأن يكون خافض الطرف، متعلق القلب بالأعلى، يركع خلال التحميد والتمجيد ويقوم باسم الله.

ويتأخر المصلّى بعد (عميداه) ثلاث خطوات، ثم يميل يميناً ويساراً، ويشبه عمله هذا بعادة الاستئذان من الملوك فى الزمن القديم.

الصلاة بالجماعة، إنما تؤدى مع عشرة أفراد بالغين على أقل تقدير، وتأدية الصلاة فى مكان عام، محمودة للغاية، وهى واجبة على الرجال والنساء، وممنوعة للبنات والفتيان.

إن تأليف أدعية الصلاة والتحميد والتمجيد يُنسب إلى (١٢٠) رجلاً صالحاً فى عهد ثمانين نبياً، ولا يُدرى أن أدعية الصلاة ابتدأت بتعليم الناس إياها شفوياً، أم سجّلت فى الكتب، وقُيدت بالكتابة، ويبدو أن الناس كانوا يحفظونها إلى مدة طويلة، ويردّدونها شفوياً، ولعل الأمر ظل هكذا إلى عهد (Geonic).

تكفى صلاة واحدة فى طول النهار، كما يقول الإمام المجتهد (johannah) ولكن أئمة اليهود الآخرين يسمحون بثلاث صلوات فى طول النهار، وأربع فى أيام الصوم.

أما الإمام (صموئيل) فيقول: «إن صلوات النهار الثلاث تتصل بتغيّرات النهار الثلاثة، عند طلوع الشمس، وفى الظهيرة، وعند غروبها»[١].

الصلاة عند المسيحيين الكاثوليك الرومان:

قد كان أول تأليف للصلاة المسيحية فى القرن الرابع، فى مجمع (نيقا)[٢]، ولا يزال المجلس الفاتيكانى يُحدث فيه تعديلات، ويُصدرها إلى العالم المسيحى الكاثوليكى، وكذلك نظام الكنائس الرئيسى يستطيع أن يُحدث فيه تغييرات، وإلى القارئ نموذج

(١) Jewish Encyclopaedia.

(٢) يرجع كاتب مقال (الصلاة عند المسيحيين) فى (دائرة معارف الأديان والأخلاق) أن السيد المسيح كان يشارك اليهود فى صلواتهم ويحضر عبادة الهيكل، وكذلك كان يفعل أئمة المسيحية القدامى، وكانت العبادة المسيحية، تقوم على تلك العبادة التى نشأ عليها الجيل المهيحى الأول، وأن الكنيسة المسيحية لم تقطع صلتها باليهودية، وإنما اليهودية، هى التى فصلت الكنيسة المسيحية.

الصلاة الطّقسية التقليدية، فى الكنيسة الكاثوليكية[1].

يدخل القسّ (الإمام) فى الكنيسة، فيقوم له الحاضرون تعظيماً، ويقول (ناوياً للصلاة) باسم الأب، والابن، وروح القدس، أُصلى إلى مذبح الكنيسة، وهنا يدور الحوار بين الإمام والجماعة فى تقديس الله والثناء عليه.

ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا، ويقول: «إننى أشهد الله القدير وأشهد مريم المباركة العذراء، دائماً، والملك الكريم ميكائيل، ويوحنا المعمّد، ورسل الله المباركين بُطرس، وبولس، وجميع القديسين، وجميع الأولياء المسيحيين، وأشهدكم أيها الإخوان! وأعترف بأننى اقترفت ذنوباً فكرية، ولسانية، وعمليّة، لا تعدّ ولا تحصى، أنا صاحبها، وأنا المسئول عنها وحدى، لذلك أسأل مريم العذراء المباركة، وميكائيل المبارك، الملك الكريم، ويوحنّا المعمّد المبارك، ورسل الله المباركين بُطرس وبولس، وجميع القديسين، والأولياء، وأسألكم أيها الإخوان! أن تدعوا الله مالك الملك لى».

وتدعو الجماعة له، ويقول الإمام: «آمين»، ثم تردّد الجماعة نفس عبارة الاعتراف، وطلب الدعاء، ويجيبها الإمام بالدعاء، وتقول الجماعة: «آمين»، ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة فى الدعاء، وطلب الرحمة، والأمن والمغفرة للجميع.

ثم يرتقى الإمام المذبح، ويتلو دعاءً لاتينيًّا يسأل الله فيه، أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب، ويتوسّل بالسيد المسيح وبالقديسين والأولياء الذين تضم الكنيسة آثارهم، ثم يقول الإمام: يا الله ارحمنا، ويقول الإمام: يا عيسى المسيح ارحمنا، وتقول الجماعة: يا عيسى المسيح ارحمنا، يقال ذلك مرتان، ويعود الإمام، فيسأل الله الرحمة، وتعود الجماعة، فتسأل الله الرحمة.

أما الحمد والثناء (Gloria) الذى يُتلى فى الكنيسة فى أوقات العبادة، فيشتمل على كلمات الحمد والثناء، وتكرّر فيه كلمات الأب، والابن الوحيد ويتكرر فيه وصف المسيح بحروف الله، وبأنه يمحو خطايا العباد، وبأنه يجلس على اليمين من الله ويتكرّر فيه

(١) فى ضوء آخر نشرة أصدرها المجلس الفاتيكانى عند كتابة هذه السطور، عنوانها (The Sacrifice of The Mass) سلسلة (St. Paul Publications).

طلب الرحمة منه وأنه يملك كل شيء ويعلو على كل شيء.

وتتلى قطعة من الكتاب المقدس، يعيّنها القسُّ، وتقوم الجماعة عند تلاوتها تعظيماً.

وتتميّز الصلاة الأسبوعية في يوم الأحد في الكنيسة الكاثوليكية بخطبة يتقدم بها الإمام في موضوع يقتضيه الحال، وتدعو إليه الضرورة، وتجديد لكلمة الإيمان، وقد جاء في هذه الكلمة وصف المسيح، بأنه ابن الله الوحيد، وأنه خُلق من الله، وأنه سابق لجميع الأزمان، وأنه رب الأرباب، ونور النور، وبأنه إله الحق، وبأنه يشارك الأب في وجوده، الذي وُجدت به جميع الأشياء، وبأنه نزل لنجاتنا من السماء، «وهنالك يخرّ الحاضرون على رُكَبهم، ويجثون» والذي ظهر في الشكل الإنساني بواسطة روح القدس ومريم العذراء، وتشتمل هذه الكلمة على صفات المسيح الألوهية، وعلى عقيدة الصلب والفداء، ووحدة الكنيسة المقدسة العالميّة، وأنها مركز الهداية، والمعموديّة، وحشر الأجساد، والحياة بعد الممات.

ويعقب الصلاة العشاء الربّاني، والأصل فيه أن القاصدين إلى الكنيسة في الزمن القديم، كانوا يحملون معهم الرغيف، والخمر (عصير العنب)، ويقدمونها إلى المذبح، فكان القسّ يأخذ شيئاً من الخمر، ويلطّخ بها الخبز، وكانوا يعتقدون أن هذه الخمر والرغيف يتحولان دم المسيح ولحمه، فالذي يتناولهما يُعتبر أنه يحمل لحم المسيح ودمه، والعشاء الربّاني تذكار للعشاء الأخير الذي تناوله المسيح في حياته، أما الآن فيقوم مقام الخمر والخبز نقود يقدّمها القاصدون للكنيسة إلى القسّ، أما القسوس، وأئمة الصلاة في الكنائس، فلا بدّ لهم من هذا العشاء التقليدي في شكله الظاهر، ويوزّع الخبز على الحاضرين.

ويُختم ذلك كله بدعاء وجيز، وهنالك تنتهي الصلاة، وتنتشر الجماعة.

الصلاة عند البروتستانت:

تشارك الصلاة في الكنائس البروتستانتية بقسميها النظامي «Methodist» والإنجليكاني «Anglican» الصلاة الكاثوليكية في أجزاء الاعتراف والتوبة والاستغفار، وتجديد الإيمان، وتوثيق العقائد الأساسيّة، والحمد والثناء، والدعاء، وتلاوة الإنجيل، إلاّ

أنّ أساليبها وصيغَها تابعة لمناهج كنائسها المقررة، وتتميّز بأشياء.

إنها لا تستعمل اللغة اللاتينية مطلقاً، وثانياً أنها صاغت الأدعية كلّها فى أناشيد وترنيمات تُغنّى بألحان مرسومة مقررة[1]، وتتميّز بصمت يسود عند ذكر الله، وتمتاز كذلك بحذف عبارات صريحة سافرة ممعنة فى تأليه المسيح، وتسويته بالله تعالى، والتأمّل والسكوت عند بعض الأدعية، وهما نموذج للدعاء الجماعى التقليدي:

((أيها الأب السماوى، أنت خلقتنا بحبّك، وأبقيتنا بحبّك، وإنّ حبّك سيُكملنا، إننا نعترف بكل عجز أنّنا لم نحبّك بكلّ قلوبنا ونفوسنا وأنّه لم يحب بعضنا بعضاً، كما أحبّنا عيسى المسيح، إنّ أرواحنا لا تزال فيها حياة، ولكنّ أنانيتنا وأثرتنا أبعدتنا عنك، إننا حرمنا نفوسنا روحك المقدّسة، وتغافلنا عن نصرتك وتأييدك، اغفر لنا ما مضى لنا، وأصلحنا فيما نحن فيه، وأرشدنا بروحك فيما يستقبلنا، حتّى تتجلّى عظمة خلقك فى نفوسنا، وفى نفوس الخلق بواسطة عيسى المسيح الذى هو مولانا وملكنا)).

أما الصلاة فى الكنيسة الإنجليكانية، فتتقدم العبادة أجراس تدقّ إيذاناً بالصلاة، وتُتلى قطعة من الإنجيل، وكلمة الإيمان كنشيد يغنّى به.

وفى مناسبات خاصة يُحتفل بتقليد العشاء الربّانى، ويعتقد التابعون لهذه الكنيسة أنّهم بإحياء هذه الذكرى يزكّون نفوسهم، ويقوّون أرواحهم[2].

فى الديانة الهندكية:

أما (الصلاة) –أو العبادة بتعبير أصحّ– فى الديانة الهندكية، فسمتها البارزة الاضطراب الهائل فى أساليبها ومناهجها، وتقاليدها، وأحكامها، باختلاف الأقاليم والولايات، والأزمنة والعصور، والمذاهب والطوائف، فيجد الباحث فى ذلك نفسه فى غابة كثيفة تكثر فيها الوهاد والنجاد، وتلك سمة العقائد والمبادئ والمناهج الدينية،

---

(١)، راجع على سبيل المثال

(٢) اقرأ التفصيل:

والتقاليد الشائعة فى الهند، لذلك وجد كثير من المشرّعين وعلماء الدين صعوبة عظيمة فى تعريف (الهندوكي) دينياً وتحديده المنطقى الضابط.

فالعبادة المفروضة فى الديانة الهندكية مضطربة اضطراباً عظيماً، شديدة المرونة والسعة، متشتتة الأساليب والمناهج، غامضة الحدود والشروط، مبهمة فى الأوضاع والأشكال، تنقصها الوحدة الشكلية، والجامعة الاعتقادية، لذلك قلّما يجد الباحث صورة واضحة كاملة لها فى كتاب، أو بحث لكاتب هندوكى من أساطين الفلسفة، والشريعة، ولعلّ الصورة التى عرضها عالم هندوكى كبير، وآثرنا نقلها تمثل أكبر منطقة فى الهند، وأعم أشكال العبادة فيها.

يقول الأستاذ (T.M.P.Mahadevan) رئيس قسم الفلسفة فى جامعة (مدراس) فى كتابة (مجمل الديانة الهندوكية Outlines of Hinduism)[1] وهو يتحدث عن نظام العبادة الطقسى فى الديانة الهندكيّة:

«إن تماثيل (وشنو) وتجسّداته وأصنام (شيو) و(شكتي) هى الأصنام المقبولة عند العامة، التى تُعبد فى الهياكل والبيوت، ولكن تماثيل (كرشنا) فى الشمال وتماثيل (Kartikaya) فى الجنوب، التى لا تُعدُّ ولا تحصى، هى الأصنام الشعبية التى يؤثرها الدهماء من الهنادك، إن العامة من الهنادك يؤمّون هذه الهياكل على اختلاف طبقاتهم ونحلهم، ويشاهدون فيها الإله الواحد، ويعبدونه.

إن الهندوكى يتلقى إلهه فى بيته كضيف كريم، ويؤم الهيكل، وهو يحمل معه الفواكه والأزهار، ليقدمها إلى (ملك الملوك) رمزاً لحبّه وإجلاله، ونظام العبادة هو فى الحقيقة محاكاة للتقاليد التى يقوم بها إنسان لضيفه الكريم، أو ملكه العظيم، فيرحّب بإلهه، ويعيّن له مكاناً للجلوس، ويغسل قدميه، ويقدّم إليه الصندل، والرزّ، كرمزٍ للولاء والتقدير، ويقلّد التمثال عقداً من خيوط، ويلطّخ جبينه بعجين الصندل، ويقدّم له الرياحين، ويبخّر العود، ويوقد له السُرُج، ويديرها حوله، ويضع أمامه الطعام، ثم يقدم له

(١) كتاب متوسط فى ٢٩٩ صفحة، نشرته مؤسسة (The Tana Limited، Bombay، India) عام ١٩٥٦م، قدم له الأستاذ الكبير رادا كرشنن، رئيس الجمهورية الهندية الأسبق، وأثنى عليه.

التنبول[١]، ويحرق الكافور، ويقدّم إليه الذهب كهدية، ويسمّى زهر الذهب، وفى الأخير يودع الإله أو الآلهة.

يعامل الإله فى الهياكل، كما يعامل الملوك، فيوقظونه بالموسيقى والأغانى، وبعد الاغتسال التقليدى يكسى اللباس الملوكى، ويحلّى بالحلى والرياحين، وتدار حوله الأضواء المتفنّنة، ويقدّم له الطعام فى أوقات معيّنة، ويجلس الملك المجلس الملكى كل يوم، ويشرّف عباده بمشاهدته، ويسمع شكاويهم، ويشملهم بعطفه، ونعمته، ويخرج فى جولة فى موكب ملوكى، فى الأعياد والمواسم.

وتمثل هذه المسرحيّة الربّانية الغامضة فى جميع الهياكل فى الهند، لإغراء أولئك الذين لا يتخلصون من سبل الحياة المملة التى لا تؤدى إلاّ إلى مناطق الظلام الحالك[٢].

وهنا وصف آخر، وتصوير لعبادة الهندكية، بقلم مؤلف أوروبى، يطابق الوصف الأول، ويزيده وضوحاً وتفصيلاً، يقول (لويس رينون **Louis renon**) فى كتابه **(Hinduism)**:

«رغم أن العصور القديمة، لم تكن تعرف عبادة التماثيل، ولكن مع تقدّم صناعة نحت الأصنام والتماثيل، انتشرت عادة عبادة التماثيل، لقد أصبح مع الزمن نحت تمثال الإله أو الآلهة، ونصبه فى مقام مقدّس، والنظر إليه ككائن حى، وتدهينه بالزيوت تقاليد هامة.

إنّ مبدأ النشاط الدينى الرئيسى هو العبادة، وطريقته الشائعة فى الأوساط الدينية أن (العابد) يرحّب بالإله كضيف كريم، فيغسله ويكسوه اللباس، ويزيّنه ويطيّبه، ثم يقدّم له الطعام، وينشر حوله الزهور والرياحين، ويحمل المصباح المشتعل أو الشمعة، ويطوف حوله مغنّياً مزمّراً، وقد يخرج به فى موكب فاخر يلفت الأنظار. ويثير الإعجاب، وهنا تلتقى الأساطير الدينية القديمة مع الأساطير الشعبية، وهذه التقاليد تؤدى فى شكل جماعى شعبى فى المعابد، لا يتخلّى فيه الفرد عن واجبه الشخصي.

(١) ترافقها بعض المواد الحجرية التى تطيب الفم، وتقدم إلى الضيوف.

(٢) **Outlines of Hinduism، Page، 48-50.**

إن بعض الناس، ولعلّ الكثرة الكاثرة من العامة ينظرون إلى التمثال كإله بنفسه، وذلك ما يطلق عليه لفظ عبادة الأصنام، وعند بعض الناس، ليس التمثال إلاّ رمزاً لقيم خاصة، وليست عبادة الأصنام وتقديسها إلاّ (تجسيماً) لهذه القيم المعنوية.

إنّ العابد خصوصاً إذا كان متصلّباً فى ديانته، ليستعدّ استعداداً عظيماً قبل أن يشرع فى العبادة، فيغتسل ويتنظّف، ويحدّد الغذاء (بصوم، أو كفٌ عن تناول الطعام) ويحافظ على وضع خاص للجسم، والأصابع، ويحبس النفسَ ويتمثّل تسلط الإله على نفسه، وتملّكه لها، ويردّد الكلمات المقدّسة (منتر) فى هدوء وسكوت، والكلمة المقدسة (منتر) قد لا تعدو كلمة واحدة، وقد تتألف بمئة صوت أو أكثر، فإذا طالت هذه الكلمات، وردّدها القائل، فلا أهمية إذاً للفظ والصوت، فيصبحان شكلاً مجرداً، ففى العبارات التقليدية قد تتجرّد الألفاظ والأصوات عن المعانى، وقد تشتمل بعض الكلمات المردّدة (منتر) على اسم بسيط (لله مثلاً رام رام)، فتساعد هذه العبادة على تركيز الفكر على نقطة واحدة، ويعتقدون أن الفرد يجد فيها الأمان، ويفى بنذوره، ويكفّر بها عن سيئاته.

ومن أوضاع العبادة الشخصية الأخرى تلاوة الكتب المقدّسة، وأكثر من ذلك المراقبة بطريقة خاصة، وُصفت وشُرحت فى يوجا «Yoga»، ومن الممكن أن تورث المراقبة كيفية من الذهول، والتجرّد من الأنانية، وتتعانق بها الروح بالحقيقة اللانهائية، التى لا فناء لها، وذلك ما تعتبره جميع الديانات الهندية المقصد الحقيقى، والغاية الرئيسية.

وإلى حدّ ما ليست العبادة المفروضة، إلاّ ما يؤديها الفرد فى منزله، ويقوم بها ثلاث مرات فى اليوم، فى الصباح، وفى الغداة، وفى المساء، ويقدّم كثير من الناس نذوراً للآلهة، والآباء، والأسلاف»[1].

ويلاحظ المتتبّع لمناهج العبادة وتقاليدها فى أقاليم الهند وبيئاتها المختلفة وحدتين تجمعان بين هذه المناهج قديماً وحديثاً، وشرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً.

أولهما العناية الزائدة بالغناء والموسيقى، فقلّما تتجرّد العبادة فى المعابد والمنازل عن

---

(١) Louis Renon: Hinduism: Page: 14، 15، 16.

التغنّي والعزف، والتصفيق[١] بطريقة خاصة، وقد دخلت الأغاني والموسيقى في صلب الديانة البرهمّية، وأصبحت ركناً أساسياً من أركانها، والتجأ إليها كثير من علمائهم، وفلاسفتهم، وكهنتهم، لإثارة الرقة والعاطفة، والشوق في قلوب العبّاد من الذكور والإناث، واشتركت في ذلك جميع الديانات التي اعتمدت على التجارب الإنسانية، وعبثت بها يد التحريف، ودخل فيها الشرك، وقد قال الله تعالى عن أهل الجاهلية العربية: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥][٢]، وإن كانت هذه الأغاني المطربة، والمعازف الرنّانة، والتصفيقات المثيرة، أفادت من ناحية الرقة والحنان، كما يحكيه بعض الناس، فقد أضرّت كثيراً من ناحية الخشوع، والسكينة والهدوء، الذي تتطلبه العبادة لله تعالى.

والوحدة الثانية التي تجمع بين هذه المناهج المختلفة في المكان والزمان، هي التمسك بعبادة الأصنام، وإلحاح الفلسفة الهندية ودياناتها المختلفة على قيمتها وفوائدها، وآثارها في النفس، ويعجب الباحث إذا رأى مثل مصلح الديانة البرهمية، ومجدّدها العظيم (شنكر أشاريا Sankar Acharya) من رجال القرن السادس المسيحي، وهو الذي نفى الديانة البوذية من الهند، وأعاد الديانة البرهمية القديمة إلى مركزها واعتبارها، يدافع عن عبادة الأصنام التماثيل، ويعتبرها مرحلة طبيعية لازمة في تقدم الفكر الديني، يقول الأستاذ الهندوكي الكبير (V.S.Ghate)، رئيس قسم الدراسات الهندوكية في جامعة (بومباي)، في مقاله، في (دائرة معارف الأديان والأخلاق):

«إن شنكر أشاريا لم يعارض فكرة عبادة الأصنام، ولم يهاجمها، إنه يعتبر التمثال رمزاً، ومظهرًا وإنه ذمَّ النظام الطقسي«Ritualism»، وفلسفة العمل وجزائه، ولكنه دافع عن الآلهة المقبولة عند العامة، إنه يقول:

---

(١) وقد كان ذلك جزءاً لازماً، وركناً في عبادة الزعيم (غاندي) التي كان يقوم بها كل يوم مساءً وكانت له طريقة خاصة، يعلمها بعض خاصته للضيوف الجدد.

(٢) مكاءً أي صفيراً، وتصدية، أي تصفيقاً، روى أنهم كانوا يطوفون عراة، الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون، (مقتبس من روح المعاني للعلامة الألوسي)، وروى عن كبار الصحابة والتابعين نحو هذا، (راجع تفسير ابن كثير: ٣٠٧/٢).

«إن الوثنية حاجة من حاجاتنا الفطرية فى مرحلة خاصة من مراحل التطور، حين تنال الروح الدينية نضجها واكتمالها، وتبلغ سنّ الرشد يستغنى الإنسان عن (الوثنية) فيجب هنالك رفض العلامات والرموز»[1].

وقد جنت هذه الوثنية -مهما نظر إليها الفلاسفة وعلماء الديانات الوثنية، كرمز ومرحلة عابرة - على عقيدة التوحيد، والابتهال إلى الله، والإخبات له، وأصبح عبّاد الأصنام مقتصرين على عبادة هذه الأصنام عاضّين عليها بالنواجذ يعيشون عليها ويموتون، لا يعرفون غيرها، ولا يلتجئون إليه فى حاجاتهم وكُربهم، والذى يعبرُ هذه المرحلة وينتهى إلى الحقيقة النهائية، والغاية فى هذه العبادات، كما تخيّل هؤلاء الفلاسفة، ويخلص لله تعالى العبادة والدعاء أعزّ من الكبريت الأحمر، والعنقاء المُغرِب فى هذه الأمم والبلاد، قد لا يتجاوز عددهم رؤوس الأنامل فى أمة كبيرة، تملأ البلاد، لذلك كان ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم من قول وشكوى، حقاً ومنطبقاً كل الانطباق على عبّاد الأوثان والأصنام والآفاق، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، إن هذه الأوثان لم تُضلّ فى الحقيقة، ولم تكن لها دعوة دينية، ولكنها استحوذت على عقول عبّادها، وسيطرت عليها، وألهتهم عن عبادة الواحد القهار، فتشاغلوا بها عنه، وحُرموا سعادة عبادة الله ولذتها، فكان ذلك هو الضلال المبين.

السنن الرواتب وصلاة الوتر:

ونعود إلى الصلاة فى الإسلام فنقول قد سنّ رسول الله ﷺ ركعات معدودة يصلى بعضها قبل بعض المكتوبات، وبعضها بعد بعض المكتوبات، ويواظب عليها فى الحضر، وكانت كخنادق تُحفر لحراسة حصنٍ، أو كسُور يقام حول مدينة، فلا يمسها سوء ولا يصل إليها عدوّ حتى يعبر هذه الخنادق، أو يقتحم هذا السور، فمن حافظ عليها، كان أجدر بأن يحافظ على الصلوات المكتوبة، وكان أحرص عليها، وألزم لها، ثم أنها تُكمل

---

(١) ((Encyclopaedia of Religion and Ethics))4th Edition 1958، Vol .XI Article-Sankaracharya.

ما وقع فى الصلوات المفروضة من نقص، وتجبر ما طرأ عليها من كسر(١).

وقد جاء فى الحديث، عن ابن عمر، قال: «صلّيت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب فى بيته، وركعتين بعد العشاء فى بيته، قال: وحدثتنى حفصة، أن رسول الله ﷺ كان يصلى ركعتين خفيفتين حين يطلع الفجر»(٢)، وفى رواية: «من صلى فى يوم وليلة اثنتى عشرة ركعة، بُنِى له بيت فى الجنة، أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر»(٣). وعن عائشة رضى الله عنها رفعته: «من ثابر على اثنتى عشرة ركعة من السنَّة، بنى الله له بيتاً فى الجنة، أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر»(٤).

وأخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان يصلى فى بيتى قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلى بالناس، ثم يدخل فيصلى ركعتين، وكان يصلى بالناس المغرب، ثم يدخل، فيصلى ركعتين، ثم يصلى بالناس العشاء، ويدخل بيتى، فيصلى ركعتين، ... وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين»(٥).

وكان يُوتر بعد صلاة العشاء، أو بعد قيام الليل، ولا يتركه فى سفر ولا حضر، وقد

---

(١) صحيح: روى الترمذى (٢٦٩/٢) (٤١٣) باب «ما جاء أن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة والنسائى (٢٣٢/١) (٤٦٥) باب «المحاسبة على الصلاة»، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠) عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تعالى: انظروا، هل لعبدى من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر أعماله على ذلك».

(٢) صحيح: متفق عليه أخرجه البخارى (٣٩٥/١) (١١٢٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٠٢/١) (٧٢٨) فضل السنن الراتبة وبعدهن وبيان عددهن والترمذى (٢/ ٢٧٤) (٤١٥) باب ما جاء فيمن صلى فى يوم وليلة ثنتى عشرة ركعة من السنة، وما له فيه من الفضل عن أم حبيبة واللفظ للترمذي.

(٤) صحيح: للترمذى والنسائى أخرجه الترمذي (٢٧٣/٢) (٤١٤)، والنسائى (٢٦٠/٣) (١٧٩٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩١٠) وصحيح سنن ابن ماجه (٩٣٥).

(٥) صحيح: لمسلم (٥٠٤/١) (٧٣٠) باب «جواز النافلة قائمًا وقاعداً» وأبى داود (١٨/٢) (١٢٥١) باب «تفريع أبواب التطوع وركعات السنة» (باختصار).

صحّ عنه أنه قال: «الوتر حق فمن لم يوتر، فليس منّا، الوتر حق فمن لم يوتر، فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»[١]، وفى رواية عنه أنه قال: «إن الله أمدّكم بصلاة هى خير لكم من حمر النعم، الوتر، جعله الله فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر»[٢].

وأهم هذه السنن الراتبة، هى ركعتان بعد طلوع الفجر، قالت عائشة رضى الله عنها: «لم يكن النبى ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر»[٣].

وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «لا تدعوهما ولو طردتكم الخيل»[٤].

تنوع الصلوات وتنوع أغراض المسلم منها:

وليست الصلاة مقصورة على فريضة تؤدى فى وقتها، ويتخلّى بها المسلم عمّا أوجبه الله عليه من فرض، فذلك فرض لا يقبلُ الله عنه صرفاً ولا عدلاً، ولكنها جُنَّة المسلم وسلاحه، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل، ويكشف به كل ما غُمَّ عليه، وأهمّه أو شغل خاطره، ففى الخوف صلاة، وللاستسقاء صلاة، وللكسوف صلاة، وللاستخارة صلاة، وللحاجة صلاة، وللتأهب للموت والشهادة صلاة[٥].

---

(١) ضعيف رواه أبو داود (٦٢/٢) (١٤١٩) باب «فيمن لم يوتر»، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦١٥٠)، عن بريدة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف رواه الترمذى (٣١٤/٢) (٤٥٢) وأبو داود (٦١/٢) (١٤١٨) باب «تفريع أبواب الوتر» عن خارجة بن حذافة رضي الله عنه وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٦٢٢).

(٣) صحيح: للستة إلا مالكاً أخرجه البخارى (٣٩٣/١) (١١١٦) ومسلم (٥٠١/١) (٧٢٤)، وأبو داود (١٩/٢) (١٢٥٤)، والنسائى فى الكبرى (١٧٥/١) (٤٥٦).

(٤) قال العلامة ابن القيم: كان رسول الله ﷺ فى السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، و لم ينقل عنه فى السفر أنه ﷺ صلى سنة راتبة غيرهما» (زاد المعاد: ١٨/١). وقال فى موضع آخر: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها، وروى هذا عن عمر وعلى وابن مسعود وجابر وأنس وابن عباس وأبى ذر، وأما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر، وهذا هو الظاهر من هدى النبى ﷺ إنه كان لا يصلى قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً، و لم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها، فهو كالتطوع المطلق إلا أنه سنة راتبة بالصلاة كسنة صلاة الإقامة» (زاد المعاد: ١٢٩/١).

(٥) روى البخارى فى صحيحه (١١٠٨/٣) (٢٨٨٠) «فى باب كرامة الأولياء وفضلهم» عن أبى هريرة رضي الله عنه،

وعلى المسلم أن يألف هذه الصلاة، ويرى فيها الأنيس المؤنس، والمغيث المنجد، ويتعوّد كلما التوى عليه شيء أو أعياه أمر، أو كَرَبه همّ أن يبادر إلى باب الكريم فيطرقه، ويلجّ به حتى يؤذن بالفتح، وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم، والتابعون لهم بإحسان فى كل جيل، قد تعوّدوا ذلك، وكان شأنهم مع الصلاة شأن الجندى مع سيفه، وشأن الغنى مع ثروته، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه، واستعطافه للأم الحنون، بل كانوا أكثر إدلالاً وثقة بصلاتهم، وأقوى اعتماداً عليها من كل ذلك، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم، فإذا أفزعوا أو أثيروا، وإن دهمهم عدو، أو تأخر عليهم فتح، أو التبس عليهم أمر، التجؤوا إلى الصلاة وفزعوا إليها.

وقد كان على هذه السيرة أئمة الإسلام، وأعلام هذه الأمة، وقادة المسلمين فى كل عصر، وقد حكى عن شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه إذا أشكلت عليه آية، أو التوى عليه علم، عمد إلى بعض المساجد المهجورة، فقام يصلّى، فيعفّر وجهه بالتراب ويطيل السجود، ويقول: «يا معلّم إبراهيم علّمني»، وكان شديد الابتهال، عظيم التذلّل لله تعالى، يفتخر بأنه سائل مستجد، عريق فى (الشّحاذة) ورثها أبًا عن جدٍّ، قد سُمع ينشد فى بضع مناجاته ودعواته:

أنا المكدّى وابن المكدّى … وهكذا كان أبى وجدّى[1]

قيام الليل فضله وتأثيره وشأن السلف فيه وحاجة العالمين والدعاة إليه:

وأقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطّارية) القلب، قيام الليل الذى أكثر القرآن من الحثّ عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه حتى كأنه مُلحق بالفرائض، وتابع لها،

= أن خبيباً لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل، قال لهم خبيب: دعونى أصلى ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله، لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت. وكان خبيب هو الذى سنّ هذه السنة.

(١) مدارج السالكين: ١/٢٩٦، طبعة (المنار).

ولذلك سمّى نافلة، وكان رسول الله ﷺ لا يتركه فى حضر وسفر(١)، ويذهب كثير من علماء الإسلام، أنه كان فرضاً عليه(٢)، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ١-٩]، وقال: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء: ٧٩] ولذلك كان رسول الله ﷺ شديد المحافظة عليه، عظيم الحرص والرغبة فيه، وكان يقوم حتى تتورّم رجلاه، يقول المغيرة بن شعبة: قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٣)، وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها: «قام النبى ﷺ بآية من القرآن ليلة»(٤).

ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم، والذى يطالع دواوين الحديث، وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم، حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وُصفوا أمام (هرقل) وقادته بأهم «بالليل رهبان بالنهار فرسان» ويصفهم سيد التابعين، من أعرف الناس بالصحابة، الإمام الحسن انبصرى، فيقول: «إن المؤمنين لمّا جاءهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها وأفضى يقينها إلى قلوبهم،

(١) قال العلامة ابن القيّم: «ولم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً، وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة» (زاد المعاد: ١/٨٤).

(٢) قال العلامة بحر العلوم: «اختلفوا، أكانت صلاة التهجد فرضاً عليه أم تطوعاً، ذهب إلى الأول جمع، ومنهم أصحاب الأصول من مذهبنا، وقال القسطلاني: إليه ذهب أكثر الأصحاب يعنى الشافعية، وذهب جمع إلى الثاني» رسائل الأركان، ص ١٣٤ طبع لكهنؤ.

(٣) صحيح: رواه البخارى (١/٣٨٠) (١٠٧٨) باب «قيام النبى ﷺ حتى ترم قدماه» ومسلم (٤/٢١٧١) باب «إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة» والترمذى (٢/٢٦٨) (٤١٢) باب «ما جاء فى الاجتهاد فى الصلاة» والنسائى (٣/٢١٩) (١٦٤٤) باب «الاختلاف على عائشة فى إحياء الليل» من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذى (٢/٣١٠) (٤٤٨) باب «ما جاء فى قراءة الليل»، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأى عين، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدّقوا به، فنعتهم الله في القرآن أحسن نعت»، قال: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً** ﴾ [الفرقان: ٦٣] [إلى أن يقول]: ثم ذكر ليلهم خير ليل، فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً** ﴾ [الفرقان: ٦٤] ينتصبون لله على أقدامهم، ويفترشون وجوههم سجّداً لربّهم، تجرى دموعهم على خدودهم، فرقاً من ربّهم، قال الحسن: «لأمر ما سهروا ليلهم، ولأمر ما خشعوا نهارهم»[١].

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين، والدعاة والمجاهدين، والمربّين المصلحين فى كل عصر، وفى كل طبقة، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار، ولأشغالهم التى تتطلّب قوة خارقة للعادة، وصبراً لا نفاد له، زاداً ووقوداً من عبادتهم فى الليل، ومن يقظتهم فى الأسحار، ولا يفهم الإنسان سر قوة أولئك العلماء الربّانيين، والدعاة المصلحين، ومثابرتهم على الجهاد فى التعليم والإصلاح، وتحمّلهم للمشاق والمحن، إلا من رأى مواقفهم بالليل، وشأنهم مع ربّهم تبارك وتعالى، حتى كان أولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم، أنهم كانوا من علماء الظاهر، ويتّهمهم بالجفاف والخشونة، من كبار المهتمّين بقيام الليل، والذكر والتسبيح، فما ظن القارئ الكريم، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد، ورقة القلب، والانقطاع إلى تربية النفوس، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلانى، والشيخ شهاب الدين السهروردى، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندى، يقول العلامة ابن القيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية:

«صلّى شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلىّ، وقال: هذه غدوتى، ولم أتغدّ، ولو لم أتغدّ الغداء سقطت قوتى، أو كلاماً قريباً من هذا»[٢].

---

(١) كتاب قيام الليل (للمحدث الكبير محمد بن نصر المروزى المتوفى ٢٩٤هـ)، طبع لاهور ١٣٢٠هـ.
(٢) مجموعة الوابل الصيّب لابن القيم، ص٧١٩، ٧٢٠ (مطبعة المنار).

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية، فيقول المؤرخ ابن كثير، وهو يصفه: «لا أعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة فى الصلاة، يطيلها ويمدّ ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه فى بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك»(١).

ويقول العلامة ابن رجب الحنبلي: «وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة، إلى الغاية القصوى، وتألُّه ولهج بذكر الله، وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له، والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله فى ذلك»(٢).

وأغرب من ذلك كله، أمر العلامة الحافظ عبد الرحمن بن الجوزى الذى هو زعيم النُّقَّاد، وحامل لواء الردّ على غلاة الزهّاد والعبّاد، يقول سبطه أبو المظفر، وكان يختم القرآن من كل سبعة أيام»، وقال ابن النجّار: «له حظ من الأذواق الصحيحة، ونصيب من شرب حلاوة المناجاة»، وقد ذكر ابن القادسي: «إنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله»(٣).

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم، وزعماء الإصلاح والتجديد، ورجال التعليم والتربية، ومن نفع الله المسلمين بنفوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل، والقبول العظيم والذكر الجميل، من أصحاب العبادة والسهر فى الليالى، والقيام فى الأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظَلُّ، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثمرة النوافل والإكثار من الصلاة وآثاره:

وللمحافظة على الصلوات –بقالبها وروحها– والإكثار من النوافل تأثير لا يعرف

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/٣٣٥.

(٢) التاج المكلل، ص٤١٧، نقلاً من طبقات الحنابلة.

(٣) ملتقط من التاج المكلل–للعلامة الأمير صديق حسن خان.

لغيرها فى صفاء النفس، والسموّ الروحى، والاتصال بعالم القدس وتلقّى التجليات الأخروية، لذلك جاء فى الحديث: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا[١]، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قال: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][٢].

وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: «أن النبى ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام؟ فإنى سمعت دفّ نعليك بين يدى فى الجنة، قال: ما عملت عملاً أرجى عندى، أنى لم أتطهر طهوراً فى ساعة من ليل أو نهار، إلاّ صلّيت بذلك الطهور ما كُتب لى أن أصلّي»[٣].

والنوافل والإكثار منها سبب كبير فى تقوية محبة الله تعالى، وجلب رحمته واصطفائه، لذلك أشار النبى صلى الله عليه وآله وسلم على من طلب منه المرافقة فى الجنة بتكثير النوافل وكثرة السجود، فقد روى مسلم، عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل الصُّفّة رضى الله تعالى عنهم، قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال: «سلني! فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة! فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك! قال: فأعنّى على نفسك بكثرة السجود»[٤].

وهى كذلك تورث اضمحلال العبد فى إرادة الله تعالى وخشيته، وحبه، والانسلاخ عن الطبيعة السبُعية، أو البهيمية، التى هى مصدر الظلم والطغيان، والإثم والعدوان،

---

(١) قال هذا، وأشار إلى القمر.

(٢) صحيح رواه البخارى (١/٢٠٩) (٥٤٧) باب «فضل صلاة الفجر» ومسلم، (١/٤٣٩) (٦٣٣) باب «فضل صلاتى الصبح والعصر، والمحافظة عليهما» واللفظ للبخارى وفى الحديث يظهر استدلال بعض العلماء على أن من حافظ على هاتين الصلاتين كان له من الأجر أن يرى الله – عز وجل– فى الجنة مرتين، وهذا نعيم أهل الجنة بدليل أنه ربط بين هذين الوقتين والرؤية، وفيه أيضاً أن المشابهة هنا بين الرؤية والرؤية لا بين المرئى (وهو الله) والمرئى (وهو القمر) أى فى عدم الحجب والضرر.

(٣) رواه البخارى، فى باب فضل الطهور (١/٣٨٦) (١٠٩٨).

(٤) صحيح رواه مسلم (١/٣٥٣) (٤٨٩) باب «فضل السجود والحث عليه».

ومصدر الهوى، ومخالفة أمر الله، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «ما تقرّب إليّ عبدى بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينّه ولإن استعاذنى لأعيذنّه »[1].

تفاوت الصلوات التفاوت الكبير وتفاضل أهلها التفاضل العظيم

وليست الصلاة قالباً حديدياً، وشيئاً جامداً محدوداً، يتساوى فيه الناس، ويتوقف المصلى فيها على مستوى واحد لا يتجاوزه، إنما هى ساحة واسعة يتدرج فيها المصلى من حال إلى حال، ومن بدء إلى كمال، ومن كمال إلى ما لا يخطر على البال، ويتفاضل فيها الناس تفاضلاً كبيراً، فليست الصلاة مع الغفلة والجهل، مثل الصلاة مع الاستحضار والتفقه، وليست صلاة عامة المسلمين مثل صلاة العارفين، وأهل اليقين، ولا يجب أن تكون صلاة كل أحد فى اليوم مثل صلاته بالأمس، وقبل شهور وسنين.

ولذلك يذكر القرآن الكريم نوعين من الصلاة، يذم أحدهما ويمدح الآخر فيقول: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ [الماعون: ٤-٧]، ويقول: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. كذلك يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نوعين من الصلاة، صلاة خاشعة مقبولة، وصلاة ساهية منقوصة، فيقول عن النوع الأول وقد توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم يصلى ركعتين لا يحدّث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه»[2]، وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه، قال:

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٥/٢٣٨٤) (٦١٣٧) باب «التواضع» يقول العلامة ابن حجر العسقلانى فى شرح هذا الحديث نقلاً عن بعض العارفين: «إنه حمله على مقام الفناء والمحو، وأنه الغاية التى لا شيء وراءها، وهو أن يكون قائماً بإقامة الله له، محبًّا بمحبته له، ناظراً بنظره له، من غير أن تبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم، أو تتعلق بأمر، أو توصف بوصف. ومعنى هذا الكلام، أنه يشهد إقامة الله له حتى قام، ومحبته له حتى أحبه، ونظره إلى عبده حتى أقبل ناظراً إليه بقلبه» (فتح البارى: ١١/ ٢٩٦).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (١/٧٢) (١٦٢) ومسلم (١/٢٠٤) (٢٢٦) عن عثمان بن عفان رضى الله

قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلاً عليها بقلبه ووجهه، إلاَّ وجبت له الجنة»[١]. وقال عن النوع الثانى، كما روى عنه عمار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلاَّ عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[٢]، وقال: «أسوأ الناس سرقة الذى يسرق صلاته، قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها، ولا سجودها»[٣]. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا اصفرّت، وكانت بين قرنى الشيطان، قام، فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً»[٤].

وتفاضل النّاس فى الصلاة تفاضلاً، حتى كانت صلاة الواحد منهم لا تقاس بصلاة الآخر، وكانت صلاة رسول الله ﷺ أفضل وأكمل وأسمى وأرقى وأثقل عند الله فى الميزان من كل صلاة، وكانت صلاة أبى بكر رضى الله تعالى عنه، أقرب إلى صلاة رسول الله ﷺ وأشبه بها من صلاة غيره، لذلك اختاره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليكون فى مكانه، ويؤم الناس فى وجعه الأخير، وقال –مع اقتراح عائشة أم المؤمنين أن يؤم عمر–: مروا أبا بكر فليصل بالناس»[٥]، وكذلك كان.

والناس يتفاضلون فى الصلاة قبل أن يتفاضلوا فى غيرها –من فضل علم أو ذكاء– وهى المقياس الصحيح، وبها يُحكم على دين الرجل، ومكانته فى الإسلام، وليس امتياز هؤلاء الرجال الذين خلد التاريخ ذكرهم، وكان لهم فضل فى الأقران والمعاصرين، ولسان صدق فى الآخرين، إلاَّ لامتيازهم فى هذه الصلاة، وتفوقهم فيها على معاصريهم

= تعالى عنه، واللفظ للبخاري.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩/١) (٢٣٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢١١/١) (٧٩٦) والنسائى فى الكبرى (٢١١/١) (٦١٢) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٢٦).

(٣) صحيح: رواه الدارمى (٣٥٠/١) (١٣٢٨) من حديث أبى قتادة ﷺ وأحمد (٥٦/٣) (١١٥٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى –ﷺ– وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٨٦).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٤٣٤/١١) (٦٢٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى فى الصحيح (٢٤٠/١) (٦٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وأضرابهم، وبلوغهم فيها مرحلة (الإحسان) ووصولهم فيها إلى أسمى مكان.

فضل الصلاة والقرآن بعد وفاة الرسول ﷺ وختم النبوة:

كانت النبوة شمساً وهاجة تشرق على هذا العالم، وتملأ النفوس والقلوب نوراً وحرارة، وقوة وحياة، وتربطها بخالقها ربطاً قويًّا وثيقاً، فى أقل وقت وأكثر عدد، وتنقل –من أراد الله به الخير– من حضيض الجهل والغواية، والغفلة والبطالة، وسوء المعرفة والضلالة، إلى ذرى العلم والحكمة، والطموح وعلو الهمة، وإلى أقصى مدارج الوصول والكمال، وإلى أعلى منازل القرب والولاية، واتصلت بعثاتهم ودعواتهم صلوات الله عليهم حتى كانت بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، على فترة من الرسل، فكانت شخصيته، هى أقوى شخصيات الرسل، وكانت دعوته هى أتم الدعوات، وكانت صحبته هى الإكسير الأعظم، الذى يحوّل العداء الشديد حباً وتفانياً، والبعد عن الله والوحشة منه، قرباً منه وأنساً به ووصولاً إليه، وكان الناس يشعرون فى صحبته، كأنما يمرّ بهم التيار الكهربائى، وكانوا ينتقلون فى لحظات، من الشك فى الدين، والظن والتخمين، إلى أعلى درجات الإيمان واليقين[1] وكان وجوده ﷺ فى أمته أقوى سبب للاتصال بالله تعالى، وقطع منازل القرب والولاية.

ولكن الله تعالى قدّر لهذه الحياة الكريمة نهاية كما قدّر لحياة غيره، ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ** ﴾ [آل عمران: ١٤٣] وأكمل به دينه، وأتم به نعمته، فقال: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ديناً** ﴾ [المائدة: ٣]، وختم به الأنبياء والرسل ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَد مِّن رِّجَالكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّه وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وانقطع اتصال السماء بالأرض لوحى جديد، أو رسالة جديدة، فكان لا بدّ أن يملأ هذا الفراغ الذى يتركه انقطاع النبوات، وانتقال آخر الأنبياء وخاتم الرسل من هذه الدنيا، ويربط الخلق بالحق ربطاً وثيقاً

(١) اقرأ قصة فضالة وما وقع له فى عمرة القضاء، وهو يريد قتل النبى ﷺ فى الطواف، واقرأ ما حكى عمرو بن العاص عن نفسه عند موته فى صحيح مسلم، واقرأ قصة عكرمة بن أبى جهل وقوة إيمانه وحسن بلائه بعد إسلامه، فى كتب السيرة والتاريخ، والأخبار فى ذلك أكثر من أن تستقصي.

مباشراً، ويملأ صدورهم إيماناً، وحكمة وقوة روحية، ويشعل عاطفتهم، ويُلهب جذوة قلوبهم، ويصلون به أعلى درجات الإيمان واليقين، ومنازل القرب والولاية.

وكان ذلك العوض والخليفة هو الكتاب المعجز الخالد، الذى يتدفق بالحياة والقوة، والذى لا تبلى جدته، ولا تنقضى عجائبه، (والصلاة) التى تزخر بالقوة والحيوية كذلك، ولها من الفضل والتأثير فى ربط الصلة بالله والوصول إليه، وقطع منازل القرب والولاية، ما ليس لشيء آخر من الدين، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة فى كل عصر وجيل إلى مكانة فى الإيمان واليقين، والعلم والمعرفة، والربانية والروحانية، والقرب والولاية لا يصل إليها ذكاء الأذكياء، وقياس العقلاء والحكماء، وما زالوا فى عدد يفوت العدَّ والإحصاء، ولا يزالان يفيضان النموّ والحياة، والجدة والنشاط، والروحانية الصافية الدافقة فى نفوس هذه الأمة وأجيالها، تستغنى بهما هذه الأمة، عن نبوة جديدة وبعثة جديدة، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به، فى كل دور من أدوار حياتها، وفى كل عهد من عهود التاريخ، تستمد لنفسها من القرآن والصلاة، رابطة قلبية، وقوة روحية، وتمد إلى العالم المعاصر، يد الدلالة والهداية، ولذلك يقول الله تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** [الحج: ٧٨].

الصلاة ميراث النبوة بروحها وأحكامها متوارثة فى الأمة بظاهرها وباطنها:

والصلاة ميراث النبوة، والتراث النبوى الخالد العظيم، الذى يجب أن تتوارثه، وتتناقله الأمة جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، وطبقة بعد طبقة، يجب أن تتوارثها بأوضاعها وآدابها، وتفاصيلها وأحكامها، وقد فعلت ذلك بفضل التوارث والتعامل، وبفضل جهود المحدثين والفقهاء الذين رووا أخبارها، ودوّنوا أحكامها، وما يُفرض، وما يجب، وما يندب إليه وما يستحب، وما هو سنة وما يخالفها، وما يجوز وما لا يجوز، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وهكذا كان يجب أن تتوارث هذه الأمة روحها وحقيقتها، وخشوعها وإنابتها، وحرارتها ورقتها، وقد كانت صلاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جامعة بين أوضاع وأحكام، وبين روح وحقيقة، وخشوع ورقة، وقد سُئِل عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]. وقد كانت صلاته صلى الله عليه وآله وسلم هي المثل الكامل للإحسان، وقد روى مطرف عن أبيه، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء»[2].

وقد كانت صلاة الخلفاء الراشدين والصحابة، وكثير من التابعين، ومن جاء بعدهم من المخلصين والربانيين، وأهل القلوب الصادقة الخاشعة صورة للصلاة النبوية، ومرآة لها، وقد روت كتب التاريخ، والطبقات والتراجم، الشيء الكثير من طولها وجمالها، وخشوعها ورقتها، فقد جاء فى حديث الهجرة، عن عائشة رضى الله عنها: «وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن»[3]، وقالت لما أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى شدة مرضه، أن يتقدم أبو بكر، فيصلى بالمسلمين، وقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»: «إن أبا بكر رجل رقيق، وفى رواية أسيف، إذا قرأ غلب عليه البكاء»[4]. وقال الحسن البصرى رحمه الله: «كان عمر رضوان الله عليه، يمرُّ بالآية من ورده بالليل فيبكى حتى يسقط، ويبقى فى البيت حتى يعاد للمرض. وعن ابن عمر رضى الله عنه، قال: «غلب على عمر رضوان الله عليه البكاء وهو يصلى بالناس صلاة الصبح فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف»، وعن علقمة بن وقاص قال: «كان عمر يقرأ فى العشاء الآخرة يوسف، وأنا فى مؤخرة الصف حتى إذا ذكر يوسف عليه السلام سمعت نشيجه»[5].

---

(١) حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (٢٧/١) (٥٠)، ومسلم (٣٩/١) (٩) من حديث أبى هريرة- رضي الله عنه- فى حديث سؤل جبريل عليه السلام.

(٢) صحيح. رواه أبو داود وقد تقدم تخريجه.

(٣) الجامع الصحيح للبخارى، الجزء الأول (باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة) (١٤١٧/٣) (٣٦٩٢) وفيه قصة طويلة ذكرتها عائشة رضي الله عنها.

(٤) صحيح: البخارى، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة وقد تقدم قريبا.

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن الجوزى والأثر أخرجه البيهقي فى (الكبرى (٢٥١/٢) (٣١٧٥)، وعبد الرزاق فى مصنفه (١١١/٢) (٢٧٠٣)، وابن أبى شيبة (٢٢٥/٧) (٣٥٥٣٠).

وعن عبد الله بن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا فى آخر الصفوف، يقرأ:((إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله))[1].

واجب قادة الإصلاح ورجال التعليم والتربية والحركات الدينية:

ومن واجبات هذه الأمة وعلمائها ومربيها، بالأخص، أن لا ينقطع هذا الإرث، وأن لا تضيع هذه الثروة المباركة، وأن لا ينطفئ هذا النور مهما تغيرت الأوضاع، وغزت المادية القلوب والنفوس، فإنها خسارة لا تعوّض بشيء، وفراغ لا يملأ بأكبر قسط من الأحكام الفقهية، وأسرار التشريع، وذلاقة اللسان وسيلان القلم، ولا أمل فى حركة إصلاحية، أو محاولة لبعث إسلامى، إلا إذا ألهبت جذوة الإيمان، والحب والحنان، فى نفوس أصحابها ودعاتها، وأعادت إلى الأمة -عن طريق دعوتها وتربيتها وجهادها- ظلال تلك الصلاة الخاشعة الرقيقة، التى امتازت بها القرون، المشهود لها بالخير، وعرفت كيف تقوم أمام ربّها فى الصلاة قبل أن تعرف كيف تقف أمام عدوها، وفى المشكلات والأزمات، وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس، إذ قال: ((لن يصلح آخر هذه الأمة، إلا ما أصلح أولها))، وصدق الله العظيم:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].



(١) تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لابن الجوزى (١/٢٥٢) معلقًا بصيغة الجزم باب (٤١) ((إذا بكى الإمام فى الصلاة)).

الزَّكَاةُ

الزَّكَـاةُ

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]

صلة الرب والعبد وما توجبه من حب وإخلاص وبذل وإيثار:

لاحظ الصلة الغريبة الفريدة التى تقوم بين الربّ والعبد، وهى صلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصلات، فى الأصالة والعمق، والسعة والاحتواء، والشمول والإحاطة(١)، وأقل ما يقال فيها، إنها صلة الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، والرازق والمرزوق، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، إنها صلة بين سيّد كريم وربّ رحيم، وبين إنسان فقير وعبد ذليل، توجب صفات هذا الرب الكريم الكماليّة، وأفعاله البديعة، وربوبيّته الحكيمة الرّحيمة، ورعايته اللطيفة الدقيقة، أن يُخلص له الحبّ ويهيم به القلب، وتبذل فى سبيله المهج والأرواح، فضلاً عن الأموال والأملاك.

مظاهر الربوبيّة والعناية بالإنسان:

وتأمّل فى مظاهر ربوبيته الشاملة، وهدايته الواسعة فى هذا العالم، وعنايته الفائقة بهذا الإنسان، فهو الذى خلع عليه لباس الوجود المتناسب، وهيّأه للانتفاع بخيرات الأرض وطيّباتها، وذخائرها وكنوزها، ووسائلها وطاقاتها، تهيئة حكيمة دقيقة، وألهمه حبّها والبحث عنها والفناء فى سبيلها وطرق استخدامها، والتعاون فى تنظيمها ومبادلتها مع أبناء جنسه.

وقد تجلّت صفة الربوبيّة والهداية فى جميع الأنواع والأجناس، وفى جميع الأصناف والموجودات، ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] وكان للإنسان الذى هو خليفة الله فى الأرض من ذلك النصيب الأوفر، والمركز الرئيسى، ﴿ وَلَقَدْ

(١) سبق له بحث طويل فى موضوع الصلاة.

كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠] فذلّل له مناكب الأرض، ووطأ له أكنافها، وحثّه على استثارة دفائنها، واستخراج خيراتها ومكامنها، ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وسخّر له منابع القوت ومصادر الغذاء، وقوائم الحياة، وهى الحبوب، والماء، والنّار، الوسائل الأصيلة الفطريّة، الأساسيّة الرئيسية، التى تقوم عليها الحياة البدائية فضلاً عن المدنيّة الراقية، ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٣].

الطبيعة البشرية وما لها من أثر فى الحياة والمدنيّة:

ثمّ أودع طبيعته -خلافًا للطبائع الجمادات والحيوانات- حب التجمّل والأناقة والتظرّف والنظافة، والتنوع، والتوسع فى المطاعم والمشارب، والزيادة فى الحرث والنسل الطبيعية التى تكتسب بها الحياة البشرية حرارتها ونشاطها، وحماستها وكفاحها، ويكتسب بها هذا العالم عاطفة التقدّم والرّقى، والتغيّر والطرافة، فأرخى له العنان:

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢١].

وألهمه التعاون وضمانة الحقوق، والحرص على سلامة الطرق وأمن البلاد، وحبّ الأسفار والمغامرات فى سبيل الرزق الكريم، وجلب المنافع المشتركة، فأودع كلّ ذلك الطبيعة البشرية على اختلاف أدوارها وتنوّع أمصارها ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ

رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ١-٤].

الوضع والواقع يقتضيان أن لا يُقرر للإنسان ملك ولا يضاف إليه شيء وأن يكون الملك كله لله:

فكان هذا الوضع الفطرى، وكان هذا الواقع العملى الذى ظهر فيه عجز الإنسان وفقره، وضعفه وتفاهته فى أجلى أشكالها، وظهرت فيه الربوبية الإلهية فى أروع مظاهرها، يقتضى بحكم العقل والمنطق والوجدان السليم، أن لا يُقرّر للإنسان ملك، ولا يتحقق له حقّ، ولا يضاف إليه شيء، إلاّ كما يُضاف إلى طفل صغير، أو رضيع محمول، يتقلب فى حنان أمّه وعطف أبيه، ويحبو ويدرُج فى نعمتهما، ويرتع ويسرح فى ظل جهدهما وكدحهما، بل هو أقل شأناً وأكثر هواناً فى هذا الكون الكبير وبجوار هذا الرب العلى القدير من هذا الطفل الصغير فى بيت أبيه الكبير، ﴿ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، ووجب أن يُضاف كلّ شيء ممّا تملّكه الإنسان، وأضافه إلى نفسه جهلاً من أموال ومكاسب إلى من خلقها ونمّاها، وحرسها وصانها، ومكّن الإنسان منها لغرض محدود، ووقت محدود، وطريق محدود.

الفكرة الأساسية فى النظام الاقتصادى الإسلامى تقرير الملكية الحقيقية لله تعالى:

ولهذه الحقيقة التى تسيطر على الحقائق كلها، وهى الروح التى تسيطر على جميع النظم الدينية الخلقية والاقتصادية، أضاف القرآن هذه الأحوال الإنسانية كلها إلى الله تبارك وتعالى ولم يقرر للإنسان إلا منصب الأمانة والخلافة، فخاطب المسلمين تارة بقوله: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وطوراً بقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧]، وقرر أن الله هو المالك الحقيقى، والوارث الحقيقى، فليس لإنسان يرضخ بجزء يسير من هذا المال منٌّ ولا فضل، وليست له مأثرةٌ يُدلّ بها، ولا مفخرة يتيه بها، فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد: ١٠]. وكان مقتضى هذا الوضع، أن يطلب من الإنسان أن يتخلى عن كل ما يملكه، ولا يُمنح حق التصرف فى ماله فى قليل ولا كثير، وأن يبقى مغلول اليد، مقيد الإرادة، مشلول الحرية.

سر إضافة الأموال والملكية إلى الإنسان وفائدتها:

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك، ولم يجر القرآن -وهو الكتاب السماوى الأخير- على نمط واحد من إضافة هذه الأموال ونتائج الجهود الإنسانية وثمرات كفاحه إلى الله تبارك وتعالى فى كل مناسبة، فلو فعل ذلك لما أثار دهشة واستغراباً، لما قدمناه، ولكنه لو فعل ذلك لأفقد الإنسان ثقته بنفسه، واعتزازه بكرامته، واعتماده على قواه وطاقاته، وحرمه عاطفة الكدح، ونشوة الطموح، ودافع التنافس، ولذة الحياة التى يجدها الإنسان فى نسبة الأشياء إلى نفسه ورؤية نتائج سعيه وجهده، هذه هى اللذة الفطرية التى تراود الأطفال الصغار لنسبة كل ما حواه بيتهم، أو ملكه آباؤهم، إلى أنفسهم، وحرم بذلك الإنسان دافع الحب والإشفاق، والنصح والإخلاص، فى حراسة هذه الأموال والأملاك، وتزكيتها وإنمائها، وإثمارها وإنتاجها، وجرّد الحياة البشرية من أقوى عوامل زحفها وصراعها، وجهادها وكفاحها، وأصبح العالم كلّه مصنعاً كبيراً، يتحرك فيه بنو آدم كآلات صمّاء، لا قلب لهم ولا ضمير، ولا متعة لهم ولا لذة.

فلذلك كانت إضافة القرآن للأموال إلى أصحاب كسبها وإنتاجها، واقتنائها وإحرازها، أكثر من إضافتها إلى خالقها، ورازقها، فقال: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال: ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ [النساء: ٥]، وقال: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى أضيف فيها المال والكسب إلى الإنسان.

وقد وسّع الله فى ذلك، وكرّم الإنسان حتى سمّى ما ينفقه المسلم فى سبيل الله، ويساعد به عباد الله قرضاً، فقال: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً ﴾[المزمل: ٢٠].

كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة فى نفوس المسلمين؟:

وقد كانت هذه الحقيقة الّتى قرّرها القرآن، وهى حقيقة ملك الله المطلق، وأنه هو المالك الحقيقى لكل ما وجد فى هذه الأرض، أو اكتسبه الإنسان وأحرزه، تُسيطر على تفكير المسلمين الأولين، وتتحكم فى حياتهم، فلا يرون أنفسهم إلاّ أمناء مستخلفين فى هذه الأموال: فلا افتيات بالرأى، ولا الحريّة المطلقة فى التصرف فيها، ولا رياء ولا فخر، ولا أشر ولا بطر.

وقد غرس القرآن فكرة (الأمانة والخلافة) وأرسخها فى نفوسهم وعقولهم بطُرق شتى، وأساليب تربويّة حكيمة، وأعلم المسلمين بأن هذه الأموال إذا كانوا اكتسبوها وتملّكوها بكد اليمين وعرق الجبين، وببراعتهم فى طرق الكسب، وحذقهم فى الصناعات وأنواع التجارات، فقد انتقلت إلى الله تبارك وتعالى مرة ثانية بحكم ميثاق الإسلام، والتخلى لله تبارك وتعالى عن جميع الحقوق والدعاوى، وهو الذى يقرره الإنسان ويقطعه على نفسه بدخوله فى الإسلام، ونطقه بالشهادتين، فللّه أن يستردّ وديعته متى شاء، ويطلب سلعته التى اشتراها متى شاء، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، وأنذر من استحوذ عليه حب المال، وآثر نفسه أو راحته وشهواته على الجهاد فى سبيل الله، وأداء حقوق الله، ورأى لنفسه حقاً وحرّية فى التصرف فيه، والضنّ به، والحدب عليه، فقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأنذر المسلمين كذلك بأن الإضراب عن الإنفاق فى سبيل الله بسخاء وعلو همّة،

وبذل النفس والنفيس لله تعالى، وخذلان هذا الدين الذى به بقاؤهم وحياتهم، وانتصارهم، وازدهارهم سعى فى هلاك النفس، ومرادف لما يُسمّونه اليوم (الانتحار)، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

كيف آمن المسلمون الأولون بفكرة الأمانة والخلافة وكيف خضعوا لها؟.

وقد كانت هذه سيرة الصحابة رضى الله تعالى عنهم فيما كانوا يملكون من مال ومتاع، وعقار وملك، وحرث ونسل، وقد وضعوها تحت تصرّف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومصالح الإسلام، قد كانت هذه سيرتهم فى مكة قبل الهجرة، وقد مثّلها خير تمثيل أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، وصهيب الرومى، وأبو سلمة، وغيرهم من كبار المهاجرين وأغنيائهم، وقد كانت هذه سيرتهم وسيرة الأنصار رضى الله تعالى عنهم فى المدينة.

وتجلّت هذه الفكرة والعاطفة بكل وضوح وقوة فيما قاله سعد بن معاذ قبل معركة بدر فقد جاء فى الخبر:

«ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله! كأنك تعرِّض بنا، وكان إنما يعنيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى ديارهم، فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم، فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»[1].

(١) زاد المعاد: (١/١٣١، ١٣٧) وانظر مصنف عبد الرزاق (٥/٣٤٨) (٩٧٢٧).

الحث على إنفاق الفضل فى سبيل الله وقيام المسلمين به فى نشاط وحماس:

ولما رسخت هذه العقيدة فى قلوب المسلمين، وملكتهم هذه الفكرة والنظرة الخاصة إلى المال، واعتباره مال الله الذى استخلفهم فيه، وتغلغلت فى أحشائهم، طلب منهم أن ينفقوا من أموالهم ما فضل وفاض عن حوائجهم (الشرعية الأساسية)، فنزل: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ** ﴾[1] [البقرة: ٢١٩].

وامتثلوه وطبقوه بنشاط وحماس، فقد هان عليهم كل شيء بعد إقرارهم بأن المال مال الله، وأنهم أمناء وأوصياء، حتى بلغوا إلى أن أنفقوا على خصاصة وحاجة، وآثروا غيرهم على أنفسهم وأولادهم، وكان من خبر أبى طلحة الأنصارى ما كان، وسجله قلم التاريخ مثالاً رائعاً للسخاء والإيثار يندر نظيره فى تاريخ المجتمعات البشرية.

فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال النبى ﷺ «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله»، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله! فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول ﷺ لا تدّخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء، فنوّميهم وتعالى فاطفئى السراج، ونطوى بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عزّ وجلّ -أو ضحك- من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر: ٩].

الزكاة بمعنى الإنفاق والصدقات:

وقد جاء ذكر (الزكاة) فى السور المكية، وهى لا تعنى غير الإنفاق والصدقات، فقال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، وقال: ﴿ **وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ** *

---

(١) قال ابن كثير في تفسير «العفو»: ما يفضل عن أهلك، وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس وغير واحد، أنهم قالوا في قوله: «العفو»، يعني الفضل، وقال ابن بطال في تفسيره: أي ما فضل عن الكفاية.

الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]. وقد ذُكرت فى تعاليم الرسول وفضائل الإسلام، أمام بعض ملوك العصر، وقد قال جعفر بن أبي طالب فى مجلس النجاشي: «وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»، وذلك فى العام الخامس بعد البعثة.

الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور:

ولما بلغ المجتمع الإسلامى غايته من رسوخ العقيدة والتربية الخلقية والطاعة والانقياد، والسخاء والإيثار، والتجرّد من الأنانية الفرديّة والجماعية، وقوى الإسلام بأهله وإيثار أتباعه، وتوسّع هذا المجتمع، وتنوّعت فيه الأنماط البشرية والمستويات الخلقية والروحية، ففيه الغني والفقير والمتوسط بينهما، وفيه السخى الأريحى، الذى هوايته فى الإنفاق والإيثار، وفيه الشحيح وفيه المقتصد والمتوسط، وكان ما يشرع فى هذا المجتمع من أحكام، وما يطالب به من أعمال، هى الشريعة الخالدة العامة العالمية التى يمتثلها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، وفى أوائل العصور وأواخرها، وفى بداية المدنية وبساطتها، وفى أوجها وتعقدها، ومع القوة الإيمانية التى تحتمل أكبر مغامرة، وتهوّن أعظم تضحية، وتسيغ أكبر مشكلة، ومع ضعف الإيمان الذى قد يوجد فى أطراف العالم الإسلامى البعيدة، وفى الأجيال المسلمة المتأخرة اقتضت حكمة الله ولطفه بعباده، أن يُشرعَ للزكاة نظاماً مبيَّن الحدود واضح المعالم معيّن النصاب، معلوم المقادير والأعداد، ويكون وسطاً بين الكثير والقليل، لا يستهين به الأغنياء الأسخياء أولو الهمم، ولا يقصر عنه المتوسطون أو دون المتوسطين ممن استوفى شروطها.

وأن لا يوكل ذلك إلى الرأى، ولا إلى همة الأفراد وطموحهم، ولا إلى الانفعالات الوجدانية العاطفية التى تكون فى مد وجزر، وقوة وضعف، ولا إلى تشريع المشرّعين، وحكمة العلماء والحكام، فلا ثقة بها فى كلّ زمان ومكان، ولا يؤمن عليها من اتباع الهوى والأغراض، ففرضت الزكاة، وحدّدت نصبها، ومقاديرها[1].

(١) نرجح أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة، وكان ذلك قبل السنة الخامسة على الأرجح، فقد جاء ذكرها كفريضة، وركن من أركان الإسلام، فى حديث ضمام بن ثعلبة، وفى حديث وفد عبد القيس، (وكان قدومه فى السنة الخامسة)، وفى مخاطبة أبي سفيان مع (هرقل)، وكانت فى أول السابعة، ومما يدل على ذلك ما ثبت عند أحمد، وابن خزيمة (٨١/٤) (٢٣٩٤) والنسائى (٤٩/٥) (٢٥٠٧)،

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى بيان حكمة التعيين والتحديد فى أحكام الزكاة ونظامها، فقال:

«ثم مسّت الحاجة إلى تعيين مقادير الزكاة، إذ لولا التقدير، لفرط المفرط، ولاعتدى المعتدى، ويجب أن تكون غير يسيرة لا يجدون بها بالاً، ولا تنجع من بخلهم، ولا ثقيلة يعسر عليهم أداؤها، وإلى تعيين المدة التى تجبى فيها الزكاة، ويجب أن لا تكون قصيرة يسرع دورانها، فتعسر إقامتها فيها، وأن لا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم، ولا تدر على المحتاجين والحفظة، إلا بعد انتظار شديد، ولا أوفق بالمصلحة من أن يجعل القانون فى الجباية ما اعتاده الناس فى جباية الملوك العادلة من رعاياهم، لأن التكليف بما اعتاده العرب والعجم، صار كالضرورى الذى لا يجدون فى صدورهم حرجاً منه، والمسلم الذى أذهبت الألفة عنه الكلفة أقرب من إجابة القوم وأوفق للرحمة بهم»[1].

فيم تجب الزكاة وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير

وحدد رسول الله ﷺ مقدار الزكاة والأموال التى تجب فيها، ونصاب هذه الأموال، الذى يجب فيه الزكاة وزمن وجوبها[2]، فجعلها فى أربعة أصناف من المال، وهى أكثر الأموال دوراً بين الخلق، أحدها: الزرع والثمار، الثانية: بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم، الثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم، وهما الذهب والفضة، والرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها[3].

قال الإمام ابن القيّم وهو يتكلم فى مصلحة اختيار الأموال التى تجب فيها الزكاة،

= وابن ماجه (١/٥٨٥) (١٨٢٨) والحاكم (١/٥٦٨) (١٤٩١) من حديث قيس بن سعد بن عبادة، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر، قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا و لم ينهنا ونحن نفعله» وإسناده صحيح، وصدقة الفطر تابعة لرمضان وصومه، وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة، والآية الدالة على فرضيته، مدنية بلا خلاف.

(١) حجة الله البالغة: ٢/٣.

(٢) اقرأ الأحاديث الواردة فى كل ذلك فى كتب الصحاح، واقرأ شرحها والبحث فيها، وفهم فقهاء الإسلام لها فى كتاب (نيل الأوطار) للعلامة محمد بن على بن محمد الشوكانى (المتوفى ١٢٥٠هـ).

(٣) ملتقط من زاد المعاد: ١/١٤٥.

وحكمة التفاوت بين نُصبها، وحكمة تعيين الزمن الذى تجب فيه الزكاة، وهو حولان الحول، فى كتابه النفيس (زاد المعاد):

«ثم إنّه أوجبها مرة كل عام، وجعل حول الزروع والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة، يضّر بأرباب الأموال، ووجوبها فى العمر مرة مّما يضّر بالمساكين، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة، ثم إنّه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعى أرباب الأموال فى تحصيلها، وسهولة ذلك ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال، وهو الرّكاز، و لم يعتبر له حولاً، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به، وأوجب نصفه، وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك، وذلك فى الثمار والزروع التى يباشر حرث أرضها، وسقيها، وبذرها، ويتولّى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد، ولا شراء ماء، ولا إثارة بئرٍ ودولاب، وأوجب نصف العشر فيما تولّى العبد سقيه بالكلفة والدوالى والنواضح وغيرها، وأوجب نصف ذلك، وهو ربع العشر[1] فيما كان النماء فيه موقوفاً على عمل متصل من رب المال بالضرب فى الأرض تارة، وبالإدارة تارة، وبالتّربص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار أيضاً، فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة، وظهور النمو فيما يسقى بالسماء والأنهار، أكثر مّما يسقى بالدوالى والنواضح، وظهوره فيما وجد محصلاً مجموعاً كالكنز أكثر وأظهر من الجميع.

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قلّ، جعل للمال الذى يحتمل المواساة نُصباً مقدّرة، المواساة فيها لا تجحف بأرباب الأموال وتقع موقعها من المساكين، فجعل للورِق مائتى درهم، وللذهب عشرين مثقالاً[2]، وللحبوب والثمار خمسة

---

(١) يعنى ٢,٥ بالمائة.

(٢) وكل مثقال كان يعادل فى زمن رسول الله ﷺ ديناراً، وكل دينار كان فى زمنه بعشرة دراهم بالتقويم تعادل عشرين مثقالاً (أو عشرين ديناراً) مائتى درهم، وهكذا تعادل نصاب الذهب والفضة، واعتمد على ذلك فى التشريع بطبيعة الحال، وكان المعيار فى الزكاة فى كل عصر ومصر. ومائتا درهم، تعادل بالتقويم ستة جنيهات إسترلينية، فى هذا العصر، وعشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً)

أوسق[1]، وهى خمسة أحمال من أحمال إبل العرب، وللغنم أربعين شاة، وللبقر ثلاثين، وللإبل خمساً»[2].

حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها:

ويزيد ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى إيضاحاً ويشرح حكمة اختيار مواضع الزكاة وتوقيتها، فيقول:

«والأبواب التى اعتادها طوائف الملوك الصالحين من أهل الأقاليم الصالحة، وهو غير ثقيل عليهم، وقد تلقّتها العقول بالقبول، أربعة:

الأول: أن تؤخذ من حواشى الأموال النامية، فإنها أحوج الأموال إلى الذب عنها، لأن النمو لا يتم إلا بالتردّد خارج البلاد، ولأن إخراج الزكاة أخف عليهم لما يرون من التزايد كل حين فيكون الغُرم بالغُنم، والأموال النامية ثلاثة أصناف: الماشية المتناسلة السائمة، والزروع، والتجارة.

والثاني: أن تؤخذ من أهل الدثور والكنوز، لأنهم أحوج الناس إلى حفظ المال من السرّاق وقطاع الطريق، وعليهم إنفاقات لا يعسر عليهم أن تدخل الزكاة من تضاعيفها.

= تعادل ١٢,٥ ليرة ذهبية عثمانية، أو ١١ جنيهاً بالعملة المصرية.

(١) الوسق ستون صاعاً، وكل صاع ثمانية أرطال. وهذا مذهب مالك، والشافعى، وأحمد، وأكثر العلماء، فيعتبرون النصاب فيما تخرجه الأرض، وهو خمسة أو سق، فليس عندهم فى أقل من ذلك زكاة، وذهب ابن عباس، وزيد بن على، والنخعى، وأبو حنيفة، إلى العمل بالعام، فقالوا: تجب الزكاة فى القليل والكثير ولا يعتبر النصاب، والخلاف دائر على بحث أصولى، فليرجع إلى كتب الاستدلال للمذاهب، وكتب أصول الفقه، وأحكام القرآن.

وقد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى حكمة هذه المقادير التى جعلتها الشريعة نصاباً تجب على من يملكه الزكاة فقال: «إنما قدر من الحب والتمر خمسة أوسق، لأنها تكفى أقل أهل بيت إلى سنة، وذلك لأن أقل البيت، الزوج والزوجة، والثالث خادم، أو ولد بينهما، وما يضاهى ذلك من أقل البيوت، وغالب قوت الإنسان رطل، أو مد من الطعام، فإذا أكل كل واحد من هؤلاء، ذلك المقدار كفاهم لسنة، وبقيت بقية لنوائبهم، أو إدامهم، وإنما قدر من الورق خمسة أوراق (يعنى مائتى درهم)، لأنها مقدار يكفى أقل أهل بيت سنة كاملة، إذا كانت الأسعار موافقة فى أكثر الأقطار، واستقرئ عادات البلاد المعتدلة فى الرخص والغلاء»، (حجة الله البالغة: ٣٢/٢).

(٢) ملتقط من كتاب (زاد المعاد): ٢٤٦/١.

والثالث: أن تؤخذ من الأموال النافعة التي ينالها الناس من غير تعب كدفائن الجاهلية وجواهر العاديين(١)، فإنها بمنزلة المجّان يخفّ عليهم الإنفاق منه.

والرابع: أن تلزم ضرائب على رؤوس الكاسبين فإنهم عامة الناس وأكثرهم، وإذا جبى من كل منهم شيء يسير كان خفيفاً عليهم، عظيم الخطر فى نفسه.

ولما كان دوران التجارات من البلدان النائية، وحصاد الزروع، وجنى الثمرات فى كل سنة، وهى أعظم أنواع الزكاة قُدّر الحول لها، ولأنها تجمع فصولاً مختلفة الطبائع وهي مظنّة النماء، وهى مدة صالحة لمثل هذه التقديرات.

والأسهل والأوفق بالمصلحة أن لا تجعل الزكاة إلا من جنس تلك الأموال، فتؤخذ من كل صرمة من الإبل ناقة، ومن كل قطيع من البقر بقرة، ومن كل ثلة من الغنم شاة مثلاً»(٢).

مصارف الزكاة وقيام نظامها الاجتماعي:

وبيّن الله تبارك وتعالى مصارف الزكاة فى آية من سورة براءة، وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠](٣).

وقد كان نزول سورة براءة بعد فتح مكة، وقد استقرّت دعائم الإسلام، وبدأ الناس

---

(١) يعنى القدماء.

(٢) حجة الله البالغة: ٢/ ٣٠.

(٣) راجع تفسير هذه الكلمات ومعرفة مدلولها وما فيه من أقوال ومذاهب فى (أحكام القرآن) للإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى الجصاص (المتوفى سنة ٣٨٠هـ)، (أحكام القرآن) للقاضى أبى بكر بن العربى المالكى (م سنة ٥٤٣هـ)، وكتب التفسير والفقه للمذاهب الأربعة.

وهذه المصارف المنصوصة فى القرآن باقية دائمة مع بقاء حكم الزكاة إلا المؤلفة قلوبهم، فقال أكثر الأئمة وفقهاء الإسلام: قد سقط سهمهم بانتشار الإسلام وغلبته، واستدلوا على ذلك، بامتناع أبى بكر من إعطائهم، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف. ويعجبنى فى ذلك قول القاضى أبى بكر ابن العربي: «والذى عندى إن قوى الإسلام، زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان يعطيه رسول الله ﷺ فإن الصحيح قد روى فيه: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ» (أحكام القرآن، ص ٣٨٥).

يدخلون فى دين الله أفواجاً، فقام نظام الزكاة الاجتماعي[١] وبعث رسول الله ﷺ السُّعاة والعاملين على الصدقات يتسلّمون هذه الصدقات من أصحابها، وبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحكام تحصيلها وآدابه، وأوصاهم فى ذلك وصايا، تتجلى فيها الحكمة مع الرحمة والمصلحة الاجتماعية بجوار المصلحة الفردية[٢] وقد بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمين فى العام العاشر الهجري[٣]، وأوصاه وصية، أصبحت أساس قانون الزكاة ومنشورها الرسمى، قال له:

«إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترُدّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٤].

مصالح الزكاة الأساسية:

اعتاد كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين خضعوا فى قليل أو كثير للنظم الاقتصادية الحديثة، وأهمية علم الاقتصاد وسيطرته على جميع النظم ومناهج التفكير فى هذا العصر، أن يفيضوا ويسترسلُوا فى مصالح الزكاة الاقتصادية والاجتماعية، وما تعود به على المجتمع الإسلامى من فوائد ومنافع، واعتبروها - وبالأصح يفهم القارئ

---

(١) كان ذلك فى السنة التاسعة للهجرة، قال الإمام أبو جعفر الطبري: «ثم دخلت سنة تسع... وفى هذه السنة فرضت الصدقات. وفرق فيها رسول الله ﷺ عماله على الصدقات (تاريخ الطبرى الجزء الرابع من المجلد الأول، مطبعة بريك ليدن، ص ١٧٢٧). وقد وهم رحمه الله فى قوله: فرضت الصدقات. فقد سبقت فرضيتها بسنين كما قدمنا، وإنما كان فى هذه السنة بعث العمال على الصدقات، وتفريقهم فى الأمصار.

(٢) اقرأ هذه الوصايا، والتوجيهات النبوية، فى دواوين الحديث والسيرة.

(٣) ذكره البخارى فى أواخر المغازى باب (٣٦٠) «بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع».

(٤) صحيح: رواه الجماعة أخرجه البخارى (٢/٥٤٤) (١٤٢٥)، ومسلم (١/٥٠) (١٩)، وأبو داود (٢/١٠٤) (١٥٨٤)، والترمذى (٣/٢١) (٦٢٥)، والنسائى (٥/٢) (٢٤٣٥)، وابن ماجه (١/٥٦٨) (١٧٨٣)، وأحمد (١/٢٣٣) (٢٠٧١) عن ابن عباس رضي الله عنه.

لكتاباقم وبحوثهم أنهم يعتبرونها- جباية مالية من أعدل الجبايات، وأكثرها اتزاناً واعتدالاً فى جميع الجبايات التى عرفها تاريخ الاقتصاد فى العالم، ولذلك يعتبرون أنها أكبر أساس، وأقوى دعامة (للاشتراكية) التى يعتقدون أن الإسلام دعا إليها وتحققت فى أفضل عصوره، وكادوا يغفلون -إلا من عصم الله ووفقه- روح الزكاة التى تسيطر عليها، وهى روح العبادة والتقرب إلى الله وحكْمتها الأساسية الأولى، وهى حكمة تزكية النفس من الشح والحرص، والأثرة وحب المال، وظلم حقوق الفقراء وقسوة النفس وتزكية المال وتنميته، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء، وانعطاف قلوبهم ورقتها، ودعائهم، وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية، ونوَّه بها فى القرآن، ويكاد القرآن يقتصر عليها، فقال مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال مقارناً بين الربا والزكاة: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]. وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم»(١).

وتلى هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع، وهى كفالة المجتمع، الكفالة اللازمة الضرورية، وسد حاجات الفقراء الطبعية البدائية، وتهيئة كل عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التى يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس، والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم.

وقد كان العلماء الذين كانت دراستهم للإسلام والكتاب والسنة، دراسة أصيلة عميقة، ولم يعرفوا إلا مدرسة النبوة التى يتتلمذون عليها، ويتخرجون فيها، والذين أتوا البيوت من أبوابها فى فهم الإسلام وفقه الكتاب والسنة، يراعون الترتيب بين هذه المصالح، وينزلون كل واحدة منها منزلتها التى عيّنها الكتاب والسنة، وفهمها الصحابة رضى الله عنهم وتلقّاها المسلمون جيلاً بعد جيل، وهنا ننقل نماذج من ذلك لبعض كبار علماء الإسلام:

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود (٢/١٢٦) (١٦٦٤)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٦٤٣).

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، وهو يبحث فى مصالح الزكاة الرئيسية، وحكمة التشريع فيها:

((واعلم أن عمدة ما روعى فى الزكاة مصلحتان: مصلحة ترجع إلى تهذيب النفس، وهى أنها أحضرت الشح، والشح أقبح الأخلاق، ضار بها فى المعاد، ومن كان شحيحاً، فإنه إذا مات بقى قلبه متعلقاً بالمال، وعذّب بذلك، ومن تمرّن بالزكاة، وأزال الشح من نفسه، كان ذلك نافعاً له.

وأنفع الأخلاق فى المعاد بعد الإخبات لله تعالى، هو سخاوة النفس، فكما أن الإخبات يعدّ للنفس هيئة التطلع إلى الجبروت، فكذلك السخاوة تعدّ لها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية، وذلك لأن أصل السخاوة قهر الملكية البهيمية، وأن تكون الملكية هى الغالبة، وتكون البهيمية منصبغة، بصبغها، آخذة حكمها، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة إليه، والعفو عمن ظلم، والصبر على الشدائد فى الكريهات، بأن يهوّن عليه ألم الدنيا لإيقانه بالآخرة، فأمر النبى ﷺ بكل ذلك، وضبط أعظمها، وهو بذل المال بحدود، وقرنت بالصلاة والإيمان فى مواضع كثيرة من القرآن، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ **قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ** ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٥].

ومصلحة ترجع إلى المدينة، وهى أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوى الحاجة، وتلك الحوادث تغدو على قوم، وتروح على آخرين، فلو لم تكن السّنّة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعاً، وأيضاً فنظام المدينة يتوقف على مال، يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها، والمدبّرين السائسين لها، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعاً، مشغولين به عن اكتساب كفافهم، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها. والإنفاقات المشتركة، لا تسهل على البعض، أو لا يقدر عليها البعض، فوجب أن تكون جباية الأموال من الرعية سنة.

ولما لم يكن أسهل ولا أوفق بالمصلحة من أن تجعل إحدى المصلحتين مضمومة بالأخرى، أدخل الشرع إحداهما فى الأخرى))[1].

---

(١) حجة الله البالغة: ٢/٢٩-٣٠.

ويقول العلامة بحر العلوم اللكهنوي[١]:

«إن الزكاة ليست غرامة، بل عبادة خالصة لله تعالى كسائر العبادات».

«لا بد فى أداء الزكاة من النية، لأن الزكاة عبادة عظمى، أحد أركان الإسلام كالصلاة، لا يقصد منها إلا الثواب، فلا بد من النية، وإن أدى بلا نية لا يتأدى الزكاة كالصلاة، لأن الصلاة تلغو بلا نية، بخلاف الزكاة من دون النية، فإنها تصير هبة، وينال ثواب الهبة، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً»[٢].

سماتُ الزكاة البارزة:

وللزكاة المشروعة فى الإسلام سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات التى تفرضها الحكومات أو المجتمعات، أو تُسن فى القوانين الوضعية البشرية، وتجعل لها هذه السمات طابعاً خاصاً، وطبيعة خاصة، وتضفى عليها قدساً دينياً، وتجعل لها تأثيراً فى الحياة والأخلاق، وفى الصلة بين العبد وربّه لا يوجد «ولا يمكن أن يُوجد» فى الجبايات وأنواع الضرائب والإتاوات، مهما بلغت من العدل والنزاهة، والخفة والضآلة.

التبشير والإنذار:

فمن أبرز هذه السمات، ومن أعمقها فى التأثير ما يقترن بهذه الفريضة، ويرافقها من روح الإيمان والاحتساب[٣]، وهى الروح التى تتجرد منها الضرائب الرسمية، والجبايات القانونية بطبيعة الحال، بل بالعكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسآمة والسخط، والاستثقال والاستكثار، فإن دافع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله، ولا يرجو عليها أجراً وثواباً، بل يعتقد فى أكثر الأحيان أن مصدرها تشريع أفراد مثله، أو أخسّ منه، وتُنفق فى كثير من الأحيان فى الأهواء والشهوات، وفى المحافظة على السلطات، أو لخدمة أشخاص معدودين، أو أحزاب محدودة، ثم لا يُرافق هذه الأحكام

---

(١) هو العلامة عبد العلى محمد ابن العلامة نظام الدين السهالوى اللكهنوى، كان إماماً جوالاً فى الأصول والمنطق. ومن أشهر مؤلفاته: (فواتح الرحموت، شرح مسلّم الثبوت). توفى سنة ١٢٢٥هـ.

(٢) رسائل الأركان، ص١٦٣.

(٣) سبق شرحها فى موضوع الصلاة، راجع بحث (التطهير وما يورثه من اهتمام).

والتشريعات شيء من الترغيب والترهيب الدينيّين، بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية، أو مناشير ومراسيم جافة، تزيد دافعها كراهة وسخطاً، وتذمراً ومقتاً.

ولهذه الحكمة البالغة التى لا يقدر عليها إلا العلى الحكيم، جاءت الزكاة فى القرآن والحديث، وفى التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل، وما لها من نتائج فى الدنيا والآخرة، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب، والنمو والبركة فى المال، والعقاب الأليم لمن امتنع عنها، ومحق ماله.

فيقول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]، ويقول: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ويقول: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١١]، ويقول: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٨]، ويقول: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]، والآيات فى ذلك كثيرة.

وكذلك تبع هذا التبشير الذى هو حاجة الإنسانية ومقتضى الطبيعة البشرية إنذار وتخويف على اكتناز الأموال، وحيازتها من الفقراء وذوى الحاجات، والامتناع من أداء حق الله وحق الفقراء فى هذه الأموال التى تفيض عن الحاجة وتتكدس عند أصحابها، تسلية بها، وتطاولاً وشحاً وحرصاً، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وعلى هذا النسق الحكيم جرى لسان النبوة الأخيرة، ففاض الحديث النبوى

بشارات ووعود كريمة على أداء الزكاة، وآثارها الطيبة فى المال والنفس، وفى الدنيا والآخرة.

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ، قال: «ما تصدق أحد بصدقة من طيِّب –ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب– إلاَّ أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فُلُوَّه أو فصيلة»(١). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فى فلاة من الأرض، فسمع صوتاً فى سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرَّة، فإذا شرجة من تلك الشراج، وقد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم فى حديقة يحوِّل الماء بمسحاته، فقال: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان! للاسم الذى سمع فى السحابة، فقال: يا عبد الله، لِمَ سألتنى عن اسمي؟ قال: سمعت صوتاً فى السحاب الذى هذا ماؤه، يقول: اسقِ حديقة فلان، باسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثه، وأَرد فيه ثلثه»(٢). وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نقص مال من صدقة، أو قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه الله»(٣). وعنه رفعه قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، يقول أحدهما: «اللَّهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللَّهم أعط ممسكاً تلفاً»(٤)، ومنها ما روت عائشة أُم المؤمنين، قالت: «إنهم ذبحوا شاة، فقال النبى ﷺ: ما بقى منها؟ قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: بقى كلها، إلا كتفها»(٥).

وكذلك أنذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم مانعى الزكاة، ومن لا يؤدى حقَّ

---

(١) صحيح: للستة إلا أبا داود أخرجه البخارى (٢/٥١١) (١٣٤٤)، ومسلم (٢/٧٠٢) (١٠١٤)، والترمذى (٣/٤٩) (٦٦١)، والنسائى (٥/٥٧) (٢٥٢٥)، وابن ماجه (١/٥٩٠) (١٨٤٢).

(٢) صحيح: لمسلم أخرجه (٤/٢٢٨٨) (٢٩٨٤).

(٣) صحيح: لمسلم (٤/٢٠٠١) (٢٥٨٨) والترمذى (٤/٣٧٦) (٢٠٢٩) والموطأ (٢/١٠٠٠) (١٨١٧) من حديث أبى هريرة ﷺ.

(٤) صحيح: للشيخين (٢/٥٢٢) (١٣٧٤)، ومسلم (٢/٧٠٠) (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ﷺ

(٥) صحيح: للترمذى (٤/٦٤٤) (٢٤٧٠)، وأحمد (٦/٥٠) (٢٤٢٨٦) وصححه الأرناؤوط.

الله والفقراء فى ماله، بالعقاب الشديد فى الآخرة، وبالنتيجة الوخيمة فى الدنيا، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له ماله يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه، يعنى شدقيه، ثم يقول: أنا مالكُ، أنا مالكُ، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٠][1]. وعنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اتُخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعقَّ أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات فى المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرم الرجل مخافة شرّه، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها، فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء، وزلزلة، وخسفاً، ومسخاً، وقذفاً، وآيات تتابع كنظام قُطِع سِلكه فتتابع»[2].

وقد كانت نتيجة هذه الفضائل، وما جاء فى القرآن والحديث فى الترغيب والترهيب، أن المسلمين كانوا رقباء أنفسهم، وكانوا سعاة بيت المال المتطوّعين، ووكلاء فقراء المسلمين، فى أموالهم، وحرثهم، ونسلهم، فكانوا يبحثون عن المصارف، ومستحقى الزكاة بحثاً أميناً دقيقاً، ويتحرّون مواضعها، ويحرصون على أداء ما يجب عليهم من حقّ الله، فلا يطيب لهم عيش، ولا يهنأ لهم طعام حتى يتخلّوا عن ذلك، ومن تتبَّع حياة الصحابة رضى الله عنهم، ودرس سيرهم وسيرة التابعين لهم بإحسان، رأى مواقفهم فى ذلك، وعر ، ما بلغ الإيمانُ وأخبار الترغيب والترهيب من نفوسهم، حتى أصبحت بذلك الزكاة كالصلاة، التى يحرص على أدائها المسلم، ويحافظ عليها بدقّة، ولا يقرُّ له قرار حتى يقوم بها.

وقد فطن لأهميَّة هذه الفضائل، وما لها من فضل فى إثارة الشعور الدينى، علماء الإسلام، فحرصوا على إيراد هذه الفضائل والترغيب والترهيب فى كتبهم، وأشادوا بها فى مواعظهم وخطبهم، وكان لها التأثير المطلوب فى المجتمع الإسلامى، فلولا هى لتعطّل

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢/٥٠٨) (١٣٣٨).

(٢) ضعيف: رواه الترمذى (٤/٤٩٥) (٢٢١١)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٨٧).

أداء الزكاة، ولهجر المسلمون القيام بها بأنفسهم، بعد ما تركت الحكومات الإسلامية المطالبة بها، والإشراف عليها.

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى الإشارة إلى أهميَّة هذه الفضائل ومكانتها فى التشريع الإسلامى فقال:

«ثم مسَّت الحاجة إلى بيان فضائل الإنفاق والترغيب فيه، ليكون برغبة وسخاوة نفس، وهى روح الزكاة، وبها قوام المصلحة الراجعة إلى تهذيب النفس، وإلى بيان مساوئ الإمساك والتزهيد فيه، إذ الشح هو مبدأ تضرر مانع الزكاة، وذلك إما فى الدنيا، وهو قول الملك: «اللهم أعط منفقاً خلفاً»، والآخر: «اللهمَّ أعط ممسكاً تلفاً»، قوله ﷺ: «اتقوا الشحّ، فإن الشحّ أهلك من قبلكم..» الحديث[(١)]، وقوله ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب»[(٢)]، وقوله ﷺ: «إن الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار»[(٣)]، وقوله ﷺ: «فإن الله يتقبَّلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها..»[(٤)] الحديث[(٥)].

تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم:

والسمة الثانية البارزة التى تميّز الزكاة عن سائر الجبايات والضرائب، التى كانت تُفرض فى زمن الملوك والسلاطين، وفى عهد الحكومات الشخصيَّة، أو فى عصرنا الحاضر فى الجمهوريات وحكومات الشُّعوب، وتجعلها تختلف عنها اختلافاً واضحاً فى البداية والنهاية، وفى النتائج والآثار، هى وضعها الشرعى الذى قرَّره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلفظه المعجز الحكيم، وتعبيره النبوى الدقيق الذى يُعدّ من جوامع الكلِم فقال: «تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم»، وذلك وضع الزكاة الأصيل الشرعى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٩٦/٤) (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذى (٥٢/٣) (٦٦٤) من حديث أنس-ﷺ- وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٤٨٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى (١١/٥) (٢٦١٦)، وابن ماجه (١٣١٤/٢) (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل-ﷺ- وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٤) صحيح: تقدم تخريجه قريباً.

(٥) حجة الله البالغة: ٣٠/٢-٣١.

الذى كانت عليه، ويجب أن تكون عليه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهى تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها، ويملكون النصاب المعيَّن المنصوص، وتصرف فى مصارف عيَّنها الله تعالى فى القرآن، ولم يكلها إلى رأى مشترع أو مقنِّن، أو حاكم أو عالم، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية، وتفضِّل الشريعة، وترجِّح الأحاديث النبويَّة أن تصرف هذه الصدقات على فقراء البلد الذى تجبى فيه.

وكذلك كان نظام الزكاة حتى فى الحكومات التى لم تكن دقيقة كلّ الدقة، ولا أمينة كلّ الأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية، وتحقيق المُثل الإسلامية العليا فى الحكم والسياسة. فلم يُحرم الفقراء والمساكين حقّهم فى ظلّ هذه الحكومات، ولم تتعطَّل حدود الله كل التعطّل[1] فى هذه الحكومات، التى يبالغ كثير من المؤرخين المغرضين، والباحثين المستشرقين فى ذمها، وانحرافها عن تعاليم الإسلام، بل ثورتها عليها، كما يقولون.

وبالعكس من ذلك، الجبايات والضرائب والمكوس، التى تفرضها الحكومات اليوم، فهى صورة مقلوبة معكوسة للزكاة، فهذه الضرائب -العادلة منها والمجحفة، والصغيرة منها والضخمة- تؤخذ من الفقراء وأوساط النَّاس، وتردّ على الرؤساء والأغنياء والأقوياء، إنَّها تجتمع بعرق جبين الفلاّحين، والعَمَلة والصنَّاعين، والتجّار الذين يشتغلون ليلَ نهارَ فى متاجرهم ودكاكينهم، وتُصرف هذه الأموال بسخاء بل بقسوةٍ نادرة، ووقاحة زائدة فى استقبال رؤساء الجمهوريات الزّائرين للبلاد، وفى ولائمهم التى تشبه ولائم «ألف ليلة وليلة» الخياليّة الأسطوريّة وفى المهرجانات التى يُحتفل بها بين حين وحين، وفى مآدب السفارات فى البلاد الأجنبية التى تجرى فيها الخمر جرى الأنهار، وفى دعايات الحكومة التى تستنفدُ موارد الشعب وتمتصُّ دماءه، وتحول بين رجل الشعب وقوته، وفى جُعالات الصحفيين الأجانب، ووكالات الأنباء، ورواتب المذيعين البارعين

(١) كتاب الخراج لقاضى القضاة، الإمام أبى يوسف ومقدمته بصفة خاصة برهان ساطع على ما كان من اهتمام فى أوج الدولة العباسية بأحكام الخراج والزكاة والصدقات، فإنه كتب هذا الكتاب العظيم باقتراح من أمير المؤمنين (هارون الرشيد).

الذين حذقوا فن تلفيق الأخبار، واتّهام الأبرياء، وتشريح الأحياء من المنافسين والأعداء وتكاليف الصحف التى تُعتبر أهمّ وأنفع من أقوى الجيوش، وأحدث الأسلحة، فما من حكومة شعبيّة ديمقراطيّة، ولا من حكومة شيوعيّة أو اشتراكية، إلاّ وهى تمتصّ دم الشعب كالإسفنج، وتصبّه فى بحر الدعاية والرشاء السياسى، والتلبيس الصحفى، ومحاكمة المعارضين، من المجرمين وغير المجرمين، فلا أدقّ تصويراً ولا أصدق تعبيراً فى وصف هذه الضرائب، التى تقوم عليها الحكومات اليوم، من قولنا إنّها «تؤخذ من فقرائهم وتردُّ على أغنيائهم»، لذا كانت الزكاة الإسلاميّة التى فرضها الله على عباده الموسرين لطفاً ورحمة بالأمة، ونتيجة لنعمة النبوّة التى لا نعمة فوقها، ضريبة إذا كان لابد من إطلاق هذه الكلمة أقل الضرائب مقداراً وأخفّها مؤنة، وأعظمها يُمناً وبركة، وأكثرها فائدة، لأنّها «تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم».

روح التقوى والتواضع والإخلاص:

والسمة الثالثة المميزة للزكاة، هى روح الإخلاص، والتواضع والامتنان (لا المنّ) والإكرام الذى يجب أن يقترن به أداءُ الزكاة، ويتّصف به صاحبها، وهى الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة، والروح الدينيّة التى حثّ عليها القرآن وأشاد بها، ووصف كرام القائمين بهذه الفريضة بالتلبُّس بها، فتارة نهى المتصدقين وأصحاب الخير والبرّ، عن أن يكدّر أعمالهم، ويُقلل من قيمتها المنّ والأذى، فقال فى الأسلوب القرآنى المعجز:

﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤].

وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذى يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبُّسهم بها، فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**

أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥][1]، وتارة مدح القائمين بهذه المبرّات وأعمال المواساة بالإخلاص التام، والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية، فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ [الإنسان: ٨-١٠].

وكذلك حثّ على أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيِّب الكريم الذى ترغب فيه النفس، ويكرم به الرجل لا من المرذول الرديء الذى يُزهد فيه ويُستهان بقيمته، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وفى الحديث: «أن عائشة أرادت أن تتصدَّق بلحم منتن، فقال لها النبى ﷺ: أتتصدقين بما لا تأكلين؟!»[2].

وبالعكس من ذلك الجبايات التى تجبيها الحكومات -عدلاً أو ظلماً- تتجرد من هذا الروح الخلقى والتعبدى، وعن تواضع النفس، والخوف على العمل من الرياء وعدم الإخلاص، وتحرِّى المال الطاهر الطيِّب الأثير الكريم، ففى غالب الأحيان تقترن هذه الجبايات بروح المقت والضجر والاحتيال القانونى، وتعمُّد المال الذى جاء من طرق غير شرعية، وتلك طبيعة الأحكام والقوانين العلمانية الزمنية، التى لا تسندها عقيدة، ولا فكرة دينية، أو قدسى روحي.

---

(١) قال العلامة أبو حيان الأندلسى فى (البحر المحيط): «والركوع هنا ظاهره الخضوع لا الهيئة التى فى الصلاة»، ٥١٤/٢.

(٢) ضعيف: رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط (٢٣١/٢) (١٨٣٢) من طريق خالد بن يزيد القسرى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة- رضى الله عنها -، وقال الطبرانى: لم يرو هذا الحديث عن هشام إلا خالد.اهـــ وخالد قال فى الضعفاء الكبير: لا يتابع على حديثه.

الفرق بين الزكاة والربا:

إن الزكاة والربا يتناقضان «على خط مستقيم» فهما من الأضداد المعنوية، والمتناقضات الخلقية، التي تفترق من بدايتها، ولا تلتقى إلى النهاية، فدوافع الواحد منهما تناقض دوافع الآخر، وكذلك الأهداف والغايات، وكذلك الآثار فى النفس، وفى الفرد والجماعة، وفى المجتمع الإنسانى بصفة عامة.

فروح الزكاة خشية الله وطاعته، وابتغاء رضوانه، والمواساة والعطف على الفقراء والرثاء لأحوالهم ورقة القلب، والإخلاص والتجرد عن الأغراض، حين كان روح الربا معصية الله، ومبارزته بالحرب، وقسوة القلب، والشح المفرط، والنهامة المسرفة للمال، وتضخُّمه وتناسله[1] من كل طريق، وانتهاز فرصة حاجة الفقير الملحَّة، واستغلال فقره وضعفه.

وحين كانت نتيجة الزكاة، وأثرها النفسى زيادة الإيمان، وانشراح القلب، وطيب النفس والرسوخ فى الكرم والنّبالة، والسخاء والسماحة، كانت نتيجة الربا انقباض النفس، وقسوة القلب، وبلادة الروح وشراسة الخلق، والضراوة باللحم الإنسانى وماء الوجه، وديباجة الحياة الإنسانية، وانتهاك كرامتها، والتمتع والالتذاذ بمواضع الضعف والعجز فى المجتمع والحياة.

وحين كانت نتيجة الزكاة فشوّ روح المواساة والكرم فى المجتمع، وانتشار الغنى فى أعضائه، والبركة فى الأموال، والألفة فى القلوب، والتحابب فى النفوس، والثقة بين الأفراد، كانت نتيجة الربا تكدس مال المجتمع، وحصيلة جهود أعضائه فى مكان واحد، أو فى فرد واحد، أو فى أفراد فى أقل عدد ممكن، فكان المرابى فى هذا المجتمع، هو الحوض الصغير الذى تنتهى إليه جميع السواقى فى هذا البلد، ويبقى من غير ماء، أو كجبل المغناطيس الذى جاءت قصته فى رحلات السندباد البحرى فى (ألف ليلة وليلة)، الجبل الذى يقال إن سفينة رماها الطوفان إليه، فجعل الربّان يبكى وينوح، فسئل عن السبب،

(١) ذلك لأن مال المرابى يلد المال ويبيض ويفرخ من غير مقابل من جهد أو تجارة، حتى يكون أضعافاً مضاعفة.

فقال: ابتلانا الله بجبل المغناطيس الواقع فى هذا البحر، وإنه سيجر جميع المسامير الحديدية، فتتحطم السفينة وتتناثر ألواحها وأجزائها، فيلقمها البحر. وكذلك كان، فالمرابى، أو جماعة المرابين فى بلد يملكون ذلك المغناطيس والمال الذى يجتذبون به جميع المسامير والروابط التى تربط أجزاء الحياة وقوائمها، بعضها ببعض، فتتناثر هذه الأجزاء، وتتفكك هذه العرى والروابط، وينزف جسم المجتمع دمه القانى الأصيل، ويُصاب بالسل الخُلقى والاقتصادى، فإذا عاش، عاش مسلولاً مشلولاً، وإذا مات، مات حزيناً سليباً.

وكذلك نتيجة الربا: التباغض بين الأفراد، وزوال الثقة المتبادلة فى المجتمع، وفشو روح السخط والتشاؤم والشماتة بين المتعاملين بالربا، وبين الفقراء والأغنياء، ووجود طبقتين متميزتين تمام التميز، كانت إحداهما من جنس البشر، والأخرى من الحيوانات والدواجن، وهما طبقة الأثرياء ثراء فاحشاً، وطبقة الفقراء فقراً مدقعاً.

لذلك يذمُّ القرآن الربا ذماً شديداً، ويشنِّع عليه ويقبِّح تصويره، بمقدار ما يمدح الزكاة ويحث عليها، بل قد يكون تشنيعه على الربا، وذمّه له أقوى وأعنف من مدحه للزكاة والصدقات، وذلك أسلوب القرآن الحكيم فى العقائد المنحرفة، والأخلاق الذميمة، والأعمال القبيحة. فكانت صيغة لذمِّ الربا، وعبارته فيه من أشد أساليب الذم والإنكار وأفظعها، الأسلوب الذى تقشعر له الأبدان، وتنخلع منه القلوب، وهو قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]. وصوّر آكل الربا تصويراً دقيقاً يثير المقت والكراهة فى نفس القارئ المؤمن، فيقول: ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقد قارن القرآن بين الربا والصدقات، وآثارهما ونتائجهما، فى أكثر من موضع، فقال فى إيجاز، هو الإعجاز، وفى لفظ يحتاج تفسيره إلى مجلّد ضخم، وإلى استعراض تاريخ علم الاقتصاد، وما آل إليه أمر البلاد والمجتمعات التى عاملت بالربا فقال:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم -وكان خلقه القرآن- فمدح الزكاة والصدقات، وذكر آثارها ونتائجها فى المال وفى جماعة المسلمين، وقد مرّت الأحاديث التى وردت فى البركة فى المال الذى يتصدق منه، وإعانة العبد المتصدق من الله، وبالعكس من ذلك، أنذر على منع الزكاة بالعقوبة العاجلة فى الدنيا، فقد روى بريدة عنه قال: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»(١).

وهكذا أنذر على الربا والمعاملة به بالعقوبات فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة فقال: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسّنَة، ما من قوم يظهر فيهم الرّشا، إلا أخذوا بالرعب»(٢)، وقال: «لعن الله آكل الربا، وموكله وكاتبه، ومانع الصدقة»(٣)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا»(٤)، وقال: «إذا أراد الله بقرية هلاكاً أظهر فيهم الربا»(٥).

ومن اطّلع على تاريخ المجتمع الإسلامى، ودرسه من الناحية الخلقيّة، ومن ناحية تطبيقيه للأحكام الشرعيَّة، والأوامر الإلهية، وما جرّ ذلك عليه من يمن وبركة، وأمن وسلامة، وسعادة ورخاء. وإخلاله بالشريعة، وتعطيله للحدود والفرائض؛ وما جرَّ ذلك

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٥/٢٦) (٤٥٧٧) وفى إسناده سليمان بن موسى أبو داود الكوفى، قال ابن حجر فى التقريب: فيه لين.

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/٢٠٥) (١٧٨٥٦) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٢١١) من حديث عمرو بن العاص ﷺ رواه الحاكم فى المستدرك، والنسائى فى السنن.

(٣) ضعيف: رواه الحاكم فى المستدرك، والنسائى فى السنن (٨/١٤٧) (٥١٠٣) من حديث على ﷺ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٦٨٣).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٢/٣٥٣) (٨٦٢٥) وابن ماجه (٢/٧٦٣) (٢٢٧٣) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٣٣).

(٥) أخرجه الفريابى عن أبى هريرة -ﷺ- بلفظ...-الزنان بدل «الربا» وقال الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٣٩): ضعيف كنز العمال مروياً عن أبى هريرة ﷺ ٢/٢١٣.

عليه من بلاء وشقاء، ومن ضيق وضنك، صدَّق هذه الأخبار النبويَّة الصادقة، وهذه الأحاديث الواردة، وصدق الله العظيم: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤].

الإصلاحات التى قام بها الإسلام فى تشريع الزكاة:

قام الإسلام بدوره الإصلاحى فى قانون الزكاة وأحكامها، كما قام بدوره الإصلاحى فى سائر الأركان، كالصلاة، والصيام، والحج، وجاءت شريعة الزكاة وأحكامها كافلة بجميع المصالح الفرديَّة والاجتماعيَّة، مبرَّأة من كل تحريف وفساد أدخلتهما الأمم السابقة، وتلوَّثت بهما الأديان المحرَّفة.

الصدقات فى الديانات الأخرى:

إن الذى اعتاد المنهج العلمى التشريعى، الذى يشتمل على حدود وقوانين وأحكام فقهيَّة، وتفاصيل قانونية فى الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنّة وكتب فقهيَّة، يفاجأ بحيرة، وشعور بالإخفاق، إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيَّن المحدود، واضح المعالم، معلوم الحدود، لفريضة الزكاة، أو الصدقات فى أسفار الديانة الهندكية وفى كتب العهد القديم أو العهد الجديد، أو فى تلمود، ويكتشف أنَّها مقتصرة على مواد مبعثرة، وأحكام هى أشبه بالتوجيهات الخُلقيَّة أو الروحيَّة، أو بوصايا عامة منها بأحكام فقهيَّة، أو تفاصيل قانونية، فلا يطلع بعد البحث الدقيق على مباحث أساسيّة تعطى لهذه الفريضة صورة فقهيَّة قانونية.

فمثلاً، إذا حاول أن يعرف على من تجب الزكاة وفيمَ تجب؟ وما هو نصابها؟ وما هو القدر الواجب، وما هى مصارفها بالضبط، أو من يستحقها وتدفع إليه؟-أسئلة تكفَّلت كتب السنّة والفقه فى الإسلام بالإجابة عنها، وتكونت فى تفصيلها هذه المكتبة الفقهيَّة الهائلة فى الإسلام- لم يجد جواباً شافياً، ولا يرجع الباحث فى المقال الخاص

بالزكاة أو الصدقات (charity) فى دائرة معارف الديانات والإخلاق بطائل كبير فى هذا الموضوع رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة، وتتبعهم للمراجع القديمة تتبُّعاً دقيقاً.

ويواجه الباحث المسلم هذا الوضع الغريب المختلف عن الوضع الإسلامى الفقهى فى كل باب من أبواب الفقه فى كل ديانة قديمة تقريباً، فتصعب الدراسة المقارنة للإسلام والديانات القديمة فى العبادات والمعاملات، وأبواب الفقه والأحكام.

الصدقات فى الديانة الهندوكية:

نقدم أولاً ملخص المقال الذى كتبه الأستاذ (A.S.GEDEN) فى (دائرة معارف الأخلاق والديانات) حول فكرة الصدقات فى الديانة الهندوكية، وأنواعها وطرقها ووضعها فى مختلف أدوار التاريخ، إنها محاولة دراسية موضوعية إلى حد كبير، اكتفى فيها صاحب المقال بعرض المبادئ والنظريات فحسب، ولم يتعرض للنقد والمقارنة والاستنتاج، إنه يقول:

«الصدقة واجب دينى عند الهنادك، وهى تختلف عن الصدقات عند الغربيين فى المبدأ والتطبيق لعدة اعتبارات وجيهة، إن الصدقة بدافع البر والمؤاساة والرفق والعطف، لا توجد فى الديانة الهندوكية، ولكن مع ذلك إن تقاليد الأريحية والسخاء، واشتراكية العقارات والأموال، وسد حاجات الفقراء والمساكين عامة فى هذه البلاد لا يدانيها أى بلد آخر فى هذا المضمار، وذلك طبيعى، فإن الجماعات التى تجول فى طول البلاد وعرضها عالة على المتصدقين لا يمكنها أن تستمر فى عملها الدائب، إلا إذا كانت على ثقة بأنها ستنال نصيبها من الرزق، وذلك لا يتيسر طبعاً إلا فى مكان عمّت فيه هذه الفكرة، ونالت رواجاً وتطبيقاً فى المجتمع، لقد قال (منّو): إن السخاء والعطاء واجب على الجميع فى هذا العهد، ولكنهم حصروا الذين ينالون الصدقات والإعانات فى طبقة خاصة هى طبقة البراهمة، وبعض طوائف النسَّاك المعروفة الأخرى، فهم وحدهم يستحقون المنح والعطاء والصدقة (DAKSHINA) دون طوائف المجتمع الأخرى، أما جزاء هذه الصدقة وثوابها فهو على مقدارها وكميتها.

وهكذا حملت الصدقات فى الهند هدفاً دينياً، وهو الجزاء الحسن فى الحياة الثانية[1] والحصول على المنافع الذاتية، إن التعليمات الدينية للهنادك، وكتبهم الدينية لا تعنى كثيراً بالسخاء المخلص الذى يتجرَّد عن كل غرض وفائدة، ولكن أكثر الهنادك تجاوزوا عن دياناهم فى هذا المجال.

أما الفكرة الغربية للصدقة والبر، فإنها لا توجد هنا إلا فى بعض الطوائف من النسّاك الذين يبذلون بعض الوقت فى إغاثة الملهوفين وإسداء الخير، ولا ريب أن هذه الأعمال لا تخلو من تأثير تعاليم بوذا الرقيقة الأريحية، إن سدنة المعابد الكبار يقيمون مآدب غنية فى الأعياد الدينية الخاصة للزائرين، والضيوف، غير مبالين بالنفقات الباهظة، ولكن الفكرة الأساسية فى كل هذه الأمور والتصرفات هندية، وليست غربية أو مسيحية، الحق أنّ الكهنة والنسّاك لا بد أن يعاهدوا على السخاء والعطاء، ويجب عليهم أن يتصدّقوا بكتبهم إذا لم يجدوا شيئاً آخر، ولكن الأمر بالعكس عملياً، فإنهم يأخذون فى معظم الأحوال ولا يعطون، أما فى الجماهير وغير البراهمة، فإنهم يملؤون هذا الفراغ بتقاليد الأسر المشتركة، حيث تلزم فيها الصدقات فى عدة مناسبات، وتكون الجماعة مسؤولة عن الفرد الجائع الملهوف.

وكانت فكرة الصدقات تحتلّ مكانة محترمة ملحوظة فى عقول الشعراء فى زمن الأدعية المقدسة (لويدا)، فيتغنى الشعراء بأجر المتصدّق وعلو منزلته، ويلهجون بذلك، وتحتل الصدقات المكانة الأولى فى الحقوق والواجبات التى تعود على أصحاب الأسر، فى الأدب الويدى، وفى صحف الأزمنة الأخرى، وكتبها الدينية، ودققّت فى تحديد الطبقات التى تستحق هذه الصدقات، وإن كانت الآراء قد اختلفت فى هذا التحديد والوصف، إنّ (منّو) وضع فى هذا الباب أُسساً ومبادئ وأحكاماً واضحة تأثرت بها التقاليد الهندوكية (فى نطاق الصدقات) تأثراً بالغاً.

وعلاوة على تلك النواحى التى تأثرت فيها التقاليد الهندوكية بالتقاليد الغربية، فإنها

---

(١) لا ينبغى أن ينسى القارئ أن الديانة الهندوكية تدين بالتناسخ والانتقال المستمر من حياة إلى حياة، بحسب الأعمال والأخلاق فى الحياة السابقة، وقد يكون ذلك بالظهور فى صور حيوانات مختلفة بحسب تلك الأعمال والأخلاق.

اعتبرت هذه الصدقات (DHARMASTHAM) يعنى وسائل الأجر والثواب، وقد خصَّ (SKUNDPURNA) باباً كاملاً لمبادئ الصدقة، كما خصَّ (HEMADRI) النصف الأخير من كتابه لهذه القضية وحدها.

وهكذا عاش عامة النسّاك الهندوكيين عالة على الصدقات، إنَّ أمثال هذه الجماعات تحيا حياة بؤس وضيق وجهاد فى الغرب، ولكن بالعكس إن النسّاك الهنديين لا يكسبون عيشهم بكدّ اليمين وعرق الجبين، ولا يقدرون على ذلك، إن نظام التسوّل الواسع النطاق الذى وصفناه، توارثته الأجيال فى الهند منذ زمن عريق فى القدم، ولا شك فى أن عبء هذا الجيش من المتجولين والمتسولين كان ثقيلاً على الطبقات الكادحة الفقيرة فى المجتمع فى جميع الأحوال.

إنّ الديانة البوذية ورثت فكرة الصدقة من البرهمية، إنها طوَّرت فكرة الصدقة للّذين يهبون حياتهم للدّين، ووسعت أُسسها ومبادئها، إنَّ (SAK YAMUNI) (يعنى بوذا) نفسه كان فى (حياته الأولى) DAM ASURA (يعنى بطل الجود) والسخاء، ولذلك لم تكن هذه التقاليد والعادات غريبة على الكيان الخلقى والاجتماعى فى الديانة البوذية، أما الديانة الجينيّة فإنها لم تعترف بهذا الحق المبالغ فيه للبراهمة، ولكنها ألقت مسؤولية كل فرد من النسّاك على الشعب، إنّ أى واحدة منهما (أعنى الجينية والبوذية) لم تُشرّع مبدأً جديداً، بل إنهما اعترفتا بتقليد الصدقة والبر للذين يعلّمون مبادئ الدين، وتمسكتا به عبر القرون.

وكانت هذه العطايا والمنح تنقسم إلى نوعين: الأول وقف العقارات (الأبنية والبيوت) وغلاّت القرى، أو دفع العُشر من دخل الفرد فى الصدقة، وكان البراهمة -علاوة على ذلك- ينالون الشيء الكثير من الصدقات فى الأعياد والمهرجانات الدينية والتقاليد الاجتماعية نقوداً وطعاماً، ويدخل فى ذلك ما يأخذه المتسوّلون المتجولون من متاع وأثاث من القرويين الجهلاء بسبب عقائدهم الخرافية التى يدينون بها، وبما كان يساورهم من خوف ووجل، إذا منعوا هذه الصدقات، وردّوا هؤلاء المتسوّلين خائبين محرومين.

وكان عدد الصدقات التى كانت تعتبر أفضل الصدقات (MHADAN) يتراوح بين

عشرة وستة عشر نوعاً، أهمها الذهب وتليه الأبنية وغلاّت القرى، ونحو ذلك، وكان أهم نوع من صدقة الذهب الذى يعلوها قيمة وأجراً ما يسمى بـ: (TULADAN) أو (TULAPURSA)، كان المعطى يزن نفسه بالذهب، ثم يقسم ذلك الذهب فى البراهمة الموجودين، ويقال إن أميراً هندوكياً فى (قنوج) تصدق مئة مرة بهذه الصفة، وذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقدم هذا النموذج وزير فى ولاية صغيرة فى (بهار) تسمى (MITAHALA) فى القرن الرابع ـسر، وقد ذكر الرحالة الصينى المعروف بـ(هيفن سوانج HIVEN TSANG) أخباراً عجيبة مدهشة لملك قنوج (SILADITYA)، فقد كان يتصدق بكل ما كان يملكه من أسباب ومتاع بعد كل خمس سنوات، وكانوا يستبدلون الفضة بالذهب أحياناً وكانت البقرة المصنوعة بالذهب، أو زهرة (كنول) ظاهرة هامة فى التقليد الذى يسمّى بـ (الزنّار). وكانت هذه البقرة تحطم عند نهاية مهرجان خاص بهذا التقليد تكسر وتوزّع فى البراهمة، أو توقف على معبد، وكان الأمراء والأغنياء يهبون أوانى الذهب والفضة المستعملة لضيوفهم، أما الوقف على زوايا البراهمة من محصول الأرض ونحوه، فإنه من التقاليد القديمة فى الهند، يجب ذكرها فى حفريات (أشوكا). ويروى أن هذا الملك منع قسراً عن هذا الإسراف فى الصدقات والعطايا فى الأيام الأخيرة من حياته، الذى كاد يودى بنفسه وأسرته.

إن هذا النوع من الصدقة على البراهمة وزواياهم ليس شيئاً غير عادى حتى اليوم، فإطعام البرهمى لا يزال يعتبر براً، لا سيما إذا كثر عددهم، وهى ظاهرة توجد إلى حدّ ما فى كل تقليد عائلى، أو مهرجان ولادة أو مأدبة، أما فى الأعياد المشهورة، فكان يتسع هذا النطاق كثيراً، حيث يتوافد إليها جماعات كثيرة من الزوّار والنساك، ويقمن عدة أيام، ويُستشهد على ذلك بشخصية (USAVADATA) الذى عاش فى القرن الأول (كما يقولون)، لقد دلّ أثر تاريخى عثر عليه فى غار قديم أنه كان يفتخر بأنه كان يسدّ حاجات مئة ألف من البراهمة، ويتصدّق بمئة ألف بقرة، وست عشرة قرية، وحدائق ونحو ذلك.

نحن نجد فى العصور القديمة عدداً من الملوك، يكفلون عدداً من البراهمة زمناً طويلاً أو

مدى الحياة، فكانت جماعات من النسّاك تنعم وتترفه بالأوقات والعقارات والأموال، شأن الزوايا والتكايا فى القرون المتوسطة فى أوروبا، وقد يدخل معظم إيراد المملكة وأملاكها فى حوزة هؤلاء النسَّاك، وفى ملكهم.

إنّ العادة المتبعة الشائعة فى شمال الهند فى تقديم مال مقرر أو عشر دخل الفرد إلى جماعات النسّاك أو (المعلّم) الذى يمتاز فى نوع من العلم، ويتزعم مدرسة فكرية، قليلة بالنسبة إلى جنوب الهند، والحق أن سلطان رجال الدين فى الشمال ضئيل بالنسبة إلى الجنوب، فإنهم يحصلون على الأموال بحكم القانون وقوة اليد، ويستخدمون فى ذلك كل طريقة ممكنة، هؤلاء الزعماء الروحيون ورجال الدين، يتجولون فى مدن خاصة، ويطالبون بهذا المبلغ المقرر لهم المعترف به عند الجميع.

إن الأوقاف التى تُحبس على الأمور الخيرية، هى التى تَدِرُّ على المؤسسات الدينية فى جنوب الهند، وتقوم بنفقاتها، وبكفالة النسَّاك والعبَّاد المقيمين فيها، أما فى شمال الهند، فلا يوجد فيها هذا النظام بهذا الشكل الواسع، والعناية الفائقة.

وكان هناك مبدأ خاص، وهو أن لا يتصدق الإنسان بكل ما يملك فيصبح عائلاً فقيراً، وأن لا تتجاوز صدقة البقرة ألف بقرة، وكانت هناك آداب وأحكام لأنواع أخرى من الصدقة، وأن لا يقبل أحد تلك الصدقة التى رفضها البرهمى، وأن لا يتصدق فى نفس اليوم الذى قبض فيه، أما مستحقو الصدقات فقد جرى تصنيفهم بحسب استحقاقهم، منهم من يحرم دفع الصدقات إليه، ويأثم فاعله، وكان الواجب على كل هندكى ينتمى إلى أصل شريف أن يهب كل ماله ومتاعه للبراهمة، إذا قضى مدة معينة من حياته العائلية، ورزق ولداً يبقى به نسله، وأن يغادر مسكنه ومأواه ويتوجه إلى الغابات ويعيش فيها عيشة (VANAPRASTHA)، ثم يكون ناسكاً يجمع قوته وطعامه بالتكفف، والوقوف على الباب، هؤلاء النسّاك لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً، إنهم يحملون كشكولاً من نارجيل، وكوباً من ماء، وعصاً، وسبحة طويلة فى العنق، وقد نجد من أفراد الطبقة المثقفة فى العصر الحديث، رجالاً وسَّع الله لهم فى الرزق، واتسعت لهم الدنيا، قد رفضوا أسباب الحياة وزهدوا فيها، ووهبوا حياتهم الأخيرة للفقر والمراقبة الدينية.

وهناك نوع آخر قديم من الصدقة، هو تقديم المنح والعطايا لمستشفيات الحيوانات، إن هذه المؤسسات والمستشفيات قديمة جداً، فى بعض الأماكن، يُعنى فيها بالأبقار المريضة الضعيفة الهزيلة، وتجد فيها العلف، والماء، والمأوى، وذلك شيء يتبرع له الصالحون بكل سخاء، ويتبرع له المؤمنون المتحمسون يومياً، وأعتقد أن مقدار هذا النوع من الصدقة كثير جداً فى هذه البلاد[1].

إن هذا الاقتباس يدلُّ قارئ الكتاب على أن البراهمة كانوا هم المحور الوحيد الذى يدور حوله هذا النظام الكبير للصدقات، والذى يمتدُّ على حقبة طويلة فى التاريخ؛ ورقعة كبيرة من الأرض، ويردف البراهمة النسّاك، وهكذا نشأت فى المجتمع الهندوكى -من غير شعور وإدراك- طبقة بقيت عالة فى كل شيء على الصدقات والإعانات، وعاشت غنية بالاستجداء والتكفف، أما ما جرّ ذلك من قبائح خلقية، واستغلال وانتهازية، وتواكل وكسل، وبطالة، وإخلاد إلى الراحة، فهو شيء طبيعى لا يعسر فهمه أو تقديره على الوجه الصحيح.

إن حياة التسوُّل هذه لم تكن (ولو قيل إنها من خصائص عصر التدهور) محمودة فى هذا المجتمع فحسب، بل كانت لازمة له، وواجبة لتزكية النفس، ولذلك اعتبروا الاستجداء والتكفف وسيلة فذّة للسمو الروحى، وصفاء النفس، وأصبح من واجبات الحياة اليومية لبعض الطبقات، هذه الطبقة من النسّاك المتكففين (بهوبجي) توجد فى البلاد التى أغلبيتها من البوذيين، وفى بورما خاصة تجلب هذه الظاهرة أنظار الأجانب[2]، وقد أحدث عددهم المتزايد فى هذه البلاد، وبطالة جزء كبير من المواطنين بطالة تامة، وأوضاعهم الخلقية والاجتماعية، مشكلات وعقداً فى حياة البلاد.

وفى جانب آخر اختص أكبر جزء من هذه الصدقات والعطايا بالبقرة فحسب، من أجل تقديسها، وعقيدة التناسخ التى لم تزل شعار الديانات الهندوكية، وأنفقت عليها

---

(١) Encyclopadia of Religions and Ethics Vo1.I.

(٢) سافر مؤلف الكتاب فى عام ١٩٦٠ م إلى (بورما)، وزار (رنجون) و(ماندلي) وبعض الأماكن التاريخية المشهورة، ورأى هذا النوع من الناس عن كثب، وشاهد حياتهم اليومية، واطلع على مناظر من التسول لا ينساها.

مبالغ باهظة بخست حق ذوى الحاجة من بنى آدم، وأفراد الأسرة التى كرّمها الله.

ويبدو لنا أنّ هذا النظام وما فيه من التعاليم الدينية، والتوجيهات، ينقصه ذلك التنظيم والتحديد، والضبط الذى تتسم به الديانات السامية كلها بوجه التقريب، فنجد فى هذا النظام حرية كاملة فى الاختيار، ومرونة مفرطة للأوضاع، وخضوعاً زائداً للملابسات الزمنية والمحلية، جعله مختلفاً عن الآخر باختلاف البيئات والأقاليم، فكأنها أجزاء متناثرة لديانات مختلفة متنافرة.

الصدقات فى اليهودية:

يقول العلامة السيد سليمان الندوى – رحمة الله – فى كتابه المشهور سيرة النبى (المجلد الخامس) تحت عنوان: (الزكاة فى الأديان الماضية):

«الزكاة أيضاً من العبادات التى فرضت فى سائر الأديان السماوية، ولكن أتباع هذه الأديان تناسوا هذه الفريضة، حتى لم يبقَ لها اسم ولا رسم فى قائمة الأحكام والتعاليم الدينية لهذه الأديان، مع أن القرآن يعلن بصراحة، وبتصديق الصحف السماوية أن الزكاة كانت جزءاً لازماً لهذه الأديان مثل الصلاة تماماً، فالميثاق الذى أخذ من بنى إسرائيل احتوى على الصلاة والزكاة معاً، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، ويقول فى موضع آخر:

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ [المائدة: ١٢]، ويذكر إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فيقول:

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياًّ * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِياًّ ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]، ويقول على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَأَوْصَانِى بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياًّ ﴾ [مريم: ٣١].

إنّ التوراة تدلُّنا على أن عُشر محصول الأرض والأنعام كان واجباً على بنى إسرائيل، ونصف مثقال من الدينار لمن كان فى عشرين من عمره، أو فوق العشرين غنياً كان أو فقيراً. جاء فى الخروج: «كل من اجتاز إلى المحدودين من ابن عشرين سنة، فصاعداً، يعطى تقدمة للرب، الغنى لا يكثر، والفقير لا يقلل عن نصف الثاقل، حين تعطون تقدمة

الرب للتكفير عن نفوسكم» (الخروج ٣٠:١٤-١٥). وكانوا يتركون بعض السنابل فى المزارع والحقول عند الحصاد، وبعض الثمار فى الأشجار، فكان ذلك ذكاة يؤدونها بعد كل ثلاث سنوات، وكان هذا المال يدفع إلى بيت مال القدس، ينال واحداً من الستين منه رجال الدّين، أما العشر، فكان يناله اللاويون من آل هارون، وكان يوقف عُشره لضيافة الوافدين والحجاج، وينفق على إطعام عامة المسافرين والفقراء، والأيامى واليتامى يومياً»[١].

أما الأموال التى كانت تجبى بزكاة نصف مثقال، فكانت تدفع إلى خيمة الاجتماع (أو مسجد القدس)، فكانت تنفق فى شراء أوانى المذبح والآلة» (الخروج ٣٠)[٢].

إن اليهودية (التى قامت على أساس التعاليم النبوية على كل حال، والتى عاشت تحت ظلال النبوة أكثر من جميع الأديان التى نشأت فى النسل الآري) أقرب إلى تعاليم الإسلام، وقيمه ومفاهيمه، وأحكامه؛ بالنسبة لهذه الأديان بطبيعة الحال، إن اليهودية لم تنظر إلى حياة البطالة نظرة إعجاب واستحسان، ولم تشجعها شأن الديانة الهندوكية التى مضى ذكرها، بل إنها بالعكس حاولت إيجاد الثقة بالنفس والاعتزاز فى الفقراء والمساكين، يقول بنسيرا (BANSIRA):

«إن العيش فى كوخه المصنوع من قصب أفضل كثيراً من الراحة والهناء فى بيت غيره، التجوُّل والتسُّول آفة كبيرة» (SIRA-22-24-29)، وأما ما قيل فى فضائل الصدقة، ومنافعها العاجلة والآجلة، فهو أقرب إلى تعاليم الإسلام، إنّ التنوع فى الصدقات والتوسع فى نطاقها، وشمولها لكل صغير وكبير يجلب الراحة للآخرين، ويدخل السرور على القلوب يشبه الأحكام الإسلامية وتعاليم القرآن والسنّة، فقد نرى هناك رعاية للعواطف الإنسانية، والمشاعر المرهفة اللطيفة، تجلّت فى أروع صورها ومظاهرها، ووصلت إلى قمتها فى النظام الإسلامي. جاء فى (ABOTH-1-): «إنّ الزكاة والصدقة ركنٌ من أركان المجتمع الإنساني»، وجاء فيه: «إن الصدقة لا تختص بالأغنياء وحدهم

---

(١) Charity Incylopedia Britanica Edition II.

(٢) سيرة النبي: ٥/١٤٨-١٤٩.

بل إنّ الفقير يتقرَّب بها، كما يتقرّب بها الغني)).

إنّ التعاليم اليهودية تفرض على اليهودى أن يتصدّق بعشر دخله، ولكنها لا تسمح له بالخمس، لئلا يقع فى ضائقة، ويحتاج بنفسه إلى الصدقات، (KETHUBOTH-50A). وقد سمح بتدخل الحكومة أيضاً فى تحصيل الصدقات، إذا دعت إليه الحاجة، جاء فى (KETHUBOTH-19B): ((إذا رفض البخلاء الصدقة، أو لم يتصدّقوا كما ينبغى، فعلى الحكام أن يرغموهم على ذلك، أو يضربوا العصاة إذا اقتضت الضرورة حتى يذعنوا للأمر)). وهكذا أعطت اليهودية أسرة المتصدق حقاً كاملاً فى الاستفادة من الصدقات، واعتبرتها أحق بها دون غيرها، وهو شيء يشبه الحديث النبوي: ((ابدأ بمن تعول))[1]. جاء فى (BABAMEZIA): ((أسرة المتصدق أولى بالاستفادة من هذه الصدقات، والوالدان أحق بها، ثم الإخوة والأخوات، ويليها فقراء القرية ومساكينها، ويأتى بعدها دور فقراء قرى أخرى))، وذلك يشبه التعليم الإسلامى الوارد فى حديث مشهور: ((تؤخذ من أغنيائهم، وتردّ على فقرائهم))، ويمكن أن تقدم الصدقات إلى اليهودى وغير اليهودى سواء، (GILTIN 61A) أما فك الرقاب بالفدية فهو أفضل وأسمى من غيره من الصدقات والمبرات (BABA BATHRA 88) ويجب أن يلاحظ كرامة الشخص الذى ينال الصدقة، (SHABBUTH 63A) والصدقة عابساً أو كارهاً تحبط العمل (BABA BATHRA-98).

وجاء فى (دائرة معارف الأديان والأخلاق) ما يلي: ((كان هناك نظام خاص مستقل لإعانات الفقراء، وأهل الحاجة فى عهد التلمود، وهو يتلخص فى تقديم وجبات الطعام يومياً، والنقود أسبوعياً، وكان العهدة فى هذا الأمر على شخصين أو ثلاثة من الثقات الأمناء، فكانوا يجمعون التبرعات من الجماعة، كما كانت جماعة أخرى مؤلفة من ثلاث أفراد تقع عليها مسؤولية الفحص فى أمر السائلين والفقراء (BABA BATHRA 8A، وكان يجب عليهم أن يكملوا مهمتهم، ويؤدوا واجبهم مهتمين بعواطف الفقراء والمساكين ومشاعرهم (KETHUBOTH 6B)، وقد استمر هذا التقسيم إلى زمن

(١) **صحيح**: البخارى (٢/٥١٨) (١٣٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

طويل (MIAMLOCVIT-3-9).

وكان اليهود المتدينون متمسكين بأداء العشر الذى قررته شريعتهم باهتمام وانتظام، وكانت عادة التسوُّل شاذة فى المجتمع اليهودى فى القرون المتوسطة ولكنها نالت رواجاً كبيراً فى القرن السابع عشر، وانتشر السائلون المحترفون فى كل طائفة يهودية، وبدا منظرهم كريهاً، جديراً بالاحتقار، نحن نجد صورة رائعة لمثل هذا الاستجداء الوقح فى كتاب ملك الشحاذين (KING OF SHINOWET) لمؤلفه (TANGWILL)، ولكن التنظيم اليهودى الجديد للمبرة الاجتماعية، قضى على هذه الحرفة أخيراً

ورغم هذا التشابه الجزئى بالتعاليم الإسلامية فى هذا الموضوع، الذى قدمنا بعض أمثلته فى السطور الماضية، نجد هناك فرقاً كبيراً بينه وبين نظام الزكاة والصدقات فى الإسلام، وهو أنه توجد فى اليهودية فرقة خاصة لأخذ الزكاة، وتدبيرها وتوزيعها فى هذه الفرقة، وهى فرقة تنتمى إلى سلالة خاصة، ونسب خاص، وهم يرثون هذا المنصب أباً عن جد، يقول الكاتب اليهودى (GFMOORE) فى كتابه (JUDAIESM): ((إن المبدأ الأساسى لهذا التنظيم (جمع الضرائب للأمور الدينية) كما جاء فى القانون الأساسى لليهود، هو أن يقدم عشر الإنتاج الزراعى إلى (اللاويين) ويقدم هؤلاء عشر هذا العشر إلى رجال الدّين)).

ويذكر الكاتب ذلك الشره للمال، والاستحصال بالقوة، وهضم الحقوق، الذى اتسم به هذا النظام، فيقول:

((كان علماء اليهود يجمعون هذا العشر عن طريق عصابات قوية، يوفدونها إلى الأراضى الزراعية نفسها، فتأخذه قهراً وبطشاً، وكانت تضرب الأحبار الصغار الضعاف، الذين كانوا يريدون أن يستأثروا به بحق.

أما نشاط اليهود فى أداء هذه الفريضة، وتحمسهم لها، وشعورهم بالمسئولية نحوها، وتطبيقهم على المجتمع فى مختلف أدوار التاريخ، فيقول عنه المؤلف:

((لعلّ أداء العشر فى اليهود تُرك إلى ضمير صاحب الضريبة، مع أن التجربة تدل على أن الاعتماد على الضمير فى هذه الناحية لم يأت بخير، حتى أن هذا النظام الذى يقوم على التطوع، أخفق فى منطقة صغيرة مثل جوديا (JUDEA) التى كانت تحت حكم

إيران، فقرروا إرسال زعيم ديني مع اللاويين لجمع الأموال (NEH-7-38F) ولكن هذه الحيلة أيضاً باءت بالفشل، فقد جاء فى (NEH-10-13) إن أداء العشر تعطل بتاتاً، حتى اضطر اللاوييون إلى ترك معبدهم، وتوجهوا إلى مكان آخر ليحرثوا أرضهم بأنفسهم وينالوا قوتهم»، (MAL-3-8F).

ويقول مستطرداً:

«ولا عجب فى ذلك فقد كان الفلاح لا يعتمد عليه مطلقاً فى أداء الضرائب الدينية، حتى المتدينين منهم كانوا يؤثرون تقاليد الآباء والأجداد وكانوا يحسبون أن العادات القديمة أولى وأفضل من فتاوى المدارس، والإيضاحات الدينية، ويقول:

«وقد أزعجت هذا الغفلة السائدة العامة قادة الدّين، وأقلقتهم، ولكن جميع المساعى والمحاولات لتنفيذ هذه الأحكام الدينية، باءت بالإخفاق فى صورة عامة، و لم يبقَ هذا الانحراف فردياً، بل أصبح جماعياً، فقد أصبح ابتزاز حق الله فى أموال العبيد، وانتهابه جناية قومية، ذاقت الأمة وبال أمرها، فقد كان من المقرر، أن اليهود لا يستردّون ما فقدوه من فضل الله وبركاته إلا بالإصلاح الشامل، واستعادة حياة الطاعة والانقياد».

MAL-3-8-12 MIDRASH- TEBELHORON ISLAM 51 2CO. ,8-9

ويقول:

«ولا شك أن علماء الدّين أنذروا قومهم ونصحوهم بأن هذا الخداع والمكر والانحراف عن أداء العشر إثم كبير، ولكنهم لم ينجحوا فى إصلاح القوم».

بعد هذه الشهادات المجليّة الواضحة لعلماء اليهود ومؤرخيهم، ومع العلم بأن اليهود ظلوا فى جميع أدوار حياتهم شعباً مغرماً بالثراء الفاحش والاكتناز، استخدم جميع الوسائل وكل ذكائه، لتنمية الأموال وتكثيرها، وكان له الزعامة فى عمل الربا، وصناعة الصِّرافة والنقود، والبراعة فى الأعمال التجارية فى كل عصر ومصر، يحلو لنا أن نتلو تلك الآيات الكريمة المعجزة التى ذُكر فيها بخلهم وحرصهم الزائد، وتماطلهم فى أداء الحقوق، وميلهم إلى التأويل والتعليل، وعسى ولعل، وكلماتهم الوقحة الجريئة فى مثل هذه المناسبات وعند أداء الواجبات:

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١] (١).

وقد قالوا حينما طلب منهم الإيثار والسخاء، والبذل فى سبيل الله فى وقاحة وجراءة: «يد الله مغلولة».

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويبدو لنا –فى ضوء القرآن– أن يهود الحجاز الذين كانوا مسيطرين على اقتصاد البلاد محتكرين لتجارتها، قصروا دائماً فى الصدقات والمبرات وأداء الزكاة، يقول القرآن:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

الصدقات في الديانة المسيحية:

وبما أن المسيح عليه السلام لم يأت لأتباعه بقانون عام شامل، وبشريعة تضارع شريعة موسى عليه السلام، بل إن عمله ظل مقصوراً(٢)، على إصلاحات وتغييرات شتى، وإن دعوته الأساسية كانت تهدف إلى بعث روح صادقة للعبودية والإخلاص، وإيقاظ عواطف الحب الإلهى والعطف على الإنسان، وإحلال الحقيقة محل الصور والأشكال، وكان ذلك إزاء التقليد الأعمى للعادات والأشكال التى أسرف اليهود فى التمسك بها، والعضّ عليها بالنواجذ، فلم يقدم إلى أمته نظاماً مستقلاً للصدقات –شأنه فى الأركان

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير فى تفسير هذه الآية: «قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يامحمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١] الآية، ورواه ابن مردويه وابن أبى حاتم»، (تفسير ابن كثير: ١٦٨/٢، طبع بيروت).

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠]

الأخرى للدين وشعب الحياة- يتضمن تعليمات وتشريعات دقيقة حيال الشريعة اليهودية، وأحكام التوراة، إنه حاول فقط إيقاظ الشعور بالحقيقة والروح، والإخلاص والحق، والحب الإلهى والأخوة الإنسانية فى النظام السابق، وذلك هو السبب فى عدم وجود نظام واضح، وقانون منظم للصدقات فى ضوء توجيهات الكنيسة، وكل ما يوجد فى هذا الموضوع لا يعدو توجيهات خلقية عامة، ومواعظ دينية.

ما هى مكانة الصدقات فى العهد الجديد[1] وكيف كانت تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام الأساسية حولها، وتوجيهاته، وعواطفه الشخصية نحوها؟ وإلى أى حدٍّ بقيت هذه الفكرة فى عهد الكنيسة بعده، وما هو مدى تعامل العالم المسيحى بهذه الفكرة؟ يتحدث كاتب مسيحى وهو يستعرض هذا الموضوع بإيجاز فى (موسوعة الديانات والأخلاق)، يقول:

«لقد ذكر السيد المسيح واجب الصدقات فى خطابه على الجبل، وفى مناسبات أخرى بنفس التأكيد والإخلاص الذى كان يتظاهر به علماء اليهود قبله، فتجب الصدقة على أتباعه، ولكن يجب أن تكون هذه الصدقة نابعة من الإخلاص، وبنيّة الخير فحسب، إن كل مسيحى يريد أن يكتمل فى ذاته كما كان (الأب) الذى هو فى السماء مكتملاً فى شخصيته، ولا ينبغى أن تشوب نيّته شائبة من الرياء، وطلب المدح، والعلو الشخصى (MT-6-IFF) كما أن الموعظة التى توجد فى إنجيل لوقا تنطوى على أحكام للصدقات هى أوضح من غيرها: «أعطوا تُعطون، أعطوا من يسألكم، ومن أخذ متاعكم فلا تسترجعوه منه، وأحبُّوا أعداءكم، وأقرضوهم، ولا تؤيسوهم، وستجزون جزاءً كبيراً على ما تفعلون، حتى تكونوا أبناء تلك الذات العالية الرفيعة، لأنها ترحم الجميع وتعطف على الكفور المعربد أيضاً (LUKE-6-30-35).

لقد عمل السيد المسيح بما علّم الناس (بل كان عمله أكثر من تعليمه)، إنه بذل قسطاً كبيراً من أوقاته بعد النبوة فى إزالة متاعب الناس، وخدمة الجماهير، وإبراء الذين كان الشيطان قد مسّهم، لأن الله كان معه (AC-10-38).

---

(١) الإنجيل.

ولكن لا ينبغى لنا أن نعتقد أن المسيح كان ضعيفاً فى انتصاره للإنسانية، فقد قال: إنه ينبغى للإنسان أن يكون طالباً (لملكوت الله) وللحق قبل كل شيء، أما الصفات الحميدة الأخرى، فإنها ستنشأ فيها بنفسها، وقال: يجب أن يكون تفكير الإنسان (وهو يساعد الآخرين) فى سلامة أرواحهم فوق تفكيره فى سلامة أجسادهم، فقد كان هو نفسه حينما يعالج الناس، أو يساعدهم فى أمورهم، يفكر فى مصلحة (الروح) الدائمة أكثر من مصالحهم المؤقتة، كما أن ههنا ناحية لا بدّ من النظر فيها، وهى أن السيد المسيح قد اعتبر أساس المساعدة والبرّ تلك العلاقة التى يتصل بها الإنسان بربّه، فهذه هى العلاقة التى تجعل الناس إخواناً، وعلى هذا فبما أن الناس كلهم أعضاء أسرة واحدة فى الحقيقة يتحتم عليهم أن يساعد بعضهم بعضاً على أساس كونهم عباد رب واحد.

وقد قال بولس: ((وآزروا وتعاونوا فيما بينكم كالسيد العظيم، واعملوا بقانون سيدنا عيسى عليه السلام))، (GAL-62). ولكن الذي لا غبار عليه أنه ما دامت علاقة السخاء والصدقة بهذه الغايات السامية، والنيّة الخالصة، فلا مجال فيها للرياء والمباهاة.

ولننظر إلى أى حدّ تأثر أتباع عيسى عليه السلام وأنصاره الأولون بتعاليمه التى جاء بها وبالأسوة التى قدمها هو نفسه، وقد برز نظام اشتراكى كنتيجة حتمية لنزع الروح فى يوم (PENTA COST) أقامه الناس حسب رغباتهم، وأنفق فيه أغنياء الجماعة جلّ أموالهم، أو ما يقارب الكل على سد حوائج جيرانهم الفقراء (AC-2-44-45)، ولم يبع كل الناس جميع أموالهم، فالذين لم يكن عندهم مال فوق حوائجهم ظلّوا ينفقونه على سد مطالبهم، أما الذين كانت عندهم أموال تفضل عن حاجاتهم ومطالبهم، باعوها كذلك، أو أنفقوها فى مصالح الجماعة، (35-34-4) ولا شك أن صدقة عظيمة كهذه لا تدوم إلى أمد بعيد ويبدو ومن أمثلة (SAPHIRA ANANIA،) أن دافع الخدمة المطلوب كان مصطنعاً متكلفاً فى أكثر الأحيان، ولعل جميع تلك المفاسد التى تنشأ بمساعدة الكسالى والعجزة من الناس ظهرت فى كنيسة القدس، كما يبدو بتهديد بولس أن هذه المفاسد تعدّت إلى الكنائس الأخرى كذلك(2TH-3-10 FF).

ولو أن صدقة العهد البدائى لم تدم على حالها السابق حينما فتر الحماس السابق فى الناس، غير أن الصدقة بقيت قائمة، وظلت ميزة خاصة لجميع الكنائس المسيحية، بل

بقيت ميزة الكنيسة، ولما قدم المسيحيون الجدد أيمانهم لبولس للحلف والوحدة، أنفقوا بوجه خاص على مساعدة الفقراء (سواء كانوا من غير المسيحيين). إن هذا المبدأ هو الذى كان بولس يحرص على إبقائه والاحتفاظ به، (GAL-2-10)، وبالنظر إلى هذه الغاية، وانتشار الاتحاد بين كنائس اليهود وغير المسيحيين، قام بولس بتنظيم كنائس مقدونية (ACHAI) بحيطة بالغة، وجمعت تبرعات الصدقة فقام نفسه بإيصالها إلى سدنة القدس، وشاركه فى هذا العمل بعض الممثلين من الكنائس الأخرى (2co,8-9).

أما ما أصدره بهذه المناسبة من الأمر بالتبرعات الأسبوعية، فأصبح أساساً -فيما أظن- لذلك التبرع الأسبوعى الذى بقى فى عدة كنائس بوجه عام، ولا يزال باقياً فى أكثر الكنائس فى زمننا الحاضر، ولا يقلّ حثّ الزعماء المسيحيين -عدا بولس- على التصدّق والترحم على الفقراء، فقد شنّع (السانت جيمس) بكلمات قوية على ذلك الظلم والتعدّى، الذى يصبّه الأغنياء فى الفقراء (TA 5-2-1-6-6) ولكنه صوّر قانون الخدمات الدينية تصويراً مجملاً يقول: «إن الديانة الأصيله التى لا شية فيها فى نظر الإله والأب، هى تفقّد أحوال الأيتام والأرامل، والعطف عليهم، والمشاركة فى أحزانهم، وتزكية النفس من غرور الفخر والمباهاة (1-27).

وقد وجّه مؤلف (رسالة إلى اليهود) وصيّة عملية إلى مخاطبيه فى آخر خطابه، يقول:

«أحسنوا، ولا تنسوا توزيع الصدقات، فإن الله لا يرضى بهذه الذبائح، وقدم (السانت جوهن) فريضة الصدقة بغاية وضوح وجلاء، أنه يعتبر دافع خدمة الإنسان، نابعاً من عاطفة الحب لله، يقول:

«الذى تتوفر لديه أسباب الراحة والمتعة، ثم هو يهرب من مساعدة أخيه الفقير، وهو يعلم مدى احتياجه، كيف يدوم فيه حب الله».

وهكذا يتبيّن لنا أن الصدقة، ومساعدة الفقراء تعتبر واجباً أساسياً للحياة المسيحية، فى تعاليم السيد المسيح، وأتباعه الأولين، وأن علاقة هذا الواجب الأولى بتلك الصلة، التى يتصل بها الناس بالرب تعالى عن طريق السيد المسيح، وأن النتيجة الحتمية للاعتراف بهذه الصلة هى الصدقة والحسنة»[1].

(1) Encyclopedia of Religion Ethics W.A. Spooner.

دور الإسلام الإصلاحي:

وقام الإسلام بعدة إصلاحات جذرّية، كان لها الأثر الثورى الكبير، فى نظام الزكاة وفى أخلاق المجتمع.

إلغاء الاحتكار الدينى والطبقي:

منها أنه ألغى الاحتكار الدينى، والاحتكار العائلى، الذى كان قد أساء إلى هذه الطبقة المحتكرة فى جانب، فأفسد أخلاقها، وحوّلها إلى طبقة مترهلة عاطلة تعيش على الصدقات، وتترّفه على أساس الأموال، التى تأتيها عفواً ومجاناً، ولا تشعر بحاجة إلى الكدح والجهد، والاكتساب بالطرق الطيّبة الكريمة، وكان رزقها مضموناً مكفولاً بمجرد أنها من أولاد النبى فلان، أو من البيت الفلانى، أو الأسرة الفلانية، أو أنها تشغل المنصب الدينى الفلانى بحكم الوراثة، وإن لم تقم بحقوقه ومسئوليته، فنشأت بذلك طبقة محترفة، تحتكر الدين وتستغل النسب وتتجرّد عن كل فضيلة، أو صفة من صفات الرجولة والمروءة، والتعفف وعزّة النفس.

وفى جانب آخر، أساء إلى الفقراء والمساكين، وأصحاب الخصاصة المستحقين، الذين كانت حقوقهم تُهضم، لأن المتصِّدق كان يفضل بطبيعة الحال أن تذهب هذه الصدقاتُ إلى من يتشرّف بمنصب دينى، أو بدم نبوى، وسلالة كريمة، كما يشاهد ذلك عياناً فى المجتمع الهندى، فقد استولى البراهمة، وسدنة المعابد على الصدقات والنذور، فلم يَدعوا شيئاً لرجل الشعب الفقير الذى لا يعتّز بالدم البرهمى المقدّس، أو بالسدانة والكهانة، فحُرم فى كثير من الأحيان ما يسدُّ فاقته ويقيم صلبه، وكان فريسة إهمال الأغنياء، وترف البراهمة والسدنة، وضحية الوضع الدينى التشريعي، فى الديانة الهندية الآريّة.

بالعكس من ذلك سدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باب هذا الاحتكار الدينى والعائلى، والظلم الاجتماعى إلى آخر الأبد، وحرّم الزكاة على بنى هاشم-الذين هم أسرة النبوة، وأهل الفضل فى تاريخ الإسلام، والكفاح الدينى - فقال فى قوة

وصراحة، «إن الصدقة لا تحل لنا»(١). وكان يتورّع من أكل الصدقة كلّ التورّع، وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى بطعام، يسأل عنه، فإن قيل هدّية، أكل منها، وإن قيل صدقة، لم يأكل منها، وقال لأصحابه: كلُوا»(٢)، ويبالغ فى منع أهل بيته من أكلها، حتى لا يتعوّدوا ذلك، ولا يحتجُّ به المسلمون، فيفضِّلوهم ويحرموا غيرهم، فعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: أخذ الحسن بن على تمرة من تمر الصدقة، فوضعها فى فيه، فقال ﷺ: «كخ كخ، إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»(٣).

وقد كان هذا حكماً باقياً فى حياته وبعد حياته صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى عنه مرفوعاً، أنه قال: «إن هذه الصدقات، إنّما هى أوساخ الناس، وإنّها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد»(٤). وقد جرى العمل بذلك فى الفقه الإسلامى والمجتمع الإسلامى، وبقى باب الزكاة والصدقات المفروضة مفتوحاً على مصراعيه لعامة المسلمين وفقرائهم ومستحقيهم، لا تُهضم حقوقهم، ولا يُغلبُون فيها على أمرهم ونصيبهم(٥).

وقد كانت هذه سيرته ﷺ فى أهل بيته وأسرته، فكان لهم نصيب الأوفر فى المغارم، والنصيب الأقل فى المغانم، فلمّا حرّم الرّبا، بدأ بأسرته والأقربين إليه، ولمّا وضع دماء الجاهلية، بدأ بدم أحد أبناء أسرته، فمّما جاء فى خطبته فى حجة الوداع، قوله: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وكان مسترضعاً فى بنى سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع من ربانا، ربا عبّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع

---

(١) **صحيح**: رواه أصحاب السنن أخرجه الترمذى (٣/٤٦) (٦٥٧)، والنسائى (٥/١٠٧) (٢٦١٢)، وأحمد (٦/١٠) (٢٣٩٢٣) عن أبى رافع عن النبى ﷺ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٦٣).

(٢) **صحيح**: رواه الشيخان أخرجه البخارى (٢/٩١٠) (٢٤٣٧) ولم يعزه ابن حجر فى التلخيص (٣/٧٠) إلا إلى البخاري.

(٣) **صحيح**: رواه الشيخان. أخرجه البخارى (٢/٥٤٢) (١٤٢٠)، ومسلم (٢/٧٥١) (١٠٦٩).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢/٧٥٢) (١٠٧٢) باب «ترك استعمال آل النبى ﷺ على الصدقة» عن أبى هريرة ﷺ.

(٥) انظر البحث فى ذلك فى كتاب (أحكام القرآن) للجصاص، وللقاضى ابن العربي.

كله... إلخ»(١). ولمّا فُرضت الزكاة فى الإسلام، وكان باباً واسعاً، باقياً مع الإسلام للرزق الواسع، عمد إلى بنى هاشم أهل بيته وأسرته-فحرمهم الانتفاع به والتعيُّش عليه، وتلك طبيعة الأنبياء والرسل، وسيرة من يكرمهم الله بالرسالة والنبوة، كان لمحمد ﷺ فيها المقام المحمود.

إسقاط الوساطة فى أداء الزكاة:

ومنها، أنه أسقط الوسائط بين مؤدّى الزكاة وبين مستحقيها، والوسائط الدائمة التى كان قد فرضها ممثلو الشريعة الموسوية، وهم الأحبار والرهبان، فكانت الفريضة لا تسقط عن صاحبها إلا إذا تسلمها الكهّان أو الأحبار، أو سدنة البيت المقدس، فأنشأ ذلك فى هذه الطبقة حبّ المال الفاحش والنهامة، وأساءوا التصّرف فيها أحياناً كثيرةً، واستولوا عليها، وحرموا ذوى الحاجة المستحقين، ولذلك قال القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة: ٣٤]. فقد أنشأت هذه الوساطة وهذا الاحتكار فيهم الشره والاستيلاء على أموال الناس والاكتناز والثراء الفاحش.

وقد أسقط الله هذه الوساطة الكهنوتية، كما أسقطها فى جميع العبادات وإقامة الفرائض الدينية، فكل مسلم يستطيع أن يصلى بنفسه، ويؤدّى زكاته بنفسه، ويصوم ويحجّ بنفسه، لا يحتاج إلاّ إلى معرفة أحكامها، المعرفة التى لا بدّ منها فى أداء هذه الأركان، والنيّة، وتحقيق الشروط التى شرطت لها، فإذا توّفرت هذه الشروط لم يكن فى حاجة إلى وسيط، وإلى طبقة دينيّة رسمية.

تمليك المستحقين وتحكيمهم فيما يأخذونه:

ومنها، أن بعض الأجزاء من أموال الزكاة -كما قدّمنا- كانت مقيّدة بقيد، لا يتصّرف فيها من يأخذها تصرفاً مطلقاً، فقد كان جزاء مخصّصاً لحجاج بيت المقدس،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢/٨٨٦) (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

ولكنه كان مختصاً بضيافتهم وطعامهم، ولكن الشريعة الإسلامية ملّكت الفقراء والمساكين، ومن يستحق الزكاة هذه الأموال التى يأخذونها، فيتصرفون فيها، كما يشاؤون، وينفقونها فى حاجاتهم ورغباتهم ومصالحهم، وذلك ما تفيده اللام فى قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] [١].

هذه الإصلاحات والتحسينات، هى التى جعلت نظام الزكاة الإسلامى، أرقّ وأدقّ، وأوفى وأرقى نظام تعبّدى واجتماعي، وأكفل بالمصالح الفردية والاجتماعية[٢].

مكانة الزكاة فى الإسلام ووضعها الشرعى الأصيل:

قُرنت الزكاة بالصلاة فى اثنين وثمانين[٣] (٨٢) موضعاً من القرآن، وتكرّر فى القرآن: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦]، وفى وصف المسلمين: ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النمل: ٣]. وقد عدّها رسول الله ﷺ من أركان الإسلام وأسسه، فقال: «بُنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[٤]. وسُئل ما الإسلام؟! فقال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»[٥]. وفى حديث ضمام بن ثعلبة، أنه قال له: «أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟، قال: اللّهم نعم»[٦]، والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى، وقد بلغت حد التواتر المعنوى،

---

(١) انظر البحث فى هذه اللام، فى كتب أحكام القرآن، فى كتب أصول الفقه للمذاهب الأربعة.

(٢) استفدنا فى هذا البحث من المجلد الخامس (السيرة النبوية) لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله تعالى.

(٣) حسب إحصاء العالم الجليل الأمير قطب الدين خان الدهلوى (م ١٢٨٩هـ) فى ترجمة (مشكاة المصابيح) وشرحها.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (١/١٢) (٨) ومسلم (١/٤٥) (١٦) والترمذى (٥/٥) (٢٦٠٩) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٥) **صحيح**: للشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد تقدم تخريجه، فى تخريج قول النبى ﷺ فى تعريف الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه ..» وهو جزء منه.

(٦) **صحيح**: رواه البخارى (١/٣٥) (٦٣) باب «ما جاء فى العلم».

وانعقد على كونها قرينة الصلاة الإجماع، وتعاملت الأمة بها جيلاً بعد جيل.

وقد جعل الله إقامة الصلاة وأداء الزكاة علامةً لصحة الإسلام وأحكامه، ودخول الرجل في السلم مع الله والإخاء مع المسلمين، فقال: ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٥]، وقال: ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ١١].

وأخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»[١]. وأخرج البخارى ومسلم والنسائى من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ويؤمنوا بى وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها، وحسابهم على الله»[٢].

الأصل فى الزكاة، أن تكون بنظام:

وطبيعة الزكاة، ووصفها الشرعى الأصيل، أن تدفع إلى بيت مال المسلمين، وإلى من يلى أمرهم من الخلفاء والأمراء[٣]، كما أن طبيعة الصلاة ووضعها الشرعى الأصيل أن تؤدى فى جماعة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١/١٧) (٢٥) باب **﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾**، ومسلم (١/٥٣) (٢٢) باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بكل ما جاء به النبى ﷺ»

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١/٥٢) (٢١) فى الموضع السابق بهذا اللفظ، والحديث فى الصحيحين عن أكثر من صحابى بنحو هذه الألفاظ؛ راجع الموضع السابق فى الصحيحين.

(٣) والمسلمون مكلفون شرعاً بإقامة نظام الخلافة والإمارة، آثمون بالتهاون فيها، والإخلال بها، كما هو واضح من دراسة كتب الحديث والفقه، وكما هو ظاهر من فهم روح الإسلام ومقاصده، وتفيد فى هذا الموضوع مطالعة كتاب (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، وكتاب (منصب الإمامة) لحفيده العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد، وكان المسلمون الأولون يستعظمون أن يقضوا أقصر مدة من الزمان، من غير خلافة وخليفة، وقد اعتاد المؤرخون أن يذكروا بدء السنة من هذه الفترة بقولهم: وحلت سنة كذا والمسلمون من غير خليفة، فكيف لو شهدوا هذه الحقبة الطويلة التى تمر من غير تفكير أو توجع لهذا الوضع الشاذ؟!

تمسك أبي بكر الصديق بهذا الأصل ومحافظته عليه:

وهذا هو الأصل الشرعى، الذى فارق عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا ولقى ربه، وترك المسلمين عليه، فتمسَّك به خليفته وأمينه فى دينه وأمته، وأفقه الناس لهذا الدين وأسراره، ومقاصده، وأغيرهم عليه، أبو بكر الصديق، فجدَّ وَألَحّ على أن يقاتل مَن منع الزكاة عن بيت المال.

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه هذا الخبر مفصلاً، وما جرى بين أبى بكر وعمر-وهما شيخا الإسلام وركناه- من الحديث، وكيف اختلفت وجهة نظرهما حتى وافق عمر، وأقرّ أبا بكر على ذلك، واعترف بعمق نظره، ودقة فهمه، وغيرته على هذا الدين، وإلى القارئ هذه القصة بطولها، كما رواها أصحاب الصحاح[1]:

((عن أبى هريرة رضى الله عنه، لما توفى رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب: فقال عمر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه، إلاّ بحقه، وحسابه على الله تعالى؟ فقال: والله، لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقاً[2]، كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال، فعرفت أنه الحق)).

لماذا وقف أبو بكر هذا الموقف من مانعى الزكاة؟:

وقد بحث العلامة الخّطابي[3]، فى أصناف أهل الرّدة، والبغى، وحقيقة منعهم للزكاة، ومراتبهم، وموقف أبى بكر منهم، ليستطيع به القارئ أن يستعرض الوضع التاريخى فى تلك الفترة وأسباب اختلاف فهم الصحابة وحكمهم عليه، يحُسن أن ننقله هنا باختصار وتلخيص، يقول رحمه الله:

---

(١) صحيح: رواها الجماعة، إلا ابن ماجه. أخرجه البخارى (٢/٥٠٧) (١٣٣٥)، ومسلم (١/٥١) (٢٠)، وأبو داود (٢/٩٣) (١٥٥٦)، والترمذى (٥/٣) (٢٦٠٦)، والنسائى (٥/١٤) (٢٤٤٣).

(٢) فى لفظ مسلم، والترمذى، وأبى داود: ((لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه، بدل العناق)).

(٣) ننقله من كتاب (نيل الأوطار) للعلامة الشوكانى، ٤/١١٩-١٢٠.

«أهل الردّة كانوا صنفين، صنفاً ارتدوا عن الدين، ونابذوا الملة، وعدلوا إلى الكفر، وهم الذين عناهم أبو هريرة رضى الله عنه، وهذه الفرقة طائفتان، إحدهما أصحاب مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة، وغيرهم الذين صدقوه على دعواه فى النبوة، وأصحاب الأسود العنسى، ومن استجابه من أهل اليمن، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدّعية النبوة لغيره، فقاتلهم أبو بكر، حتى قتل مسيلمة باليمامة، والعنسى بصنعاء، وانفضت جموعهم، وهلك أكثرهم. والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين، فأنكروا الشرائع، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الجاهلية، فلم يكن يسجد لله فى الأرض إلاّ فى ثلاثة مساجد، مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس.

والصنف الآخر، هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها إلى الإمام، وهؤلاء على الحقيقة أهل البغى، وإنما لم يُدعوا بهذا الاسم فى ذلك الزمن خصوصاً، لدخولهم فى غمار أهل الردّة، وأضيف الاسم فى الجملة إلى أهل الردّة، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمّهما، وأرخ مبتدأ قتال أهل البغى من زمن على بن أبى طالب عليه السلام، إذ كانوا منفردين فى زمانه لم يخلطوا بأهل الشرك.

وقد كان فى ضمن هؤلاء المانعين للزكاة، من كان يسمح بالزكاة، و لم يمنعها إلاّ أن رؤساءهم صدُّوهم عن ذلك الرأى، وقبضوا على أيديهم فى ذلك كبنى يربوع، فإنهم قد كانوا جمعوا صدقاتهم، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبى بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك، وفرّقها فيهم، وفى أمر هؤلاء، عرض الخلاف، ووقعت الشبهة لعمر بن الخطاب، فراجع أبا بكر وناظره، واحتج عليه بقول النبى ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس، الحديث». وكان هذا من عمر تعلقاً بظاهر الكلام، قبل أن ينظر فى آخره، ويتأمل شرائطه، فقال له أبو بكر: إنّ الزكاة حق المال، يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال متعلقة بأطراف شرائطها، والحكم المعلق بشرطين، لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم، ثم قايسه بالصلاة، وردّ الزكاة إليها، فكان فى ذلك، من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة، ولذلك ردّ المختلف فيه إلى المتفق عليه.

فلما استقر عند عمر صحة رأى أبى بكر، وبان له صوابه، تابعه على قتال القوم،

وهو معنى قوله، فعرفت أنه الحق، يشير إلى انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها والبرهان الذى أقامه نصًّا ودلالة»[١].

فضل موقف أبى بكر وحسن أثره فى الإسلام:

قد كان منع الزكاة عن الإمام ثلمةً كبيرة فى الإسلام، وباباً واسعاً للثورة والفوضى، لو سمح أبو بكر -لا سمح الله بذلك- بفتحه، وتهاون فى سدّه وإغلاقه، لما استطاع أحد من بعده أن يسدّه، وفتح على إثره أبواب أخرى فى أمر الصلاة فقال قوم: لا لزوم للجمعة والجماعة، وحسبنا أن نصلى فرادى أو فى بيوتنا، وفى أمر الصيام قيل: لا لزوم لتوقيته برمضان، أو بمبدئه ومنتهاه، وكذلك الحج الاجتماعى الذى مناسكه معينة، وأوقاته محدودة إلى غير ذلك، وأصبحت الخلافة النبوية، ونظام الإمارة فى الإسلام، الذى ترتبط به الحدود والأحكام، وعزة الإسلام، كبحر العروض اسم ولا ماء، وانفرط عقد الإسلام والمسلمين على أثر وفاة الرسول ﷺ كما انفرط بعد قرون وأحقاب، فكان موقف أبى بكر، الذى لا هوادة فيه ولا ليونة، ولا مساومة فيه ولا تنازل، موقفاً موفّقاً ملهماً من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر فى سلامة هذا الدين، وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته، وقد أقر الجميع، وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف فى مواجهة الردة الطاغية، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروةً عروةً، موقف الأنبياء والرسل فى عصورهم، وهذه خلافة النبوة التى أدى أبو بكر حقها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعائهم إلى أن يرث الله الأرضَ وأهلها.

---

(١) يبدو لى، أن قتال أبى بكر للذين ارتدوا عن الدين، ونابذوا الملة، وعدلوا إلى الكفر، والذين أنكروا الشرائع، وتركوا الصلاة وغيرهما من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية، وهم الذين عدهم الخطابى من أهل الصنف الأول، وكذلك الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة، فأنكروا وجوب الزكاة، وهم الذين عدهم الخطابى من الصنف الثانى، كان قتال أبى بكر ﷺ لهؤلاء جميعاً على أساس أنهم من أهل الردة، وقد كفروا بإنكار ما صح فى هذا الدين بالضرورة، ولذلك قال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال». أما الذين أنكروا وجوب أدائها إلى الإمام فاستبدوا بها واستأثروا، أو فرقوها فى قبيلتهم، ومن كان يسمح بالزكاة، ولم يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأى فأطاعوهم، كان قتال أبى بكر لهم على أساس أنهم من أهل البغى، وقتال أهل البغى ثابت فى القرآن، متفق عليه بين المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿ **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ٩]، هذا والله أعلم بالصواب.

تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها:

وبقى الوضع هكذا بفضل جهاد أبي بكر وصلابته، تُدفع الزكاة والصدقات المفروضة بجميع أنواعها، إلى بيت المال حتى كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، فسمح بأداء زكاة الأموال الباطنة، وهما النقدان، إلى مصارفها ومستحقيها، وأن يتولى ذلك أصحابها بأنفسهم، وبقيت زكاة الأموال الظاهرة، ((وهى المواشى والزروع والثمار)) تدفع إلى بيت المال، يقول الإمام أبو بكر الجصّاص الرازى فى تفسيره(١):

((أما زكوات الأموال، فقد كانت تحمل إلى رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، ثم خطب عثمان، فقال: ((هذا شهر زكواتكم، فمن كان عليه دين، فليؤدّه، ثم ليزكِّ بقية ماله))، فجعل لهم أداءها إلى المساكين، وسقط من أجل ذلك حق الإمام فى أخذها، لأنه عقد عقده إمام من أئمة العدل، فهو نافذ على الأمة، لقوله ﷺ: **((ويعقد عليهم أموالهم))**(٢).

إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة وعقوبته فى الدنيا:

واحتفظت الخلافة الإسلامية -بأنواعها ودرجاتها المختلفة- بحقها فى جباية زكاة الأموال الظاهرة، واستمرَّ هذا الوضع إلى آخر الخلافة العباسية كما يدل عليه كتاب الخراج للإمام أبي يوسف، والكتب التى ألفت فى أدوار مختلفة فى موارد الخلافة وماليتها،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/١٥٥.

(٢) يقول العلامة علاء الدين، أبو بكر الكاسانى الحنفى (م ٥٨٧هـ): ((وأما المال الباطن الذى يكون فى المصر، فقد قال عامة مشايخنا: إن رسول الله ﷺ طالب بزكاته، وأبو بكر وعمر طالبا، وعثمان طالب زماناً، ولما كثرت أموال الناس، ورأى أن فى تتبعها حرجاً على الأمة وفى تفتيشها ضرراً بأرباب الأموال، فوَّض الأداء إلى أربابها))، (البدائع والصنائع: ٢/٣٥).

ويقول العلامة ابن الهمام (م ٨٦١هـ): ((وعلى هذا كان رسول الله ﷺ، والخليفتان بعده، فلما ولى عثمان ﷺ، فظهر تغير الناس، كره أن تفتش السعاة على الناس مستور أموالهم، ففوض الدفع إلى الملاك نيابة عنه، ولم تختلف الصحابة عليه فى ذلك، وهذا لا يسقط طلب الإمام أصلاً. (فتح القدير: ١/٣١١).

حتى زال هذا الوضع الشرعى زوالاً كلياً فى حكومات المسلمين، التى لم تطبق النظام الشرعى، ولم ترث خلافة النبوة فى مناهجها الخلقية، وخصائصها الاجتماعية، وسياستها المالية، فكان ما رأيناه من اضطراب الحياة فى بلاد المسلمين، وحرمانهم من بركات نفاذ أحكام الشريعة الإسلامية على منهاجها الصحيح، وعُذبوا أخيراً بالرأسمالية الغاشمة، وبالاشتراكية الكاذبة، والشيوعية المتطرفة المجنونة، ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة: ٢١].

الزكاة هى الحد الأدنى للبر والمواساة:

كانت الزكاة المشروعة فى الإسلام، هى الحد الأدنى للبر والمواساة فى أموال المسلمين وثروتهم، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً، وهذا الذى تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة، وتعتبره شرطاً للإسلام، وشعاراً للمسلم، وركناً من أركان الدين الأساسية، ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ [التوبة: ١١] والذى ينكرها، ويمتنع عن أدائها -عمداً وإصراراً- يُعتبر أنه خلع ربقة الإسلام، وفارق المسلمين، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيِّها، وأفقهها لدينه أبو بكر الصديق، ووافقه الصحابة رضى الله عنهم، فكان إجماعاً منهم.

إن فى المال حقاً سوى الزكاة:

ولكن الرسول ﷺ-فى حياته الخاصة، وفى ذوقه واتجاهه، وفى تحريضه وترغيبه، وفى وصاياه وتوجيهاته، لخاصة أصحابه، ولمن أراد أن يأنس به، وسَمَت همته- لم يقف عند هذا الحد ولم يعتبره المثل الأعلى فى البر والمواساة، وأداء الحقوق، وقد عبر عن ذلك فى أسلوبه النبوى الموجز المعجز، الذى تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء، بقوله: «إن فى المال حقاً سوى الزكاة». فقد روى الترمذى بسنده عن فاطمة بنت قيس: سُئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة؟ فقال: «إن فى المال حقاً سوى الزكاة، ثم تلا: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية»، وتمام الآية: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**

وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧][(١)].

النظرة النبوية الخاصة إلى الحياة وإلى المال:

وقد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال، وسيرته فى أهل بيته، الذين كان أعظم هذه الأمة براً بهم وحدباً عليهم، كما قال: «خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(٢)]، وسيرته فى أقرب الناس وأحبهم إليه، على نظرته النبوية الخاصة، التى كان ينظر بها إلى هذه الأموال، بل إلى هذه الحياة كلها، بل إلى هذا الكون كله، نظرة تقصر عن تصويرها والتعبير عنها المعاجم، والثروة اللغوية، على سعتها وضخامتها وتُسيء إلى جلالها وسموها، ونزاهتها ورقتها، المصطلحات الاقتصادية الجافة، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته، ويتخلق بأخلاقه، ويستحضر اليوم الآخر، ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ويحن إليه أكثر من حنين السمك إلى الماء، وأعظم من حنين الطائر إلى وكره، فينطلق لسانه قائلاً: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[(٣)]، ويرى أن هذا المال كزبد البحر، أو غثاء السّيل، أو حصى البطحاء، لا يقيم له قيمةً ولا وزناً، ويرى الخلق عيال الله، ويرى نفسه كولى اليتيم، ويفضل لغيره الخصب والرخاء، والسعادة والهناء، ولنفسه وعياله، وأهل بيته الفاقة والجوع، والتقشف وخشونة العيش، يقول: «أشبع يوماً وأجوع يوماً»[(٤)] ويقول:

---

(١) الحديث ضعيف. أخرجه الترمذي (٣/٤٨) (٦٥٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٠٣).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٥/٧٠٩) (٣٨٩٥) والدارمى (٢/٢١٢) (٢٢٦٠) عن عائشة - رضي الله عنها - ، ورواه ابن ماجه (١/٦٣٦) (١٩٧٧) عن ابن عباس إلى قوله لأهلى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري: ٢/٩٤٩ باب «دعاء النبى ﷺ أصلح الأنصار والمهاجرة» برقم ٣٥٨٤-٣٥٨٦ وله أطراف كثيرة فى الصحيحين.

(٤) ضعيف: روى الترمذى (٤/٥٧٥) (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/٢٥٤) (٢٢٢٤٤) وقال الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٧٠٤): ضعيف جداً عن أبي أمامة مرفوعاً «عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً،

«اللهم ارزق آل محمد قوتاً»[1]. ويبلغ أزواجه رسالة الله، وقد صادفت هواه ورغبته، وذوقه واتجاهه، فطاب بها نفساً، وقرّ بها عيناً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِي قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، فلم يكن منهنّ إلاّ أن آثرن الحياة مع الرسول ﷺ، و لم يؤثرن الحياة مع آبائهنَّ، وإخوتهنَّ الذين توسّع عيشهم ولانت حياتهم».

معيشة الرسول ﷺ وأهل بيته:

وكيف كانت الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، التي آثرنها وفضّلنها؟. استمع إلى عائشة الصديقة تتحدث عنها في صدقها الموروث، وتجربتها الواسعة، وخبرتها التي لا خبرة فوقها، «ولا ينبئك مثل خبير».

«ما شبع آل محمد من خبز البُرّ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين، لا يوقد في بيتنا نار، وما كان طعامنا إلاّ التمر والماء، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد، إلاّ كسرة خبز من شعير على رف لي»[2].

ويدخل عليه عمر يوماً، فيراه على حصير، قد أثر في جنبه، ويرفع رأسه في البيت فلا يجد إلاّ إهاباً[3] معلقاً، وقبضة من شعير، وحصيراً تكاد تبلى، فيبكى عمر، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟، فيقول عمر: يا نبى الله! ومالى لا أبكى، وهذا الحصير، قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلاّ ما

= فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

(١) **صحيح**: رواه البخاري: ٢/٩٥٧ باب «كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا» برقم (٦٠٩٥)، ومسلم (٢/٧٣٠) (١٠٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) **صحيح**: رواه البخارى، ومسلم، وغيرهما والحديث الذى ذكر المصنف جمع من عدة أحاديث في صحيح مسلم (٤/٢٢٨٢) برقم (٢٩٧٢، ٢٩٧٣، ٢٩٧٤، ٢٩٧٥) من حديث عائشة – رضي الله عنها –، واتفقا البخارى ومسلم من حديث أبي هريرة–ﷺ على بعضه، أخرجه البخارى (٥/ ٢٠٥٥) (٢٠٥٥)، ومسلم في الموضع السابق برقم (٢٩٧٦).

(٣) **الإهاب**: كيس من جلد.

أرى، وذاك كسرى وقيصر، فى الثمار والأنهار، وأنت نبى الله وصفوته؟، فيقول عليه السلام: أفى شك أنت، يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا»[١].

تحرجه فى المال الفاضل وقلقه من بقاء مال الصدقة:

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التى يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين، فعن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ عندى في مرضه ستة دنانير أو سبعة، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلنى وجع النبى ﷺ، ثم سألنى عنها: ما فعلت الستة أو السبعة؟ قلت: لا والله، لقد كان شغلنى وجعك، فدعا بها ثم وضعها فى كفه، فقال: ما ظن نبى الله، لو لقى الله عز وجل، وهذه عنده؟»[٢].

وكان لا يتأخر فى وضع هذه الأموال فى مواضعها، وإيصالها إلى غايتها، ولا يرجئ ذلك إلى وقت آخر، وقد روى عن عقبة بن الحارث قال: «صليت وراء النبى ﷺ بالمدينة العصر، فسلم، ثم قام مسرعاً، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا، فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته»[٣]، وفى رواية قال: «كنت خلفت فى البيت تبراً من الصدقة، فكرهت أن أبيته».

حث وتحريض على إنفاق الفاضل من الحاجة:

وقد أوصى أصحابه وأمته، بمثل هذه الأخلاق، وبمثل هذه السيرة، وبمثل هذه النظرة إلى المال وصايا مُرقّقة مُرغّبة، من يقرؤها فى كتب الحديث، أن ليس لأحد حقٌّ فى فضل ماله، وزائد متاعه، ويتحرج بعد ما يقرؤها ويطّلع عليها، من التّنعم بما بسط الله له فى

---

(١) صحيح: اقرأ الحديث فى الجامع الصحيح، للبخارى، (٨٧١/٢) (٢٣٣٦)، (١٩٩١/٥) (٤٨٩٥)، ومسلم (١١١١/٢) (١٤٤٩)، ومسند ابن حنبل (٣٣/١) (٢٢٢) من حديث عبد الله بن عباس- ﷺ وسنن ابن ماجه، والألفاظ متقاربة.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١٠٤/١) (٢٤٧٧٧) وضعفه الأرناؤوط.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٩١/١) (٨١٣) من حديث عقبة ﷺ

الرزق والتَّمتع بما وسَّع الله له فى الدنيا، ويضيق ذرعاً بميسور العيش، وفضول الحياة، وأطايب الطعام وأنواع الثياب، وما هو إلاّ حثّ وتحريض، وترغيب وتحريض، وأسوة الرسول ﷺ التي يقول الله عنها: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقد صحّ عنه، أنه قال: «من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له»[١]، وقال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة، فليذهب برابع»[٢]، وقال: «ما آمن بي من بات شبعان، وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم»[٣]. وقد روى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وقال له: «اكسنى يا رسول الله، فأعرض عنه، فعاد الرجل يقول: اكسنى يا رسول الله، فقال له: أما لك جار له فضل ثوبين؟ قال: بلي! غير واحد، قال: «فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة»[٤].

قيمة الإنسان وقيمة مواساته في الدين الإسلامي

ورفع قيمة الإنسان، وقيمة مواساته وقضاء حاجته، إلى أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصوّر فوقه، وأصبح من يُقصرٍّ فى ذلك، كمن قصَّر فى جنب الله، فقد جاء فى حديث قدسي: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! فيقول ابن آدم: يا رب كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدى فلاناً، مرض فلم تعده؟ أما إنك لو عدته، لوجدتنى عنده. يا ابن آدم، استطعمتك، فلم تطعمني! فيقول: يا رب، كيف أُطعمك، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدى فلاناً، استطعمك، فلم تطعمه؟ أما إنك لو أطعمته، لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك، فلم تسقني! فيقول: يا رب كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ فيقول:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/١٣٥٤) (١٧٢٨) باب «استحباب المواساة بفضول المال» أبو داود (٢/ ١٢٥) (١٦٦٣) عن أبي سعيد الخدرى ﷺ.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١/٢١٦) (٥٧٧) الترمذى، وقال حسن صحيح.

(٣) حسن: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير(١/٢٥٩) (٧٥١) والبزار، وإسناده حسن.

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط.

استسقاك عبدى فلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته، لوجدت ذلك عندي»[1]. وقد كان غاية ذلك، أن قال-ولا منزلة فوقه فى العدل والفضل، والمواساة والإنصاف -: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

أسوة الرسول ﷺ وتعاليمه فى حياة الصحابة رضى الله عنهم:

وقد أثَّرت أسوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فى حياة الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فى أذواقهم واتجاهاتهم، وسيرتهم فى أهلهم، وفى أموالهم، التأثير المطلوب المتوقع، وسرت هذه الروح فى عروقهم وعقولهم وأخلاقهم، حتى أصبحت حياتهم صورة -بقدر الإمكان- لحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال، أقربهم إليه وألصقهم به، فتجلت فى حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة. وقد روى التاريخ من أخبار زهدهم وبرّهم ومواساتهم، وتورّعهم فى ذات نفسهم وأهلهم، وإيثارهم لشظف العيش، وقلة الأسباب والتقشف، ما لا يزال ذروة فى تاريخ الأخلاق والديانات، لا يصل إليها السابقون فى الأمم.

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة وأهل البيت:

فمن ذلك ما رواه المؤرخون، أن امرأة أبى بكر الصديق خليفة المسلمين، اشتهت حلوى، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريها به، فلما عَلِمَ ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال، وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل من ثمن الحلوى، لأنه ليس من الحاجات التى يعيش عليها الإنسان، وليس بيت مال المسلمين لتترفّه به أسرة الحاكم، وتتوسَّع به فى المطاعم.

وزهد عمر فى حياته وتقشّفه مضرب المثل فى التاريخ، ويكفى أن تقرأ خبر رحلته - بصفته خليفةً وأميراً للمؤمنين- إلى الجابية: «فكان على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب،

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٤/١٩٩٠) (٢٥٦٩) باب «فضل عيادة المريض».

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (١/١٤) (١٣)، ومسلم (١/٦٧) (٤٥) من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه.

وطاؤه كساء انبجانى ذو صوف، هو وطاءه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة، أو شملة محشوة ليفاً، هى حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه»[١].

وأما عثمان، وهو أكثر إخوانه مالاً، وأوسعهم أسباباً، فقد روى شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه، كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل فى بيته، ليأكل الخبز والزيت، وأما على بن أبى طالب فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة، فيقول:

«يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكر، يقلّب كفه، ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، كان -والله- كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه»[٢].

وكان تأثير هذه الأسوة فى الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها، وطول عشرتهم له: فكانت لعائشة أم المؤمنين، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اليد الطولى فى ذلك، وقد روى المؤرخون: «أنها تصدقت مرة بمئة ألف درهم وليس عليها إلا ثوب خلق، وكانت صائمة، فقالت لها خادمتها: لو أبقيت شيئاً لتفطرى عليه! فأجابتها: لو ذكّرتنى لفعلت»، وتصدّقت بمئة ألف وهى جائعة، فنسيت نفسها وذكرت الناس![٣].

المواساة والإيثار فى المجتمع الإسلامى الأول:

وسرت هذه الأخلاق وهذه الروح فى المجتمع الإسلامى الأول، فكان ذلك دأب الصحابة وديدنهم، يقول ابن عمر رضى الله عنهما: «لقد أتى علينا زمان -أو قال: حين- وما أحد أحقُّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم»[٤].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/٥٩-٦٠.

(٢) صفوة الصفوة، لابن الجوزي.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك (٤/١٥) (٦٧٤٥)، وسكت عنه الذهبى فى التلخيص.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد (١/٥٢) (١١١).

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة فى المواساة، تكاد تبلغ حد المساواة، وحسن الجوار يكاد يبلغ قمة الإيثار، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه، قال: «أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: فلان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر، حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة»[1].

وانتقل هذا الشعور الدقيق، والحس المرهف، والغرام بالمواساة، إلى الأجيال الإسلامية اللاحقة، وكان للتابعين بإحسان القدح المعلّى فى ذلك بطبيعة الحال، يقول سيد التابعين الحسن البصري: «لقد عهدت المسلمين وأن الرجل منهم يصبح، فيقول: يا أهليّه يا أهليّه! يتيمكم، يتيمكم، يا أهليّه! يا أهليّه! مسكينكم، مسكينكم، يا أهليّه يا أهليّة! جاركم جاركم»[2]. وكان لبنى هاشم، وسادة أهل البيت قدَمُ صدقٍ فى هذا المضمار، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن على وعبد الله بن جعفر، ورقّة عاطفتهما الشيء الكثير، وكان لعلى بن حسين بن علي- رضى الله عنه وعن آبائه- التقدم والرئاسة فى هذه المآثر والمكرمات، قال محمد بن إسحاق: «كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون؟ ومن يعطيهم؟ فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين»[3].

المواساة والإيثار فى مختلف العصور والأجيال:

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة، وهذا الذوق الرفيع، وهذا الحس المرهف، وهذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم وأموالهم، ومثّلها الراسخون فى العلم والدين، والربّانيون والمربّون، أجمل تمثيل وأروعه فى كل عصر وفى كل بلد، وزخرت

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: ١٧٤/٢.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد: (٦١/١) (١٣٩).

(٣) أكثر الأمثال والحكايات، التقطناها من كتاب (اشتراكية الإسلام) لصديقنا المرحوم مصطفى السباعي.

بأمثالها وروائعها كتبُ التاريخ والتراجم، وما فاهّا وأفلت من استقصاء مؤلّفيها البارعين، فذكر فى غير مظانه أغرب وأروع مما حوته كتب التاريخ. وكان شعار الربانيين والشيوخ المربين ومبدؤهم، أن لا يبيت عندهم درهم ولا دينار، وأن يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء والأغنياء والأثرياء، وقفاً على فقراء البلد وذوى الحاجات، الذين لا سبيل لهم إليها، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن «تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم»، فكانت مائدتهم من أوسع الموائد وأغناها، لجميع طبقات الناس، كما كان قلبهم من أوسع القلوب وأسخاها لجميع الناس، وقد أثر عن سيدى عبد القادر الجيلانى، الذى يعبر فيه عن جميع إخوانه، ومن كان على شاكلته، أنه قال: «كَفّى مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءنى ألف دينار، لم تَبت عندي»[١]، وقوله: «أود لو كانت الدنيا بيدى أطعمتها الجائع»[٢].

وكان لأبعد ثغور الإسلام، ولأقصى أطراف العالم الإسلامى، من هذه السيرة، ومن هذا الضرب من الناس، ومن هذا الطراز الإنسانى نصيب غير منقوص. وتراجم هؤلاء المخلصين الرّبانيين، والدعاة المربِّين حافلة بنوادر الحكايات، وروائع الأخبار فى الزهد والإيثار، والمواساة، والمساواة، والأريحية، والنهامة ببذل الأموال. وحسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التى تكاد تكون مطّردة فى حياة هذه الطبقة، وسيرها متشابهة، وأخلاقها متشاكلة، كتشابه الأوراق فى الشجرة، فكلهم من غرس تعاليم النبوة، وفروع شجرة: ﴿ **أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوى، من رجال القرن الثامن الهجرى، يقول خادمه: إنه كان يترك الطعام المنوّع الفاخر عنده للتسحُّر. فكان يجتزئ بلقيمات؛ ويقول: أجده فى بعض الأيام، لم يتناول منه شيئاً، وكنت أراه، لا يُفطر إلاّ بما يقيم الصلب. فقلت له يوماً: نفسى فداك، كيف يحافظ سيدى على حياته وصحته مع هذا القليل من الغذاء؟!

(١) قلائد الجواهر، ص ١٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠.

ففاضت عينه على ذلك، وغلبه البكاء، وقال: يا فلان! كم من فقير بائس، وكم من مسافر بات فى المساجد والطرقات على الطّوى، لم يجدوا لقمة يتقوّون بها، فكيف أسيغ هذا الطعام، والنّاس يبيتون جياعاً، ويصبحون جياعاً[1]. فلمّا دنت وفاته طلب أصحابه وقال لهم: إذا ادّخر إقبال (خادمه) شيئاً من الحبوب والغلات، فاشهدوا أنى برئ من ذلك وأنه هو المسؤول أمام ربّه، فقال إقبال: إننى لم أترك شيئاً، وقد تصدّقت بكل ما وجدته إلا حبوباً يأكلها المقيمون فى هذه الزاوية بضعة أيّام، فقال: ادعوا لى الناس، فلمّا حضروا قال: دونكم الحبوب، وما تجدون فى هذه الزاوية من الرزق والطعام، فنهبوه نهباً، وأمرهم بأن يكنسوا ذلك المكان ويجعلوه قاعاً صفصفاً.

والنموذج الثانى ما رواه مؤرخ هندى عن الشيخ السيّد محمد سعيد الأنبالوى وهو من رجال القرن الثانى عشر فيقول: «زاره مرة روشن الدولة، وكان أميراً من أمراء السلطان (فرّخ سير ملك الهند المغولي)، وقدّم ستين ألف روبية[2] لبناء زاويته، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال فى مكان ويستريح، فانصرف (روشن الدولة) فأرسل الشيخ إلى الفقراء، وأرسل هذا المال إلى الأيامى والمساكين، وأهل الحاجة فى ضواحى البلد، وفى المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس، فلما أتى روشن الدولة قال له: «لا يبلغ الثواب فى بناء العمارة ثواب خدمة ذوى الحاجة، والفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله».

ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير، والأمير روشن الدولة والأمير عبد الله خان، وأمر بثلاث مئة ألف روبية[3].فوزّعها كلّها فى القرى المجاورة، والأشراف الساكنين فيها»[4].

وقد يقول القارئ إن هذه سيرة طبقة زهدت فى الدنيا، ورفضت أسبابها وعاشت فى عزلة عن الدنيا وعن النّاس. فهل هناك أمثلة لهذه الزهادة والبرّ والمواساة والاستغناء والإيثار فى طبقات أُخرى من هذه الأمة؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول: نعم! وفى كل

---

(١) سير الأولياء.

(٢) تساوى أربعة آلاف جنية إسترليني، وإن قدرت قوتها الشرائية ذلك اليوم، تصبح أضعافاً مضاعفة.

(٣) تساوى (١٤٠٠٠) جنيه إسترليني.

(٤) نظام التعليم والتربية (فى أردو) المجلد الثاني: للعلامة (مناظر حسن الكيلاني).

طبقة من طبقات هذه الأمة، وفى كل جيل من أجيالها، وفى كل بيئة من بيئات دنيا الإسلام من ائتسى بالرسول صلى الله عليه وآله سلّم، وأتى بغرائب فى هذه الأخلاق وفى سيرته فى ماله وفى عياله وجيرانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ولكن التاريخ لم يسجّل إلاّ مآثر من لفت نظره وفرض عليه ذكره وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته، من الملوك والأمراء، والصلحاء، والعلماء، ونقتصر هنا على طبقتين فحسب، وهما طبقة العلماء الأعلام، وطبقة الملوك والحكام.

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميّة الذى ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف، ويعتقدون أن الجانب العلمى فيه يطغى على الجانب العاطفى، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري:

«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوّمة، والأنعام، والحرث، فيهب ذلك بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلاّ ليهبه، ولا يحفظه إلا ليُذهبه»، وقد بلغ من السخاء والإيثار أنه كان يخلع ما كان عليه من ثياب، ويقدمها إلى السائل، إذا لم يجد شيئاً آخر، يقول الحافظ ابن فضل الله: «كان يتصدّق، حتى إذا لم يجد شيئاً، نزع بعض ثيابه، فيصل به الفقراء»، ويقول أحد الرّواة: «وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسه»[1].

ونختار من طبقة الملوك والحكام، السلطان صلاح الدين الأيوبى، الذى حكم أكبر دولة إسلاميّة فى عهده، وهزم أقوى جيوش فى عصره، يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد، فيقول: «إنه ملك ما ملك، ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، ومن الذهب إلاّ جرام واحد صورى، ما علمت وزنه».

ولمّا مات هذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية فى آسيا إلى صحراء النوبة فى الجنوب فى أفريقيا، لم توجد فى خزانته ما يكفنونه به، وينفقون على تجهيزه، يقول ابن شدّاد:

«ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا

(١) الكواكب الدرية.

بالقرض، حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين، وأُخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك، وجميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه»[1].

وليست هذه قصة جيل واحد، ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس الفكريَّة والروحيَّة الكثيرة، فلم يزل هذا شعار العلماء الربَّانيين، والشيوخ الكاملين، ولم يزل مبدأهم «لكل يوم رزقه وقوته»، فلم يكونوا يدخرون شيئاً ولا يشحُّون بشيء خشية الإقتار، وعلى ذلك أدركنا شيوخنا وأساتذتنا، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شئ يحتاج إليه عباد الله، أو يبيت عندهم درهم أو دينار، وهم فى غنى عنهما، وكان ذلك فى غير رهبانيَّة أو تحريم لما أحلّ الله، وكذلك فى غير تشريع لما لم يشرعه الله، ولا فى تشديد فيما لم يشدّد الله فيه، ولا فى إجبار وإرهاق، ولكنه خوف من المحاسبة ورأفة بالخلق، وتأسٍّ بالرسول ﷺ وسيرته فى الإنفاق والإيثار، وتطوع وتبرع، وترغيب صامت بالأمثلة العملية، والنماذج الحية، وكان لها التأثير العميق فى النفوس والقلوب، ما يحمل التلاميذ والمحبين على التقليد، والإتِّباع[2].

امتياز المجتمع الإسلامى فى العصر الأخير:

فكان المجتمع الإسلامي- على علاّته وعلى أدوائه الكثيرة، التى لم يزل المصلحون يحاربونها- أفضل المجتمعات البشرية فى عاطفة البر والمواساة، التى تغلغلت بفضل التعاليم الإسلامية فى أحشائه، وأكثرها تحرراً من عبادة المادة والمعدة، يكثر فيها الأفراد الذين يثورون على سلطان المادّة، ويخضعونها لسلطان الدين، والمُثل الخلقية الإسلامية، فكان التنافس التجارى والأثرة الفردية أو الطبقية، أضعف فيه منه فى المجتمعات التى لا تؤمن بحياة غير هذه الحياة، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخاء[3]، وتسوقها المثل

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، لابن شداد ص ٣٥١.

(٢) اقرأ نماذج هذا الإيثار والصفاء فى كتابنا (ربانية لا رهبانية) طبع دار الفتح، فى بيروت.

(٣) حدثنى بعض الثقات المعمَّرين الذين أدركوا عهد الأشراف فى الحجاز، أن تجار مكة كانوا فى ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم والنظر فى مصالحهم. والإخلاص والإيثار لهم، قال:

الاقتصادية سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامى، رغم أنه بلغ منتهى الضعف فى العصر الأخير، وكان أكثر استعداداً وقابلية للتقدم فى مضمار العدالة الاجتماعية، وتحقيق المُثل الإنسانيّة العليا، من كل مجتمع بشرى، لخضوعه للمبادئ الإسلامية فى قليل أو كثير، ولوجود الرباط الإيمانى الذى يربط أفراده ويجمع أشتاته.

مواساة طوعيّة شاملة أم مساواة إجبارية محدودة؟:

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالإنسان والإنسانية، ففضّلوا المساواة الإجبارية المحدودة فى المال، على المواساة الطوعية الشاملة للحياة، ونسوا أو تناسوا، أن الأموال ليست هى حاجة الإنسان الوحيدة، وأن المساواة فيها أو الشركة لا تسدّ كل فراغ فى نفسه، وفى مشاعره، وأحاسيسه، وفى حياته، ولا تضمد كل جرح من جروحه. إن حاجته إلى مواساة شاملة للحياة كلها، أشد من حاجته إلى مساواة فى المال كله، وفى المرافق كلها، وفى الموارد بأسرها، وقد تفعل كلمة رقيقة، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم، ما لا

= «كان بعض التجار، إذا أتاه زبون فى آخر النهار، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه، وما حدده من الربح والوارد اليومى، ولم يكن جاره سعيد الحظ فى ذلك اليوم، قال له فى لطف وهدوء: دونك هذا الدكان، الذى هو بجوارى،تجد عنده ما تجده عندى، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم، فهو أحق بأن تشترى منه».

ويتحدث الأستاذ محمد أسد النمساوى، عن مدينة إسلامية عربية كبيرة (هى دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي: «وقفت على ذلك الاستقرار الروحى، فى حياة سكانها، إن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يرى فى الطريقة التى كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر». ويذكر تلك الطرق، ثم يقول: «وفى الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً، أولئك التجار فى الحوانيت الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئك كانوا يبدون، وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه فى عهدة جاره ومزاحمه، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت. وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه -يتساءل فى ما بينه وبين نفسه- ما إذا كان ينتظر عودة البائع، أو ينتقل إلى الدكان المجاور؟ فيتقدم التاجر المجاور دائماً -التاجر المزاحم- ويسأل الزبون عن حاجته، ويبيعه ما يطلب من البضاعة -لا بضاعته هو، بل بضاعة جاره الغائب- ويترك له الثمن على مقعده. أين فى أوروبا، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟» (الطريق إلى مكة ص ١٦٧).

تفعله الأموال الطائلة، والعطايا السخية، وهو فى حاجة إلى مساعدة إخوانه، وإعانتهم فى بعض الأحيان، وإلى مشاركتهم فى آلامه ومتاعبه فى أحيان أُخرى، وإلى رقة شعورهم ودقة إحساسهم حيناً وإلى لين عريكتهم، ودماثة خلقهم، وبشرهم، وحسن لقائهم حيناً آخر.

ولذلك كان التوجيه النبوى أشمل لأنواع البر والمواساة وأصدق تعبيراً عن الأحاسيس الإنسانية، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يذكر طرق البر وأنواع الصدقة: «تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1]. وفى حديث آخر قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف! قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة»[2]. وفى حديث آخر: «قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قلت: يا رسول الله: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»[3]. وفى حديث آخر: «وتبسُّمك فى وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة»[4].

وكانت نتيجة ذلك الاختيار غير الموفق، وإيثار المساواة، أو الاشتراكية التى تفرضها الحكومة، على المواساة التى تنبع من أعماق القلوب، و تتدفّق فى نواحى الحياة، وفى عروق المجتمع، أن قام مجتمع فى هذه البلاد (الشيوعيّة والاشتراكية)، لا يعرف أهله لذّة

(١) **صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (١٠٩٠/٣) (٢٨٢٧)، ومسلم (٦٩٩/٢) (١٠٠٩) من حديث أبى هريرة ﷺ بنحوه.

(٢) **صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (٥٢٤/٢) (١٣٧٦)، ومسلم (٦٩٩/٢) (١٠٠٨).

(٣) **صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (٨٩١/٢) (٢٣٨٢)، ومسلم (٨٩/١) (٨٤) من حديث أبى ذر ﷺ.

(٤) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٣٩/٤) (١٩٥٦) من حديث أبى ذر -ﷺ-، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨)عن أبى ذر مرفوعاً.

المواساة لبنى الجنس، والعطف على الإنسانيّة، والرقّة للضعفاء والفقراء، والإخلاص والنصيحة للشركاء والزملاء، ويصبحون كلّهم تجّارًا متنافسين، وأعداءً متباغضين، لا يثق أحد بأحد، ولا يتنازل أحد لأحد، بعضهم يتجسّس على بعض، ويلفّق عليه الأخبار، ويُزوِّر عليه القضايا، ويشمت بمُصابه، ويحزن لسعادته، ويتحوّل البلد كلّه إلى ميدان حرب، أو بناء محكمة.

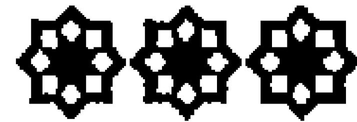
وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد النّاس الشّعور بالمسؤوليّة، والنّهوض بالتّبعات الذى فى سرّ الشرف الإنسانى، وتخلّوا عن كل عُهدة ومسؤوليّة، وأصبحوا هملاً وسوائم، لا همّ لها، إلاّ العلف والرّتع، والشبع المفرط، وانتقلت كل مسؤوليّة وكل تبعة إلى الحكومات، وإلى الجهاز الإدارى، وإلى القوانين والعقوبات، وأصبح المجتمع غلاماً قاصراً، لا تمييز عنده ولا عقل، فالحكومة هى التى تأخذ وتعطى، وتُهيئ لكل فرد حاجته، وتتكفّل بذلك، فلا معنى للعطف والمواساة، ولا معنى للسخاء والإيثار، ولا حاجة إلى شئ من ذلك، فكلّ شيء مكفول مضمون، والنّاس كالآلات الصمّاء.

لقد تجلّت قواعد المواساة الطوعيّة، ونتائجها الباهرة، وما جرَّت على أهلها، من الرّاحة والهدوء والسعادة الداخليّة، والثقة المتبادلة، والحبّ المشترك، والسّلام الشامل، ولذّة الروح، ورضا الضمير، والاعتزاز بالإنسانيّة والتفاؤل فى الحياة، وشعور كلّ فرد بمسؤوليته وواجبه، لقد تجلّى كل ذلك فى المجتمع الإسلامى المثالى الأول فى أروع مظاهره، وأجمل مناظره، وأعمق معانيه، ويتجلى فى كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواساة الطوعيَّة الشاملة، مقابل المساواة الإجباريَّة المحدودة، أو الاشتراكيّة الضيّقة الجامدة، فأعضاء المجتمع متحابّون، متناصحون، شهداء بالخير يُزكى بعضهم بعضاً. وكل جيل يشهد للجيل الذى سبقه بالفضل والنسبق، ويدعو له بالقبول والمغفرة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ذلك هو المجتمع الذى كان كل عضو من أعضائة مرآة لأخيه يقيسه على نفسه، فينفى عنه كل تهمة، ويبرّئه من كل نقيصة، فقد قال الله تعالى:
﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، المجتمع الذى ضرب فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلّم مثلاً بليغاً، فقال:

«مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّي»(١). المجتمع الذى كل عضو فيه حارس كريم، وناصح أمين لصاحبه، فقد جاء فى الحديث: «المسلم أخو المسلم لا يخونه،ولا يكذبه،ولا يخذله،كلّ المسلم على المسلم حرام،عرضه،وماله،ودمه»(٢).

حين أصبحت الحياة فى بلاد كثيرة شقاءً وجحيماً: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وكلّما جاء (دكتاتور) انتقد السابق، ورماه بالغدر والخيانة، وكلّ من تسلّم زمام القيادة، انتقم من أعدائه ومنافسيه، انتقاماً شديداً واضطهد وحاكم، وسفك الدماء، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] .

فمن أبى إلاّ الطريقة الشاقّة الطّويلة، والتجربة المرهقة العقيمة، قيل له ولأمثاله:
﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بَالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] .



(١) **صحيح**: حديث متفق عليه (٢٢٣٨/٥) (٥٦٦٥)، ومسلم (١٩٩٩/٤) (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٢٥/٤) (١٩٢٧) من حديث أبى هريرة-ﷺ-، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٠٦).

الصَّوْمُ

الصَّوْم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذينَ من قَبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

مخلوق وسط بين الملائكة والحيوانات:

خُلق الإنسان وسطاً بين الملائكة والحيوانات، ورُكِّبت فيه طبائع هذين الجنسين المتناقضين تركيباً لطيفاً، حكيماً بديعاً، فهو مزيج غريب من الخواص الملَكية، والخواص الحيوانية، ومن الأخلاق الإلهية، والعادات الحيوانية، ذلك لأن منصبه الذى رُشِّح له، وغايته التى طُلب منه أن يبلغها ويحققها، ووضع فيه استعدادها وحبُّها، لم يُرشّح له الملائكة، و لم يُخلق له الحيوانات، وذلك منصب الخلافة، ومركز الأمانة، وغاية العبادة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦، ٥٧].

مقتضى الخلافة ولوازمها:

وكان منصب الخلافة يقتضى المناسبة القوية، بالمستخلف المنيب، والمناسبة القوية بالمكان الذى يتولى الخلافة فيه، والمخلوق الذى يتولى السيادة عليه، والحكم فيه، فأخذ من الأول أشباح أخلاقه وظلال صفاته، كسموٌّ ونزاهة، وصمدية وغنى، ورحمة وكرم، ورأفة وبر، وصبر وحلم، وقوة وقهر، وصفاء وتجرد، وأمن وسلام. وقد ظل فى جميع أطواره البشرية، وأدواره التاريخية يجد اللذة ويعتقد العزة فى هذه الأخلاق ومظاهرها، ويخضع لحملتها وأصحابها، ويدين لهم بالحبّ والإجلال، إذا تجرد عنها وعجز عن

التحلى بها، أو تقاصرت عنها همته، وضعفت إرادته.

وأخذ من الثانى خواصّه وطبائعه، وشاركه فى مواضع ضعفه، ليشاركه فى آلامه وآماله، ويُحسن سياسته، وينتفع بكنوز الأرض وخيراتها، ويتمتّع بنعمها وطيّباتها، ويضع ما خُلق فيه مواضعه، فوُضعت فيه شهوة الطعام والشراب، ورُكّبت فيه الغريزة الجنسية، وخُلق فيه الجوع والعطش، وعُجنت طينته مع اللذة وحبها وطلب المزيد الجديد، وأُلهم الصناعة والمدنية، والتأنّق فى الطعام والشراب.

تجاذب الروح والجسد إلى مركزهما وخصائصهما:

ولذلك كان مجموعاً من روح وجسد، فالروح هى التى تجذبه إلى أصلها ومنبعها، وتذكّره بمنصبه ومركزه، وغايته ومهمته، وتفتح فيه الكوّة إلى العالم الذى انتقل منه، وإلى سعته وجماله، ولطافته وصفائه، وتُثير فيه الأشواق والطموح، وتبعث فيه الثورة على المادة الكثيفة الثقيلة، وتُزيّن له الانطلاق من القفص الضيق الخانق، وإن كان من ذهب، والتحليق فى الأجواء الفسيحة التى لا نهاية لها، وفك السلاسل والأغلال من عادات ومألوفات، ولذّات وحاجات، ولو حيناً بعد حين، وفى شهور وسنين، وتحبب إليه الجوع والعطش مع وفرة الطعام وكثرة الشراب فيشعر فيهما بلذه، لا يشعر بها فى أطايب الطعام والشراب، ويعدُّ ذلك الوقت القصير الذى يمضى فى فراغ الخاطر وصفاء النفس، وخفّة المعدة، وإشراق الروح، والتجرد من الشهوات، والتحرر من النظام الرتيب الخشيب، قيمة الحياة ولذّتها، وسرور النفس وبهجتها، فلا يزال يحن إليه حنين الطائر إلى الوكر، وحنين السمك إلى الماء، وذلك كله صنع الروح التى أُودعت فيه، وانتقلت إليه من عالم الغيب: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[الإسراء: ٨٥]، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص: ٧٢].

والجسد هو الذى يجذبه إلى أصله ومركزه، وهى الأرض- بكثافتها وتبلدها، وثقلها وسفالتها- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات: ١١]، ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، فإذا ضعف سلطان الروح، أو

زال حكمها، وتقلّص ظلها، وملك الجسد زمام الحكم، استرسل الإنسان فى لذاته وشهواته، ورتع فيها رتع البهائم السائمة، وجُنَّ بها جنوناً، وأبدع فيها ألواناً وفنوناً، وتخطّى حدود العقل والعرف ، والصحة والطب، والعدل والشرع، وانصرفت همته وذكاؤه، وإبداعه وعبقريته إلى التفنن والتدقيق، والإسراف والإكثار من أنواع الطعام والشراب، والتهامها ثم الهضامها، وما يبعث فيه الشهية، ويُوقظ فيه الجوع، ثم يعينه على الهضم، ويعدّه للوجبة الثانية، «فيصبح وهو فى أوج مدنيته وحضارته، وقمة علمه وثقافته، كحمار الطاحون أو كثور الحرث، يدور بين المطعم والمرحاض، ومائدة الطعام والبالوعة»[1] ، لا يعرف سوى ذلك مبدأً ومعاداً، ولا يعرف غير الطواف بينهما شغلاً وجهاداً، فتموت فيه كل رغبة إلا رغبة الطعام والشراب، ويتبلد فيه كل حسٍّ إلا حس اللذة والمتعة، ويزول عنه كل همٍّ، إلاَّ هم الكسب ليأكل، والأكل ليكسب.

ولا تصوير أدق وأصدق من تصوير القرآن المُعجز: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢]، وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذى تحرر من سلطان الروح، وحرم توجيه النبوة وإرشادها، وإنقاد للنفس والهوى، ونتيجة انجذابه إلى أصله ومصدره: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

أثر انتصار كل من الروح والجسد فى حياة الإنسان فى تاريخ الأديان والأخلاق:

وما تاريخ الإنسان الدينى والخلقى، إلا قصة صراع بين الطبيعتين، وتأرجح بين نهايتين، فأحياناً تغلبت الطبيعة الأولى، وتطرفت، فابتدعت الرهبانية، وغلت فى التقشف فى الحياة، ورفض الطيبات والمباحات وإرهاق الطبيعة وإجهاد النفس، فأطال الإنسان الجوع وأدام السهر، والتجأ إلى الغابات والمغارات، ورأى السعادة والسمو الروحانى فى تعذيب النفس وإيلام الجسم. وما قصة غُلاة القرون الوسطى فى أوروبا بخبر مجهول[2]:

---

(١) الفكرة مقتبسة من مقال للأستاذ عبد البارى الندوى فى مجلة (البعث الإسلامي).

(٢) اقرأ كتاب (تاريخ الأخلاق فى أوربا) (History of Europian-Morals) للأستاذ «لبكي»، أو =

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّه فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم تكن نتيجة ذلك إلا أن ضعفت الأجسام والعقول، وانحلت الروابط، وتعرض المجتمع وانسحب من ميدان الكفاح والمسئولية، واتخذ (الملَك) له المثل الأعلى وصار يحسده، ويطمح إليه بعدما كان محسوداً للملائكة ومسجوداً لهم.

وتغلّبت الطبيعة الثانية، الطبيعة الجسديّة الأرضية، أحياناً كثيرةً، فانفلت الإنسان من كل قيد من قيود العقل والشرع، ومن كل سلطة من سلطات الروح والأخلاق، وانساق لدواعى المادّة والمعدة، وانجرف معها انجرافاً، فأمعن فى إرضاء شهواته البدنيّة، وتحقيق رغباته الماديَّة، لا يعرف لذلك حدًّا ولا نصاباً، فانطفأت شعلة الروح والقلب، وتضخّمت المَعدة على حساب العقل والضمير وتوسّعت، فصار لا يكفيه قوت أسرة أو قبيلة، ونشأت فى جسمه معدة صناعة خيالية، وفى حياته جوعة وهميّة أسطوريّة، لا يُشبعها أعظم مقدار من الطعام والشراب، ومن الذخائر والمستودعات، ومن الإيراد والغلاّت. فنشأت مظالم وجرائم، وأصبح الإنسان حيواناً مفترساً ضارياً، يفترس بنى نوعه، ويزدرد أفراد أسرته، وما قصة الحروب والغارات، والفتوح والانتصارات– حاشا الجهاد الدينى المقدّس– إلاّ قصة الجشع الفردى، أو الجماعى، وقصة الغرام بالتمتُّع والرّئاسة، والعلوّ فى الأرض.

تأثير التخمة والنهامة فى الأخلاق والأذواق:

وإذا تغلّبت هذه الطبيعة الحيوانيّة، وملكت زمام الحياة، واستحوذت على مشاعر الإنسان وحواسّه، وأصبحت (المعدة) هو القطب الذى تدور حوله الحياة، شقّ على الإنسان كل ما يحول بينه وبين رغبته، وما يشغله عن إرضاء نهمته، وكل ما يذكره بمبدئه ومصيره، وما يصوِّر له الحساب والاحتساب، والجزاء والعقاب، فلا يجد فى أعوام طوال وقتاً صافياً، وقلباً فارغاً، وعقلاً يقظاً، وضميراً حيًّا، فتثقل عليه العبادة والذكر وما يتّصل بهما، ولا يجد لذهما بطبيعة الحال؛ ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، ﴿ وَإِذَا قَامُوا

= راجع كتابنا: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، الفصل الأول من الباب الرابع.

إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢].

إغاثة النبوّة للإنسانيّة وتشريعها للصوم لتحقيق المُثل العليا وغايات الحياة الإنسانية الحقيقية:

وجاءت النبوة فى أزمان مختلفة، وأمكنة مختلفة، تُغيث الإنسانيَّة المهدّدة بالماديّة الطاغية، وتُديل الرّوح والأخلاق، والمشاعر اللطيفة، والقلب المخنوق المفلوج من طغيان الشهوات، وقسوة المعدات، وتقيم الموازين القسط فى الحياة، وتُعدّ الإنسانَ إعداداً جديداً لتحقيق الغاية التى خُلق لها، وهى (العبادة) والوصول إلى الكمال المطلوب، الذى هُيَّئ له وهى (الولاية)، وإكمال المهمَّة التى أُهبط لها فى الأرض وهى (الخلافة).

وذلك لا يتحقّق بروحانيَّة ملكيَّة ولا بماديّة بهيميَّة. فأمرت بالصوم ليُحدَّ من شِرّة هذه الماديَّة، ويُعيد للنفس ما فقدته من حياة ونشاط، ومن جدّة وقوَّة، وليشحنَها شحناً روحانياً إيمانيًّا، تستطيع أن تحفظ به اعتدالها فى الحياة، وتُقاوم به مُغريات الشهوة ومفاسد التخمة، وتتخلّق ببعض أخلاق الله، وتنال منها نصيباً، فتسعد به وتسمو. وتلتحق بالملائكة والملأ الأعلى، فترتع فى رياض الروح والقلب، وتسرح فى ملكوت السموات والأرض، وتعرف لذّة لا عهد لها بها فى ألوان الطعام والشراب، وفى الشبع المُفرِط والتّخمة المُملّة.

مقاصد الصوم وأثره فى النفس والحياة:

وقد أشار إلى ذلك حجة الإسلام الغزالى فى أسلوبه الخاص، فقال:

«المقصود من الصوم، التخلُّق بخُلق من أخلاق الله عزَّ وجلَّ، وهو الصمديَّة، والاقتداء بالملائكة فى الكفِّ عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنَّهم منزهون عن الشهوات، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلّما انهمك فى الشهوات انحطَّ إلى أسفل السافلين، والتحق بغمار البهائم، وكلّما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى علّيين والتحق بأفق الملائكة»[1].

(١) إحياء علوم الدين: ٢١٢/١.

ويزيده العلاّمة ابن القيِّم إيضاحاً وتفصيلاً فيقول:

((المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانيَّة، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقَبول ما تزكُو به مِمَّا فيه حياتها الأبديّة، ويكسر الجوع والظمأ من حدَّتها وسَوْرتها ويذكِّرها بما للأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها فى معاشها ومعادها، ويسكِّن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين))[1].

ويمضى ابن القيِّم ببلاغته فى شرح أسرار الصوم ومقاصده، فيقول:

((وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التى إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال النبي ﷺ ((**الصوم جُنَّة**))[2] ، وأمر من اشتدّت عليه شهوة النكاح -ولا قدرة له عليه- بالصيام، وجعلهُ وِجاء هذه الشهوة.

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة، شرعة الله لعباده رحمة لهم ،وإحساناً إليهم، وحِمية وجُنّة))[3].

ويعود إلى الموضوع، فيقول:

((لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقفاً على جمعيته على الله، ولمّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمّه إلاّ الإقبال

(١) زاد المعاد: ١٥٢/١.

(٢) صحيح: أخرجه النسائى (١٦٦/٤) (٢٢٢٤) من حديث معاذ بن جبل- ﷺ-، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٦٥).

(٣) زاد المعاد: (١٥٢/١).

على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام، مّما يزيده شعثاً، ويشتّته فى كل وادٍ يقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعه أو يعوقه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده، أن شرع لهم من الصوم، ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأُخراه، ولا يضرّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة و الآجلة»[١].

الصوم فى الديانات القديمة:

لذلك اشتملت جميع الأديان والشرائع المعروفة فى التاريخ على الصوم وطالبت به جميع من كان يدين بها. فمن أقدم الديانات، التى لا يزال عدد كبير من الناس يدين بها، الديانة الهندية البرهميّة، ويحدّث عنها الأستاذ (T.M.P, Mahadevan) رئيس قسم الفلسفة فى جامعة مدراس الهند، وهو يشرح الصوم ومكانته فى الشريعة الهندوكيّة، والمجتمع الهندي:

«ومن الأعياد، والأيام المحتفل بها فى السنة، ما خُصِّصت للصوم الذى تقصد به تزكية النفس. إنّ كل طائفة من الطوائف الهندكيّة تُخصص لنفسها أياماً تقضيها فى الدعاء والعبادة، ويصومها أكثر أفرادها كذلك، فيكفّون عن الطعام، ويسهرون الليل كلّه، ويبيتون يتلون الكتب المقدّسة ويراقبون الله. ومن أعمّ هذه الصيام، وأكثرها انتشاراً فى الطوائف المختلفة: (ويكنته إيكاوشي)، الذى يُنسب إلى (وشنو)، فلا يصوم ذلك اليوم أتباع وشنو فحسب بل يصومه أكثر الناس، فيصومون نهاره ويسهرون ليله.

ومن الأيام ما يصومها النساء فقط، ويدعون الإلهة (مظهر صفات الله النسويّة) فى مختلف مظاهرها، وتسمّى هذه الأيام لأهميتها الخاصة بـ(بَرَت) أو العهد، وقد خصّصت لتزكية الروح، وغايتها تغذية الروح بالغذاء الروحاني»[٢].

ولا يزال البراهمة يصومون فى اليوم الحادى عشر، والثانى عشر من كل شهر هندى،

---

(١) زاد المعاد: (١٦٨/١).

(٢) Out lines of Hinduism ،Chapter 4 Section-٦،

وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تُصام عند البراهمة ٢٤ يوماً في كل سنة، إذا حافظوا عليها، وتقيّدوا بها، وقد فاقت الديانة الجينيّة في الهند في التشديد في شرائط الصوم وأحكامه، فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم.

ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية، وكان صوم اليوم الثالث من شهر (ثسموفيريا) اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان، ولا تخلو الصحف المجوسيّة عن الأمر بالصوم والحثّ عليه، ولو لطبقة خاصة، وتدل آية وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيين»[1].

الصوم عند اليهود:

أما اليهود فقد كان الصوم، يُعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي، وكان يُلجأ إليه ،إذا هدّد خطر، أو إذا كان كاهن أو (مُلهَم) يُعدُّ نفسه لإلهام، أو (نبوّة). وكان اليهود يصومون موقّتاً إذا اعتقدوا أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، أو إذا حلّت بالبلاد نكبة عظيمة، أو خطب كبير، أو إذا أصيبت البلاد بوباءٍ فاتك، أو بجدب عام، وفي بعض الأحيان، عندما يعزم الملوك على مشروع جديد.

أيام الصيام المحددة الدائمة، قديمة ومحدودة في التقويم اليهودي، علاوة على يوم الكفارة، يوم الصوم المقرر الوحيد، في الديانة الموسوية، وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم، في ذكرى حوادث أليمة، وقعت لليهود في أيام الأسر في (بابل)، وهي تقع في الشهر الرابع (تموز) وفي الشهر الخامس (آب)؛ وفي الشهر السابع (تشري) وفي الشهر العاشر (تبت- Tebet)، ويرى بعض ربِّي (التلمود) أن صيام هذه الأيام إجباري، عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية وفي اضطهاد، ولا تلزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء.

وزيدت إلى أيام الصيام هذه أيام أخرى، تصام تذكاراً لكوارث ومآسٍ، نزلت باليهود، وأُضيفت إلى الأولى على مرّ الأيام، وهي لا تُعتبر إلزامية، ولم تنل الحظوة

(١) مقتبس من كتاب (سيرة النبي) للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى (٥/٢٨٦-٢٨٧)، وقد استفاد المؤلف في ذلك من دائرة المعارف البريطانية: ١/١٩٣.

الكافية عند الجمهور، ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً.

وهناك أيام صيام شعبية محلية، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التى يسكنها اليهود منذ زمن بعيد، وهو تذكار كذلك لكوارث وخطوب، أصيبت بها هذه الشعوب فى أوقات مختلفة، واضطهاد وقسوة تعرضوا لها فى بعض الحكومات، وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض فى ذكرى وقائع ومحن فى تاريخ اليهود، وفى ذكرى مآتم وأفراح فى حياقم الشخصية. وصوم أول يوم من السنة شائع فى كثير من الطبقات، وهنالك أيام صيام تُشرّع، ويأمر بها الربّيّون، إذا تعرَّض الشعب لخطر، أو تأخر المطر، أو أُصيبت البلاد بمجاعة، أو صدرت مراسيم قاسية، أو قوانين غليظة.

وأيام الصيام الشخصية المختارة، التى يفضلها بعض الأفراد دون بعض، شائعة فى تاريخ اليهود منذ زمن مبكر، وهى أيام صوم تذكارية لبعض الحوادث الفردية، أو ككفّارة عن بعض المعاصى والآثام، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم، أو بلاء نازل، وصوم تلك الأيام لا يشجعها الربّيون، ولا يوافقون عليها إذا كان الصائم رجلاً علمياً، أو أستاذاً معلّماً، حتى لا يشوّش ذلك خاطره، أو يضعف صحته، وهنالك صوم يصام على أثر رؤيا مفزعة. ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم فى أيام الأعياد، فـــ(التلمود) يبيح هذا الصوم فى هذه الأيام، بشرط أن يكفّر عنه بصوم آخر فى أيام عادية..

والصوم عند اليهود يبتدئ من الشروق، وينتهى عند ظهور أول نجوم الليل، إلا صوم يوم الكفارة[1]، واليوم التاسع من شهر (آب)[2] فإنه يستمر من المساء إلى المساء، وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية. وقد رُغّب فى الصدقة وإطعام المساكين، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي.

إن الأيام التسعة الأولى من شهر (آب)، وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر

---

(١) وهو اليوم العاشر من الشهر السابع (تشري– Tishri) كما فى (دائرة المعارف اليهودية) وفى كتاب (اليهودية فى الإسلام) Judaisim in Islam by abraham I. Katish (New York 1954).

(٢) وهذا الصوم شرع تذكاراً لإحراق الهيكل المرة الأولى أو الثانية.

(تموز) وبين اليوم العاشر من شهر (آب)، تعتبر أيام صوم جزئى فيُحرم فيها تناول اللحوم، وتعاطى الخمور فقط[1].

الصوم عند المسيحيين:

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله، لأن الديانة المسيحية هى من أقل الديانات تشريعاً فقهياً وأحكاماً كليَّة تشمل أدوار التاريخ والمجتمعات المسيحية والطوائف الدينية كلها، وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية أحياناً، ولذلك يصعُب أن يُطلق عليها اسم شريعة إلهية، وقد حاولنا أن نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين وما مرَّ به من أدوار وأطوار.

«المسيح صام أربعين يوماً قبل أن يبدأ رسالته، ومن المرجَّح أنه كان يصوم يوم الكفارة، الذى كان الصوم المفروض فى الشريعة الموسوية، ككل يهودى مخلص، إنه لم يشرع أحكاماً للصوم، إنه خلَّف المبادئ وترك كنيسته تُقنِّن قوانين لتطبيقها، وليس لأحد أن يزعم أنه أصدر قوانين عن الصوم رأساً. إننا نقرأ فى المصادر المسيحية حديثاً عن صوم (بولس) والمسيحيين الأولين، إن المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفارة. وينوّه به الراهب ليوك (Luke) كيوم يُحتفل به، ولكن المسيحيين الذين ينتمون إلى أصول أخرى لم يُلحوا على ذلك.

وبانتهاء القرن المسيحى الأول ونصف قرن بعد وفاة القديس (بولس) نواجه رغبة ملحة فى تقنين القوانين للصوم، وقد كان ذلك موكولاً، إلى تقوى الصائم، نرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية). وكان يسود فى ذلك العصر شعور بالواجب، وتحذير عن أن يظل الصوم عملاً خارجياً لا يؤثر فى نفس الصائم. ويتحدث القديس (إيرينيس) عن أنواع من الصيام، منها ما يستغرق اليوم، ومنها ما يستغرق يومين، أو بضعة أيام، ومنها ما كان يستغرق أربعين ساعة متوالية. وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة، وكان صوم (جمعة

---

(١) مقتبس وملخص من (دائرة المعارف اليهودية) المجلد الخامس، طبعة ١٩١٦م، الولايات المتحدة الأمريكية (Jewish Encyclopedia).

الآلام أو الصلبوت) صوماً شعبياً عاماً، وكان صوم يوم الأربعاء، ويوم الجمعة فى كل أسبوع شائعاً فى بعض الأقطار فى القرن الثانى المسيحى، وكان الذين ينتظرون الاصطباغ (التعميد)، يصومون يوماً أو يومين، وكان يشترك فيه الذين يأخذون الاصطباغ والذى يتولى ذلك.

وهنالك خلافات جزئية فى مناهج الصوم وأحكامه فى الطوائف المسيحية[1]، وقد نال الصوم قسطاً كبيراً من التنظيم والتقنين فى فترة بين القرن الثانى والقرن الخامس المسيحيين، فقد أصدرت الكنيسة قائمة أحكام وتوجيهات عن الموضوع، وقد اتّسم الصوم بصلابة وشدة فى القرن الرابع، فقد انتقل من طور الرقّة والتوسُّع والمرونة إلى طور الصَّلابة والغلظة والتدقيق، وقد حُدد اليومان اللذان يسبقان (عيد الفصح) بالصوم فى هذا العصر، وكان الصوم فى هذين اليومين، ينتهى فى نصف الليل، والمرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا فى هذين اليومين، كان يُسمح لهم أن يصوموا يوم (السبت)، وقد سُجِّلت فى تاريخ المسيحية والمسيحيين فى القرن الثالث أيام الصوم، وكان هنالك اختلاف فى نهاية الصوم، فكان بعضهم يُنهى ويُفطر عند صوت الديك، وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله.

أما صوم أربعين يوماً، فلا يُوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادى، وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم يختلف باختلاف البلاد التى يسكنها المسيحيون، فكان فى (روما) صيام يختلف عن الصيام فى (لانان) و(الإسكندرية)، وكان بعضهم يُمسك عن تناول الحيوانات، خلافاً لغيره، وبعضهم يجتزئ بالسمك والطيور، وبعضهم يُضرب عن البيض والفواكه، وبعضهم يجتزئ بالخبز اليابس، وبعضهم يُكفّ عن كل ذلك. وقد شُرعت أيام أُخرى للصوم فى القرون المتأخرة تذكاراً لحوادث وأيام تتصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدّها[2]، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات، وأربعاً، يُمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب، وقد حُدّدت أيام مختلفة فى القرون الوسطى للصوم فى

(١) اقرأ التفصيل في: (دائرة معارف الأديان والأخلاق).

(٢) اقرأ التفصيل في: (دائرة معارف الأديان والأخلاق).

العالم المسيحى، تطوّرت مع تقدّم الزّمن، وهى تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد، التى تحكُم عليها الكنيسة المسيحيَّة.

وبعد الإصلاح حَدّدت الكنيسة الإنجليزيَّة أيام الصوم، ولم تُقنِّن قوانين وحدوداً للصائمين، تاركة ذلك لضمير الفرد، وشعوره بالمسؤولية، ولكن قوانين البرلمان الإنكليزى فى عهد (إدوارد السادس) و (جيمس الأول) و (مرسوم إليزاييت) فرض الإمساك عن اللحوم فى أيام الصوم، وبرّر ذلك بقوله: «إن صيد السمك، والتجارة البحريَّة، يجب أن تُشجَّع وتَربح»[1].

لذلك لمَّا شرع الله الصوم فى الإسلام، وفرضه على المسلمين، قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[البقرة: ١٨٣].

جناية التخيير وعدم التحديد والحرية الزائدة فى الصوم على مقاصده وفوائده:

وقد تجردت بعض الأديان والشرائع القديمة عن تعيين أيام الصوم وتحديدها بالبداية والنهاية، وضبطها بالأحكام، فكان الأمر بالخيار، وكان الناس فى كثير من الأديان مخيَّرين فى اختيار الأيام التى يصومونها، وفى تحديدها، وكانوا مخيرين بين إمساك شامل عن المأكول والمشروب، وبين تقليل من الطعام والشراب، وكانوا مأمورين بترك بعض المطعومات، واختيار بعضها، كما جرى العمل به فى بعض الديانات الهندية، فيمسك بعضهم عن أكل اللحوم، وبعضهم عمَّا طُبخ على النار، ويجتزئ بعضهم بألوان من الطعام، أو بالماء الممزوج بالملح[2].

وقد جنى ذلك على الصوم قديماً، فضيَّعه وأضعف قوته، فكان للإنسان أن يصوم متى شاء، وما شاء، وأن يجتزئ بطعام واحد أو بشراب؛ وأن يقتصر على المقدار القليل،

---

(١) مقتبس من مقال (الصوم عند المسيحيين) (Fasting , Christian) فى (دائرة معارف الأديان والأخلاق) (Encyclopedia of Religions and Ethics).

(٢) وهكذا كان يصوم زعيم الهند الكبير (غاندي) ويقلده بعض المضربين والمحتجين من زعماء الأحزاب، ويسمى عندهم (برت).

والأمر موكول إلى الصائم، فتطرّق الوهن، وتسرَّبت الخيانة إلى النفوس، وتخطّى الناس الحدود، وصعُبت المحاسبة، فرُب مفرط إذا حُوسب تعلل بأنه قد صامْ فيما مضى، ومن يدرى ذلك؟ ورُب متجاوز فى الأكل إذا وُجِّه إليه النقد اعتذر بأنه المقدار القليل الذى أُمر به فى الصوم، وهكذا ضاع الصوم فى الأمم القديمة، وفقد تأثيره وفوائده الروحية والخُلقية.

وإلى هذه الحكمة الدقيقة فى التحديد والتعيين، أشار شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه (حجة الله البالغة) فقال:

«وإذا وقع التصدِّى لتشريع عام، وإصلاح جماهير الناس، وطوائف العرب والعجم، وجب أن لا يخيَّر فى ذلك الشهر، ليختار كل واحد شهراً ليسهل عليه صومه، لأن فى ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتَّسلُّل، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات الإسلام»[1].

ثم يقول وهو يذكر الحاجة إلى تعيين المقدار:

«ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد، فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه، ويفرط مفرط، فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه، وينفّه[2] نفسه، ويزيره القبور، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصَّتها، فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة»[3].

تقليل الغذاء وتحديده أم إمساك مطلق؟:

ويقارن بين منهجين للصوم المعروفين عند الطوائف والأمم، الأول: الإمساك عن الأكل والشرب، وما ينافى الصوم بتاتاً فى مدة محدودة معلومة، والثاني: تقليل الغذاء، أو الاجتزاء بشيء واحد، وترك بعض المرغوبات والمألوفات، فيفضل الأول على الثانى، وفى ضوء التجارب والتحليل العلمى، وعلم النفس. يقول:

---

(١) حجة الله البالغة، ج٢، ص٣٧.

(٢) نفه وأنفه الناقة: أعياها، وأكلها.

(٣) حجة الله البالغة، (٢/٣٦).

«ثم إن تقليل الأكل أو الشرب، له طريقان، أحدهما: أن لا يتناول منهما إلا قدراً يسيراً، والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات، زائدة على قدر المعتاد. والمعتبر فى الشرائع، هو الثانى، لأنه يخفّف وينفّه، ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش، ويلحق البهيميَّة حيرة ودهشة، ويأتى عليها إتياناً محسوساً، والأول، إنما يضعف ضعفاً يمر به، ولا يجد بالاً حتى يُدنفه.

وأيضاً، فإن الأول لا يأتى تحت التشريع العام إلا بجهد، فإن الناس على منازل مختلفة جدًّا، يأكل الواحد منهم رطلا والآخر رطلين، والذى يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني»[١].

ويذكر أنه لا بد من الاعتدال فى هذا التوقيت والتحديد، فيقول:

«ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة، كثلاثة أيام بلياليها، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع، ولا يعمل به جمهور المكلفين»[٢].

صيام مجموعة متتابعة أم متشتتة موزعة؟:

وكانت الأيام التى تصام فى كثير من الديانات القديمة، وعند طوائف من الأمم، أياماً موزعة مبعثرة فى طول السنة، تتخلل بينها فترات طويلة تفقدها التأثير فى الأخلاق والميول والعادات، ولا تجعل النفس تنصبغ بها، فكان من المصلحة والحكمة، أن تتوالى هذه الأيام وأن تتكرر، يقول شيخ الإسلام الدهلوى رحمه الله:

«يجب أن يكون الإمساك فيها متكرِّراً ليحصل التمرّن والانقياد، وإلا فجوع واحد، أى فائدة يفيد، وإن قوى واشتدَّ»[٣].

وقد جاء التشريع الإسلامى للصوم مستوفياً لجميع هذه الشروط والصفات، محققاً لجميع هذه الأغراض والنتائج الروحية والخلقيَّة، والنفسية والاجتماعية وكان ذلك صيام رمضان الذى فرضه الله على المسلمين.

---

(١) حجة الله البالغة: (٣٧/٢).

(٢) حجة الله البالغة: (٣١/٢).

(٣) المرجع السابق نفسه.

وتقدم صوم رمضان، صوم يوم عاشوراء الذى كان اليهود يصومونه، وكان كثير من العرب فى الحجاز يصومونه كذلك، والموضوع يحتاج إلى شئ من الشرح والتفصيل.

صوم عاشوراء:

روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: «قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح! هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه»[١]. وفى رواية مسلم: «هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى»، وزاد البخارى فى الهجرة فى رواية أبى بشر: «ونحن نصومه تعظيماً له». وروى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسُئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيماً له، فقال النبى ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم، فأمر بصومه»[٢]. وروى الطبرانى فى المعجم: «أنه عليه السلام لما دخل المدينة، وجد اليهود صاموا عاشوراء، فسأل: أى يوم هذا؟ قالوا عاشوراء، خلص فيه موسى عليه السلام من فرعون، فقال النبي ﷺ : «نحن أحق باتباع موسى عليه السلام»».

وقد استشكل ذلك العالم الرياضى الكبير أبو الريحان البيروني[٣] (م٤٤٠هـ)، وشك فى صحة الأحاديث الواردة فى ذلك اعتماداً على الحساب، ودراسة التقويم اليهودى، وتطبيقه بالتقويم العربى، قال فى كتابه: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»:

«وقد قيل إن عاشوراء هو عبراني[٤] معرب يعنى عاشور، وهو العاشر من (تشري)

(١) الجامع للبخارى، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢/٧٠٤) (١٩٠٠) من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم، ج١، كتاب الصوم، باب الصوم يوم عاشوراء برقم (١١٣٠).

(٣) هو محمد بن أحمد الخوارزمى البيرونى العالم الرياضى الفلكى الفيلسوف، قيل إنه توفى سنة ٤٤٠هـ وقيل ٤٥٠هـ، وقيل غير ذلك.

(٤) **أقول**: قال ابن منظور فى (لسان العرب): ٦/٢٤٥: «وعاشوراء، وعشوراء، ممدودان، اليوم العاشر

اليهود الذى صومه صوم الكِبُّور، وأنه اعتبر فى شهور العرب فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم، كما هو فى اليوم العاشر من أول شهور اليهود، وقد فرض صومه فى أول سنة الهجرة، ثم نسخه صوم رمضان الآتى بعده. وروى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، رأى اليهود يصومون عاشوراء، فسألهم عنه، فأخبروه، أنه اليوم الذى أغرق الله فيه فرعون وآله ونجّى موسى ومن معه. فقال عليه السلام: ((نحن أحق بموسى منهم)). فصام وأمر أصحابه بصومه. فلما فُرض صوم شهر رمضان، فلم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم.

وهذه رواية غير صحيحة، لأن الامتحان يشهد عليها، وذلك لأن أول المحرم كان سنة الهجرة يوم الجمعة السادس عشر من تموز سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر، فإذا حسبنا أول سنة اليهود فى تلك السنة كان يوم الأحد الثانى عشر من أيلول، ويوافقه اليوم التاسع والعشرون من صفر، ويكون صوم عاشوراء يوم الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول، وقد كانت هجرة النبى عليه السلام فى النصف الأول من ربيع الأول... فما ذكروه من اتفاقهما حينئذ محال على كل حال)).

وقال:

((وأما قولهم: إن الله أغرق فرعون فيه، فقد نطقت التوراة بخلافه. وقد كان غرقه فى اليوم الحادى والعشرين من (نيسن) وهو اليوم السابع من أيام الفطير، وكان أول فصح اليهود بعد قدوم النبى ﷺ المدينة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من (آذار) سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر، ووافقه اليوم السابع عشر من شهر رمضان، فإذاً ليس لما رووه وجه ألبتة))[1].

وكلام البيروني- على غزارة علمه بالرياضيات وذكائه النادر- مؤسس على عدة افتراضات:

فمنها أنه فهم أن هذه المحاورة التى ذكرها ابن عباس وغيره، كانت فى أول يوم قدم فيه النبى ﷺ المدينة، لأن ابن عباس رضى الله عنه قال: ((لمَّا قدم النبى ﷺ المدينة)) أو ((لما

= من المحرم، وقيل التاسع، قال الأزهري: لم يسمع فى أمثلة الأسماء اسم على فاعولاء، إلا أحرف قليلة)).

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية)، ص ٣٣١.

دخل المدينة» لذلك قال: قد كانت هجرة النبى عليه السلام فى النصف الأول من ربيع الأول، وقد نشأ هذا الوهم لعدم ممارسته لصناعة الحديث، وجهله لأساليب كلام الصحابة رضى الله عنهم، وتعبيراهم، فهذا أُسلوب شائع فى أحاديثهم. فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك، قال: «قدم النبى ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر»(١). فهل يفهم من ذلك أن قدومه صادف يوم عيد وفرح عندهم؟ وهل يمكن أن يصادف يومين يلعبون فيهما؟ وقد ورد نفس هذا التعبير فى تأبير النخل وغير ذلك.

وقد نبَّه على ذلك العلامة ابن حجر العسقلاني. قال:

«وقد استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه أنه ﷺ حين قدومه المدينة، وجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، وإنما قدم المدينة فى ربيع الأول، والجواب عن ذلك: أن المراد، أن أول علمه بذلك، وسؤاله عنه، كان بعد أن قدم المدينة، لا أنه قبل أن يقدمها، علم ذلك، وغايته أن فى الكلام حذفاً، تقديره قدم النبى ﷺ المدينة، فأقام إلى يوم عاشوراء، فوجد اليهود فيه صياماً»(٢).

إذاً فلا إشكال ولا تناقض بين ما ورد فى الحديث، وبين ما تحقّق بالتقويم.

والافتراض الثانى، أنه فرض أن صوم عاشوراء المذكور فى الحديث: «هو العاشر من شهر تشرى اليهود، الذى صومه صوم الكِبُّور» يعنى صوم يوم الكفارة المشهور عند اليهود. واليوم المحتفل به أكثر من كل يوم وصوم، وهو المذكور فى كتبهم وشريعتهم بنفس الصيغة (Yom Kippur) ويقال فى الإنكليزية (Day of Atonement) (٣).

وهذا لا يصح ولا يتمشى مع لفظ الحديث، ونصوص التوراة، فإنه صوم كفارة عن

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١/٢٩٥) (١١٣٤)، والنسائى (٣/١٧٩) (١٥٥٦)، وأحمد (٣/١٠٣) (١٢٠٢٥) من حديث أنس ﷺ. وصححه الأرناؤوط.

(٢) فتح الباري: (٤/٢١٤-٢١٦).

(٣) راجع (دائرة المعارف اليهودية).

ذنب كبير، وجريمة قومية تاريخية(١) ويوم حزن وحداد، وإيلام نفس، فقد جاء فى اللاويين، أو سفر الأحبار، عن صوم الكفارة، الواقع فى عاشر الشهر السابع تشري:

«ويكون لكم فريضة دهرية أنكم فى الشهر السابع فى عاشر الشهر، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون، الوطنى والغريب النازل فى وسطكم، لأنه فى هذا اليوم يكفّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم، أمام الرب تطهرون»(٢).

وجاء فى موضع آخر:

«وكلّم الرب موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع، فهو يوم الكفّارة محفلاً مقدساً يكون لكم، تذللون نفوسكم، وتقربون وقوداً للربّ، عملاً ما لا تعملوا فى هذا اليوم عينه، لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم، أمام الربّ إلهكم»(٣).

وجاء فى سفر العدد: «وفى عاشر هذا الشهر السابع، يكون لكم محفل مقدس، وتذلّلون أنفسكم عملاً ما لا تعملوا»(٤).

وبالعكس من ذلك، فقد جاء فى الأحاديث الصحيحة ما يصرّح بأنّ يوم عاشوراء «الذى شُرع صومه للمسلمين» كان يوم فرح وعيد عند اليهود. فقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: كان يوم عاشوراء تعدّه اليهود عيداً. قال النبى ﷺ «فصوموه أنتم»(٥). ولمسلم عن قيس بن مسلم بإسناده: قال: كان أهل خيبر يصومون

---

(١) لا يبعد أن يكون صوم كفارة عن عبادة العجل التى تورط فيها اليهود على إثر ذهاب موسى إلى ربه الذى قال عنه القرآن: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وعوقبوا على هذه العبادة بأن يقتل منهم الأبرياء المجرمين، فقد جاء فى القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]. إلخ. وقد خلف ذلك صوم فرض على أجيال اليهود إلى الأبد، ويؤيده ما جاء فى كتاب (Judaism in Islam): «قضى موسى أربعين يوماً على الجبل، ونزل يوم الكفارة».

(٢) اللاويين، الإصحاح السادس عشر (٢٩-٣٠-٣١) الكتاب المقدس، أى كتب العهد القديم والعهد الجديد، «ترجمة مرسلى الجمعية الأمريكانية» «طبع نيويورك».

(٣) اللاويين، الإصحاح الثالث والعشرون (٢٦-٢٧-٢٨).

(٤) سفر العدد، الإصحاح التاسع والعشرون (٧).

(٥) صحيح: أخرجه البخارى برقم (١٩٠١) كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، ج٤ ومسلم (٢/ ٧٩٦) (١١٣١).

يوم عاشوراء، يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليّهم وشارتهم[١]، فقال رسول الله ﷺ: «فصوموه أنتم»[٢]. وقد روى كريب بن سعد عن عمر بن الخطاب، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يسألكم يوم القيامة، إلاّ صيام رمضان، وصيام يوم الزينة- يعنى يوم عاشوراء-»[٣]. إذاً فلا يصحّ أن يقال: إنه كان يوم الكفارة، فقد كان هذا اليوم يوم حزن وعقوبة، وذلّ ومَهانة، وعاشوراء المذكور فى الحديث يوم ترويح للنفس، وفرح وسرور، وزينة وتجمُّل.

وقد وقع فى هذا الخطأ والوهم رجال فى الشرق والغرب غير البيرونى، واتّجه إلى ذلك بعض علماء الحديث فى هذا العصر، وقد جاء فى كتاب (اليهودية فى الإسلام) (Judaism in Islam) فى ذكر يوم الكفارة:

«وقد قرّره محمد فى بداية الأمر كيوم صوم للمسلمين»[٤].

ولابد أن نجعل ما قاله اليهود عن عاشوراء: «إنه يوم صالح، يوم نجّى الله بنى إسرائيل من عدوهم» ميزاناً فى هذا البحث، فلا بد أن ينطبق هذا الوصف على اليوم الذى نبحث فيه، وقد جاءت تسمية هذا اليوم الذى نجّى الله فيه بنى إسرائيل من فرعون وآل فرعون (بأبيب) صراحة فى عدة مواضع من التوراة وهو الذى جرت تسميته بـ (نيسان) فيما بعد، جاء فى دائرة المعارف للبستانى فى مادة (أبيب-Abib):

«كلمة عبرانية معناها أخضر، وهى اسم الشهر الأول من السنة العبرانية، ووضع اسمه موسى عليه السلام، وهوَ يكاد يكون موافقاً لشهر «نيسان» (أفريل)، وبعد أن سبى الإسرائيليون إلى بابل، غيّروا اسم هذا الشهر، وسمّوه نيسان، أى شهر الزهور، وفى منتصفه كان عيد الفطير عندهم (خروج: ١٢: ١٨)[٥].

---

(١) **قال العسقلاني**: أى هيأتهم الحسنة.

(٢)**صحيح**: أخرجه مسلم كتاب الصوم فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن مردويه، راجع كنز العمال: (٣٤/٤).

(٤) Judaism in Islam by Abraham I.Katish New York (1954).

(٥) **يقول البستاني**: أما أشهر الإسرائيليين الجارية، فالشهر الأول من السنة هو شهر تشرى، وهذا يجعل شهر أبيب عندهم الشهر السابع من السنة.

وقد أقرّ بذلك البيرونى نفسه: فقال فيما نقلنا عنه:

((وأما قولهم إن الله أغرق فرعون فيه، فقط نطقت التوراة بخلافه، وقد كان غرقه فى اليوم الحادى والعشرين من نيسن (نيسان) وهو اليوم السابع من أيام الفطير))، وقد جاء فى التوراة (خروج-١٢-١٨): ((فى الشهر الأول من اليوم الرابع عشر من الشهر مساءً تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادى والعشرين من الشهر مساءً)).

وبعد استعراض هذه النصوص، ودراسة شريعة اليهود وتاريخهم وعاداتهم، يُرجّح الباحث أن أشبه يوم بيوم عاشوراء، الذى جاء ذكره فى حديث ابن عباس وغيره، والذى شرع صومه فى الإسلام، وكان عزيمة قبل رمضان، هو يوم يقع فى منتصف شهر (أبيب) القديم، أو شهر نيسان- كما اعتاد اليهود أن يسمّوه به بعد جلائهم إلى بابل- وهو عيد من أعيادهم التى يحتفلون بها، ويظهرون فيها الفرح والسرور[1]، وهو يوم وقع فيه خروج بنى إسرائيل من مصر وغرق فرعون، وجاء فى (الإصحاح الرابع والثلاثين):

((تحفظ عيد الفطير، سبعة أيام تأكل فطيراً أمرتك فى وقت شهر أبيب، لأنك فى شهر أبيب خرجت من مصر)). وجاء فى الإصحاح أيضاً: ((لأنه بيد قوية أخرجك الربّ من مصر، فتحفظ هذه الفريضة فى وقتها من سنة إلى سنة))[2]. ومن المرجّح أنه صادف اليوم العاشر من المحرم الشهر العربى الأول فى السنة الثانية من الهجرة، ثم نسخه صوم رمضان فى نفس هذا العام.

وتطبيق الحساب القمرى والتقويم العربى بالحساب الشمسى، والتقويم اليهودى تطبيق تخمينى تقديرى، بسبب النسيء الذى جرى عليه العرب قبل الإسلام، وبعد الإسلام حتى أبطله الله بقوله: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٦]. الآية، وأعلن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حجة الوداع: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))، وكان ذلك بوحى من الله تعالى

(١) وقد يستشكل بعض الناس اجتماع الصوم والعيد في يوم واحد، وهذا ناشئ من قياس الصوم عند اليهود والنصارى على الصوم الإسلامى، وقد جاء فى (دائرة المعارف اليهودية) عن غرة الشهر السابع: ((إنه يوم صوم وعيد)).

(٢) الإصحاح، ١٣.

وإلهام. فقد كان التقويم العربى اضطرب اضطراباً لا يهتدى فيه إلى الصواب، ولا يرجع إلى الأصل القديم بمجرد الحساب، فلا يصح أن يشك فى صحة الأحاديث الصحيحة المستفيضة اعتماداً على حساب تخميني مع اضطراب التقاويم، وتعددها واختلافها فى الجاهلية وفى الإسلام.

ويمكن أن يكون يهود المدينة منفردين بصوم عاشوراء، قد التزموا صومه وتمسكوا به، وجاروا فيه العرب الذين كانوا يصومونه إجلالاً لهذا اليوم الذى حدثت فيه الوقائع العظيمة، وقد صح عن عائشة، أنها قالت: «كانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه» الحديث[1]. وقد كانت لليهود فى أنحاء الأرض، وفى مختلف الأقاليم والعصور، عادات فى الصيام وأيام مخصوصة يصومها بعض اليهود، ولا يصومها الآخرون، وقد تقدم ما جاء فى (دائرة المعارف اليهودية) فى الحديث عن الصيام اليهودي:

«وهنالك أيام صيام شعبية محلية، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التى يسكنها اليهود منذ زمن بعيد». ويقول كذلك: «وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض فى ذكرى وقائع ومحن فى تاريخ اليهود»، فلا يستبعد أن صوم عاشوراء، والتزامه فى اليوم العاشر من المحرم، الشهر العربى الأول، كان من خواص اليهود العرب، لذلك نرى المصادر اليهودية ساكتة عنه، وحمله أكثر الباحثين فيهم على صوم يوم الكفارة المشهور العام فى الديانة اليهودية، الذى تصومه جميع طبقات اليهود فى جميع المناطق التى يسكنونها، وسارع إلى القدح فى الأحاديث، والشك فى صحتها، من حمله على صوم يوم الكفارة، وما هو إلاَّ تسرّع فى الحكم، نشأ من عدم إحاطة بعادات اليهود، ومذاهبهم فى مختلف الأقاليم والعصور، وقلة المصادر والمعلومات عن يهود الحجاز، واليهود العرب، الذين عاشوا فى جزيرة العرب، قروناً وأحقاباً، كأمة ذات شأن وكيان،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢/٧٦٠) (١٧٩٤) مسلم، كتاب الصيام، باب صوم عاشوراء (٢/٧٩٢) (١١٢٥).

وأخلاق وعادات وعقائد، تأثرت بالبيئة والمحيط، شأن جميع الأمم والشعوب البشرية، والحضارات والثقافات، واللغات، واللهجات، وبالله التوفيق[١].

فرض الصوم وما نزل فيه من آيات

فللحكم السامية، والمقاصد الأخروية والدنيوية، التى قدَّمناها، والتى لا يحيط بها علم العلماء، وذكاء الأذكياء، ولإعانة الروح التى تجنى عليها التخمة والحياة المترفة الرتيبة، فتصبح هزيلة عليلة، ولتمكين المسلم من أداء رسالته الخاصة- الخلافة- التى لا يقوى عليها إلا بالتوسط والاعتدال، والصبر والاحتمال، فرض الله صوم رمضان.

ولم يفرضه إلاّ بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون إلى المدينة، وانقضت أيام العسرة والمحنة، وتهيّأت لهم أسباب العيش، حتى لا يقول قائل إن الصوم كان اضطرارياً، ومن وحى البيئة والحالة الاقتصادية التى كان يعيش فيها المسلمون فى مكة، وأنه من شأن الفقراء والمساكين، أو المضطهدين المعذّبين، وأن الأغنياء والموسرين، وأصحاب الأملاك والبساتين[٢] فى غنى عن الصوم.

ولم يفرضه إلاّ بعد أن رسخت العقيدة فى قلوب المسلمين، وفعلَت فعلها، وألفِوا الصلاة وهاموا بها، وتلقّوا الأوامر والأحكام الشرعيَّة بقبول واستعداد كأنهم كانوا منها على ميعاد، وقد أحسن العلاّمة ابن القيِّم الإشارة إلى ذلك فقال:

((ولما كان فطم النفوس على مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه[٣] فى السنة الثانية من الهجرة، فتوفى رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات)). وأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى**

---

(١) استفدنا فى هذا البحث مقال قيِّم للمرحوم الأستاذ أبى الجلال الندوى (مجلة ((معارف)) الشهرية: عدد ٢، مجلد ٦٠ (أغسطس ١٩٤٧م).

(٢) كان الأنصار فى المدينة أصحاب أملاك وبساتين، وذوى يسار، وسعة فى الأموال، وكذلك المهاجرون، اشتغلوا بالتجارة، فحسن حالهم واتسعت لكثير منهم الدنيا.

(٣) زاد المعاد: (١٥٢/١).

الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَّعْدُودَات فَمَن كَانَ منكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ(١) فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ

(١) يعرف المستقرئ للغة العرب ومناهج كلامهم أن لهم تعبيرات مختلفة عن معنى القدرة على الشيء، والإتيان بفعله، تتصاعد وترتقي باعتبار التعسر، أولها الاستطاعة، وآخرها الإطاقة، فلا تلجأ إلى هذا الأخير، إلا إذا كان الفعل شاقاً مجهداً يستنفد القوة، ويستفرغ الجهد، فلا يقول أحد إنى أطيق أن أرفع اللقمة إلى فمى، أو هذا القلم إلى أذنى، أو نحو ذلك مما لا عسر فيه، بل يقول إنى أطيق أن أحمل هذا الحجر الثقيل، أو أن أسرد الصيام، أو أن أصلى الليلة كلها مثلاً، وقد نوّه بذلك مدونو اللغة العربية وصيارفة كلام العرب، قال العلامة ابن منظور، فى لسان العرب: «الطوق الطاقة، أى أقصى غايته، وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقة منه». وقال الزبيدى فى تاج العروس شرح القاموس: «الطوق: الوسع والطاقة. وأنشد الليث:

كل امرئ مجاهد بطوقه والثور يحمى أنفه بروقه

يقول: كل امرئ مكلف ما أطاق».

وقال العلامة الراغب الأصفهانى فى مفردات غريب القرآن: «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بشيء». فقوله: ﴿ وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه «لا تحملنا» ما لا قدرة لنا به، وذلك لأنه تعالى، قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه، كما قال: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ﴿ ووضعنا عنك وزرك﴾ أى خففنا عنك العبادات الصعبة، التى فى تركها الوزر، وعلى هذا الوجه ﴿ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِه ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقد يعبر بنفى الطاقة عن نفى القدرة»، فكان معنى الآية ﴿ الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]. مع شدة وتعب، ومشقة عظيمة، وهما الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، لا يطيقان الصيام إلا مع جهد وإرهاق، وتعريض النفس للهلاك، والمرض الشديد.

وعلى ذلك فهمه ابن عباس رضي الله عنه كما روى عنه البخارى وأبو داود وغيرهما، وقال: إن الآية نزلت فى الشيخ الكبير الهرم والعجوز الكبيرة الهرمة، وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ [البقرة: ١٨٤]. قال: يكلفونه، وهو الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يطعمون كل يوم مسكيناً، ولا يقضون. وله طرق كثيرة عنه، وأخرج الدارقطنى عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين واحد، فمن تطوع خيراً، قال: زاد مسكيناً آخر، فهو خير قال: وليست بمنسوخة، إلا أنه رخص للشيخ الكبير الذى لا يستطيع الصيام، وأمر أن يطعم الذى يعلم أنه لا يطيقه، (وإسناده صحيح ثابت). وروى الطحاوى عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ قال: الذين يتجشمونه ولا يطيقونه، يعنى إلا بالجهد: الحبلى، والكبير، والمريض، وصاحب العطاس، وقد نقل ذلك عن على وأبى هريرة من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وعن مجاهد من كبار التابعين، وقد روى عن أنس، أنه كان يفعل ذلك بعدما أسنّ وكبر، (أخرج أثره البخاري) وروى خالد الحذاء عن عكرمة، أنه كان يقرأ: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ قال: إنها ليست بمنسوخة، وروى

لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ

= الحجاج عن أبي إسحاق عن الحارث عن على ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ قال: الشيخ، والشيخة، وعن سعيد بن جبير، أن ابن عباس، كانت له جارية ترضع فجهدت، فقال لها: افطرى، فإنك بمنزلة الذين يطيقونه.

فكان الذين توجه إليهم الخطاب فى قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. على أقسام ثلاثة، **الأول:** المقيم الصحيح، فيتحتم عليه الصوم، الثاني: المريض والمسافر، فيباح لهما الإفطار، مع وجوب القضاء، الثالث: من يشق عليه الصوم بسبب لا يرجى زواله، كالهرم، والمرض المزمن، فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكيناً، وكذلك الحامل والمرضع، فتفطران وتقضيان، وهكذا تبقى الآية محكمة لا نسخ فيها، ولا تقدير لكلمة زائدة أو حذف، أو تكلف شديد، وقد ذهب إلى ذلك بعض كبار الصحابة من الراسخين فى العلم، يخرج بذلك هذا القول عن الشذوذ والنكارة، وتفسير القرآن بالرأي؛ وقد أنصف العلامة الآلوسى، إذ قال فى روح المعاني: والحق أن كلاً من القراءات يمكن حملها على ما يحتمل النسخ وعلى ما لا يحتمله، ولكل ذهب بعض... (١/٣٧٠).

أما قول بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم بنسخ هذه الآية، وقد ذهب إلى ذلك أكثر المتقدمين، وكان هو المذهب المشهور فى كتب التفسير والحديث. فقد نشأ ذلك عن قياس تعبيرات الصحابة ومناهج كلامهم على المصطلحات الأصولية المحررة فى الأزمان المتأخرة، وحملها عليها حملاً كلياً. فقد كان الصحابة والمتقدمون يتوسعون فى إطلاق هذه الكلمات، وقد يريدون بها معنى من معانيها اللغوية، وينطقون بها بأدنى مناسبة أو وجه من الوجوه، ويحسن أن ننقل هنا كلام شيخ الإسلام الدهلوى فى هذا الموضوع، قال رحمه الله: ((ومن المواضع الصعبة فى فن التفسير التي ساحتها واسعة جداً، والاختلاف فيها كثير، معرفة الناسخ والمنسوخ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

وما علم فى هذا الباب من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم كانوا يحملون النسخ بإزاء المعنى اللغوى الذى هو إزالة شيء بشيء، بإزاء مصطلح الأصوليين، فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص، وما قيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة، فاتسع باب النسخ عندهم، وكثر جولان العقل هنالك واتسعت دائرة الاختلاف)) (الفوز الكبير فى أصول التفسير، ص ١٨).

وقد آثر هذا القول، واختاره بعض كبار العلماء فى عصرنا، والمتضلعين من علوم الدين، كالعلامة المحقق الشيخ أنور شاه الكشميرى، والعلامة المحدث الشيخ شمس الحق الديانوى، والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله، بعدا العلامة المفتي محمد عبده الذى اشتهر عنه هذا القول، بعدما سجله تلميذه النجيب العلامة السيد رشيد رضا فى (تفسير المنار).

عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

ليست هذه الآيات التي تضمَّنت وجوب الصوم، تشريعاً جافاً مجرداً، كالقوانين والمراسيم العادية، التي لا تعتمد إلاَّ على الرابطة السياسية أو الاجتماعية، التي تقوم بين الفرد والحكومة، إن هذه الآيات تخاطب الإيمان والعقيدة، والعقل والضمير، والقلب والعاطفة في وقت واحد، وتُثير كل ذلك وتغذّيه، وهكذا تُهيِّئ الجوّ لقبول هذا التشريع وإساغته بل للترحيب به، واستقباله بنشاط وحماس، إنها آية في الإعجاز، وفي فقه الدعوة، وعلم النفس، والتشريع الحكيم، ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

خاطب الله المكلَّفين بهذا التشريع بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ٧]، وهكذا هيَّأ المخاطبين لقبول كل ما يكلَّفون به ويُطلب منهم مهما كان شاقاً وعسيراً، لأن صفة الإيمان تقتضي ذلك، وتوجبه، فمن آمن بالله، كإله وربٌّ، وسيِّد ومُطاع، وصاحب الأمر والنهي، وخضع له بقلبه وقالبه، واستسلم له وأحبَّه من أعماق نفسه، كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر، وكل ما توجه إليه من طلب: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، والشريعة كلها- بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام- حياة للنفوس.

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام، ولكنه لم يكتبه عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان: وليس هو بدعاً في التشريع، فقد كتبه على من سبقهم من أهل الكتاب، وأهل الشرائع والأديان، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس، ويهوِّن خطبه عليها، فالإنسان، إذا عرف أنه لم يكلَّف بشئ جديد، وإنما هو شئ سبق وتقدَّم، وقامت به الطوائف والأمم، هان عليه الأمر، وتشجع عليه.

ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط، ولا مشقَّة ليس من ورائها قصد، بل هو رياضة وتربية، وإصلاح وتزكية، ومدرسة خلقية، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً، زمامه

بيده، يملك نفسه وشهواته، ولا تملكه، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيِّبات، فهو أقوى على ترك الممنوعات والمحرمات، ومن يترك الماء الزلال الحلال، والطعام الزكى الهنئ لأمر ربه، كيف يقرب السُّحت الحرام، والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش؟ لذلك قال: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم قال لا تهولنّكم عدة الشهر، ولا تثقلن عليكم، فإنما هى ﴿ **أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ [البقرة: ١٨٤]. تصام تباعاً، وتنقضى سراعاً، وما نسبة هذا الشهر- الذى لا يصام إلا نهاره- إلى العام الكامل، الذى ينقضى فى لذّة مباح، ومتعة وراحة؟

ثم إنه يستثنى من هذا التكليف المريض والمسافر، ومن يعجز عن الصوم، أو يخاف عليه منه.

ثم ذكر فضل الشهر الذى شرع صومه، إنه شهر، نزل فيه القرآن، الذى كان بعثاً جديداً للجيل الإنسانى، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشرى، فخليق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك، بصيامه وقيامه، حياة جديدة وإيماناً جديداً، وقوة جديدة.

هذا هو الصوم الإسلامى، أو الشحن الروحانى، الزاخر بالحياة والمنافع والبركات، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات، التى لا تطيقها النفوس، ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

خصائص التشريع الإسلامى فى الصوم وفضله وأحكامه:

وهكذا جاء التشريع الإسلامى للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصود، وأضمنه بالفائدة، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير، الذى خلق الإنسان ﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

فخصّ شهراً كاملاً- وهو شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن- بصيام أيام متتابعات متواليات، يصام نهارها ويفطر ليلها، وهو العُرف عند العرب فى الصوم وهو الميزان فى التشريع العالمى الإسلامى، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

«ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم، والمشهور عندهم فى صوم عاشوراء، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال، لأنه

هو شهر العرب، وليس حسابهم على الشهور الشمسيَّة))[١].

لماذا خُص رمضان بالصوم؟:

وجعل الله الصوم فى رمضان، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر، مرتبطاً به. فذلك قران السعدين، والتقاء السعادتين فى حكمة التشريع، وذلك لأن رمضان قد أُنزل فيه القرآن، فكان مطلع الصبح الصادق فى ليل الإنسانية الغاسق، فحسُن أن يُقرن هذا الشهر بالصوم، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم، وكان أحقّ شهور الله- بما خصَّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة، وبما بينه وبين قلوب الإنسانية السليمة من صلة خفيَّة روحيَّة- بأن يصام نهاره، ويقام ليله[٢].

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُكثر من القرآن فى رمضان، يقول ابن عباس رضى الله عنه: ((كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل، أجود بالخير من الريح المرسلة))[٣].

يقول العارف بالله، العالم الرّبانى الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (م١٠٣٤ هـ) فى بعض رسائله:

((إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن، وبهذه المناسبة، كان نزوله فيه وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات، وكل خير وبركة تصل إلى الناس فى طول العام، قطرة من هذا البحر، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله. وتشتّت البال فيه سبب للتشتت فى بقية الأيام، وفى طول العام، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك،ورضى عنه، وويل لمن سخط عليه،فمُنع من البركات،وحُرم من الخيرات))[٤].

ويقول فى رسالة أُخري:

(١) حجة الله البالغة: (٣٧/٢).

(٢) يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي: ((إذا وجب تعيين ذلك الشهر، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن، وارتسخت فيه الملة المصطفوية، وهو مظنة ليلة القدر)) (حجة الله البالغة: ٣٧/٢).

(٣) حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (٦/١) (٦)، ومسلم (١٨٠٣/٤) (٢٣٠٨).

(٤) رسائل الإمام الربانى، الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي: (٨/١).

«إذا وفّق الإنسان للخيرات، والأعمال الصالحة فى هذا الشهر، حالفه التوفيق فى طول السنة، وإذا مضى هذا الشهر فى توزّع بال وتشتّت حال، مضى العام كلّه فى تشتّت وتشويش»[١].

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنّة، وأُغلقت أبواب جهنم، وسُلسلت الشياطين» والأحاديث فى الباب كثيرة.

موسم عالمى ومهرجان عام للعبادات والخيرات:

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً، للعبادة والذكر والتلاوة والورع والزهادة، يلتقى على صعيده المسلم الشرقى مع المسلم الغربى، و الجاهل مع العالم، والفقير مع الغنى، والمقصِّر مع المجاهد، ففى كل يلد رمضان، وفى كل قرية وبادية رمضان، وفى كل قصر وكوخ رمضان، فلا افتيات فى الرأى، ولا فوضى فى اختيار أيام الصوم، فكل ذى عينين، يستشعر جلاله وجماله، أينما حلّ ورحل فى العالم الإسلامى، المترامى الأطراف، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامى كله، فيُحجم المُفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة، أو الماجنين، أو كان من المرضى والمسافرين، الذين أذن الله لهم فى الإفطار، فهو صوم اجتماعى عالمى، له جوٌّ خاص، يسهل فيه الصوم، وترقّ فيه القلوب، وتخشع فيه النفوس، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات، والبرّ والمواساة.

الجو العالمى وما له من تأثير فى النفوس والمجتمع:

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، بنظره الدقيق العميق، فقال وهو يشرح حديث: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة»[٢] إلخ:

«الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً، نفع عن غوائل الرسوم، وإذا التزمته أمة من الأمم،

---

(١) رسالة (٤٥) أيضاً.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٢/٦٧١) (١٧٩٩)، ومسلم (٢/٧٥٨) (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة ﷺ.

سلسلت شياطينها، وفتحت أبواب جنانها، وغلّقت أبواب النيران عنها»[١].

ويقول فى موضع آخر:

«وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شئ واحد، فى زمان واحد، يرى بعضهم بعضاً معونة لهم على الفعل، ميسّر عليهم ومشجّع إياهم».

«وأيضاً فإن اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكيّة على خاصتهم وعامتهم، وأدنى أن ينعكس أنوار كُمَّلهم على من دونهم، وتحيط دعوتهم من وراءهم»[٢].

الفضائل وما لها من تأثير وقوة:

إن الحياة فى صراع دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس والمنافع المقرّرة عند العقل، وليست الشهوات هى التى تنتصر دائماً فى هذه المعركة، كما يعتقد بعض الناس، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشريّة، وإنكار للواقع.

إن القوة التى تدير عجلة الحياة بسرعة، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هى الإيمان بالنفع، ذلك الإيمان هو الذى يوقظ الفلاّح فى يوم شات، شديد البرد، فيحرم عليه الدّفء، ويبكّر به إلى الحقل، وفى يوم صائف شديد الحر يهوّن عليه وهج الشمس ولفح السموم، ويفصل بين التاجر وأهله، ويتوجّه به إلى متجره، ذلك الإيمان، هو الذى يزين للجندى الموت فى ساحة القتال، وفراق الأحبة والعيال، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير، وهو القطب الذى تدور حوله الحياة.

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس، وأعمق أثراً من الإيمان الذى ضربنا له بعض الأمثال، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل، ونزل بها الوحى، ونطقت بها الصحف، وهى تنحصر فى رضا الله وثوابه، وجزائه فى الدنيا والآخرة.

لقد علم الجميع، أن الإمساك عن الطعام فى بعض الأيام مفيد للصحة، وخير للمرء أن يصوم مراراً فى كل عام، وقد أسرف الناس فى الأكل والشرب، واتّخموا بأنواع من

(١) حجة الله البالغة: (٢/٥٩).

(٢) حجة الله البالغة: (٢/٣٧).

الطعام والشراب، فأصيبوا بأمراض جسدية وخلقيّة، كل ذلك معروف ومشاهد، وآمن الناس بفوائد الصوم الطبية، وآمنوا بأنه ضرورة صحية، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية.

ولكن إذا سأل سائل ما عدد الصائمين فى هذه السنة لفوائد طبيّة، ومصالح اقتصادية؟ وما عدد الأيام التى صاموها طمعاً فى الاعتدال فى الصحة أو الاقتصاد فى المعيشة؟ كان الجواب المقرر، إنه عدد ضئيل جداً، ضئيل حتى فى الشتاء مع أن الصوم فيه سهل هيّن، ورغم أن الصوم الطبى، أو الاقتصادى أسهل بكثير من الصوم الشرعي.

ثم ننظر فى عدد الصائمين الذين يصومون، لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه، وتكفّل بجزائه، فنرى أن هذا العدد- مهما طغت المادية، وضعف الدافع الديني- عدد ضخم لا يقل عن ملايين، وإن هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد فى الأقاليم الحارة من أن يصوموا فى النهار، ويقوموا فى الليل، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التى أخبر بها الأنبياء، عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التى أخبر بها الأطباء، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التى لهج بها الاقتصاديون.

ذلك لأن المؤمنين سمعوا فى الصوم، ما هوّن عليهم متاعب الصوم، وشجعهم على احتمال الحرّ والجوع والعطش، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«كل عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: «إلا الصوم، فإنه لى، وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى، للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربِّه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[(١)]. وروى سهل بن سعد عن النبى ﷺ قال: «فى الجنة باب يدعى الريَّان، يدعى له الصائمون، فمن كان من الصائمين دخله، ومن دخله لم يظمأ أبداً»[(٢)]، وعن أبى هريرة ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»[(٣)].

(١) **صحيح**: رواه الستة أخرجه البخارى (٢/٦٧٠) (١٧٩٥)، ومسلم (٢/٨٠٧) (١١٥١) من حديث أبى هريرة ﷺ.
(٢) **صحيح**: رواه البخارى أخرجه البخارى (٢/٦٧١) (١٧٩٧)، ومسلم (٢/٨٠٨) (١١٥٢).
(٣) **صحيح**: رواه البخارى (١/٢٢) (٣٧)، ومسلم (١/٥٢٣) (٧٥٩).

العناية بروح الصوم وحقيقته ومقاصده والجمع بين السلب والإيجاب:

إن صوم رمضان لهيئته الاجتماعية وشيوعه فى المجتمع الإسلامى، عرضة لأن يتغلب عليه التقليد واتّباع العادة، وأن لا يصومه كثير من الناس، إلا مسايرة للمجتمع والبيئة، وتفادياً من الطعن والملام وأن يُشار إليهم بالبنان، ولا يرافقه الإيمان والقصد، والتفكير فى عظم شأنه وموقعه من الله، وأجره وثوابه، أو يصومه بعض الناس لغايات ماديّة، أو مقاصد صحية واقتصادية، فكان من حكمة النبوة الباهرة، وفقه الرسالة العميق، أن اشترط النبى ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والاحتساب، فقال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١). وقد يتساءل الرجل الذى لم يعرف دخائل النفس الإنسانية والأنماط البشرية المختلفة، إن رمضان لا يصومه إلا المسلمون، ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الإيمان والاحتساب، فلماذا قيّده لسان النبوّة بصفة الإيمان والاحتساب، فهو من قبيل تحصيل الحاصل؟ ولكن الذى توسعت دراسته للحياة، وتعمّقت معرفته للدوافع النفسية، والعوامل الخلقية والاجتماعية، وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة، والعلم الدقيق العميق، وشهد بأنه ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقد جاء تفسير الإيمان، والاحتساب فى حديث آخر، بأن يكون الإنسان راجياً للثواب، مصدّقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله: «أربعون خصلة، أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة»(٢).

ثم إن التشريع الإسلامى لم يكتف بصورة الصوم، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك، فلم يحرِّم الأكل والشرب، والصِّلات الجنسية فى الصوم فحسب، بل حرّم كل ما ينافى مقاصد الصوم وغاياته، وكل ما يضيّع حكمته وفوائده الروحية والخلقية، فأحاط الصوم

(١) حديث متفق عليه وقد تقدم تخريجه فى الذى قبله.

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٢/٩٢٧) (٢٤٨٨).

بسياج من التقوى والأدب وعفة اللسان والنفس، فقال النبي ﷺ «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، وإن سابّه أحد، أو قاتله فليقل إني صائم»[١] ، وقال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٢] ، وذكر أن الصوم الذى يخلو من روح التقوى والعفاف صورة مجردة من الحقيقة، وجسم بلا روح، فقال: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[٣] ، وعن أبي عبيدة رفعه، قال: «الصوم جنَّة ما لم يخرقها»[٤].

وليس الصوم الإسلامى مجموعة من أمور سلبية فقط، فلا أكل ولا شرب، ولا غيبة ولا نميمة، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك، فهو زمن العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح، والبرّ والمواساة، وقد قال النبى ﷺ «من تقرَّب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة»[٥]. وعن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من فطّر صائماً كان له مثل أجره، غير أنه لا يُنقص من أجر الصائم شيء»[٦].

وألهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح، التى ثبت أصلها عن النبى صلى الله عليه وآله وسلّم وقد تركها بعد ثلاثة أيّام، لئلاّ تفرض على أمته فرضاً فتشقّ عليها، فقد روى ابن شهاب، قال: أخبرنى عروة أن عائشة رضى الله عنها أخبرته: «أن رسول الله ﷺ

---

(١) **صحيح**:متفق عليه أخرجه البخارى (٦٧٣/٢) (١٨٠٥)، ومسلم (٨٠٧/٢) (١١٥١).

(٢) **صحيح**:للبخارى (٦٧٣/٢) (١٨٠٤) وأبي داود (٣٠٧/٢) (٢٣٦٢) والترمذى (٨٧/٣) (٧٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ

(٣) **صحيح**:رواه الدارمى فى سننه، (٣٧٠/٢) (٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة- ﷺ-، وأخرجه ابن ماجه بمعناه (٥٣٩/١) (١٦٩٠) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨٨).

(٤) **ضعيف**:رواه النسائى (١٦٧/٤) (٢٢٣٣) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٥٧٨)، وزاد فى الأوسط: قيل: بم يخرقها؟ قال: بكذب أو غيبة.

(٥) **ضعيف**:رواه البهيقى فى (شعب الإيمان) وابن خزيمة (١٩١/٣) (١٨٨٧) عن سلمان الفارسى ﷺ (فى حديث طويل) وضعفه ابن حجر فى تلخيص الحبير (١١٨/٣).

(٦) **صحيح**:رواه الترمذى (١٧١/٣) (٨٠٧) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٥) من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ

خرج ليلة من جوف الليل فصلى فى المسجد، وصلّى رجالٌ بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلى فصلُّوا معه فأصبح النَّاس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلّى فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة، عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على النَّاس، فتشهَّد، ثم قال: أما بعد، فإنه لم يخفَ على مكانكم، ولكنى خشيتُ أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها، فتوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك»[١].

وقد قام بها الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وعضَّت عليها الأمة بالنواجذ فى أعصارها وأمصارها، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنَّة، والصالحين من الأمة، وكان للتراويح فضل كبير فى شيوع حفظ القرآن فى الأمة[٢]، ومحافظتها عليه، وبقائه فى الصدور، وفضل كبير فى توفيق العامة والجماهير لقيام الليل والعبادة.

وبذلك كلّه أصبح شهر رمضان (مهرجاناً) للعبادة، وموسماً للتلاوة، وربيع الأبرار والمتقين، وعيد العبَّاد والصالحين، تتجلّى فيه عناية هذه الأمة بإقامة أحكام دينها وغرامها بالعبادة[٣]، وإخباتها إلى الله، ورقة القلوب، والتنافس فى البرِّ والمواساة فى أروع

---

(١) **صحيح**:رواه البخارى (١/٣١٣) (٨٨٢) في: باب فضل من قام رمضان ومسلم (١/٥٢٤) (٧٦١).

(٢) وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الإسلام (كالهند وباكستان) بالعناية الزائدة بهذه الصلاة وختم القرآن فيها، يهتم بها العامة والخاصة، ويحرصون عليها كل الحرص، فما من مسجد صغير خامل فى كل حى من الأحياء، إلا وتقام فيه صلاة التراويح، وتختم فيها على الأقل ختمة، أما المساجد الكبيرة، والأحياء الدينية، فتختم فيها عدة ختمات، ولا شك أن هذه السنَّة قد أفادت انتشار حفظ القرآن فى الشعب، فكثر عدد الحفاظ كثرة تستدعى العجب، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن، ومدارسته طول السنة، حتى كان حفاظ فحول، برعوا وفاقوا فى حفظه وإتقانه.

(٣) إن مما توارثته الأجيال الإسلامية فى مختلف عصورها، هو الإكثار من العبادة، وأنواع البر، والتقرب إلى الله فى رمضان، والإكثار من التلاوة، وتدارس القرآن وختمه، والتنافس فيه والجهاد، إلى حد لا يكاد يصدقه من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان والصدق، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق، وعلى ذلك، أدركنا العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين فى بلادنا، وشاهدنا حالهم، فإن بعضهم يختم كل يوم ختمة، ولا تكتحل عينه بنوم فى الليل، هذا مع تقليل زائد من الطعام، فيغتنمون كل لحظة من اللحظات فى هذا الشهر المبارك، وكل نفس من الأنفاس، فلا ينفقونه إلا فيما يقربهم إلى الله، ويزيد فى قيمة رمضان، ووزنه فى الميزان، وإذا رآهم الإنسان، عرف قيمة رمضان وكرامته، وعرف قيمة الحياة، وصدق ما روى فى كتب التاريخ والتراجم عن عبادة السلف، والمتقدمين، وعلو

مظاهره، لا تبلغه، ولا تبلغ عشر معشاره أمة من الأمم، أو طائفة من طوائف بنى آدم، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤].

تفريط المسلمين فى مقاصد الصوم وجناية العادات على العبادات:

ولكن المسلمين قد جنوا فى كثير من الأحيان على أنفسهم، وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التى يبتدعونها، وبجهلهم وإسرافهم فى الإفطار والطعام، والإسراف الذى يُفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربويَّة، وقد لا حظ ذلك بدقة حجَّة الإسلام الغزالى وتحدَّث عنها ببلاغة، يقول رحمه الله:

((الأدب الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار، بحيث يمتلئ جوفه، فما من وعاء، أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال، وكيف يستفاد من الصوم، قهر عدو الله، وكسر الشهوة، إذا تدارك الصائم عند فطره، ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام، حتى استمرت العادات، بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الأطعمة ما لا يؤكل فى عدة أشهر، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء، وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها، وقويت رغبتها، ثم أُطعمت من اللذات، وأشبعت، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة، لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسرّه، تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، فأمَّا إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه.

بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار، حتى يحس بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه،وليستديم كل ليلة قدراً من الضعف، حتى يخف عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء))(١).

= همتهم وقوة إرادتهم.

(١) إحياء العلوم: (٢/٢١١).

الصيانة من التحريف والغلو:

كان رمضان مظنة الغلوِّ، والتعمق فى الدين، فقد يفهم كثير من النَّاس أن موضوعه وغايته قهر النفس، وترويضها على ترك الشهوات والرغبات، وإجهادها إلى أقصى حد ممكن، فكلما أمعن الإنسان فى إجهادها وقهرها، وكلما طالت الفترة فى الأكل والشرب والتمتّع، وطالت مدة الجوع والظمأ، وكلّما أظهر الصبر والاحتمال، كان أقرب إلى الله وأحب إليه، وأبعد عن المترفهين المترفين والمتنعّمين المتمتّعين، وأدخل فى غمار المتقين الصابرين.

وهذا الفهم الخاطئ السطحى، هو الذى زيّن لكثير من المتديّنين والمتقشفين فى الأمم السابقة، والديانات القديمة، الغلوّ فى العبادات عامة، وفى الصوم خاصة، فأطالوا مدة الإمساك عن الطعام والشراب، وأخّروا الفطور، وعجّلوا السَّحور، أو تحرّجوا عن التسحُّر مطلقاً، ورأوه عجزاً فى الدين، وضعفاً فى الصائمين، أو وصلوا الصوم بالصوم، والليل بالنهار، وقلّدهم فى ذلك غُلاة المسلمين، والطوائف المبتدعة المتشددة، فكان كل ذلك تحريفاً فى الدين، وجهاداً فى غير جهاد، ورهبانية ابتدعوها، وباباً واسعاً لفساد شامل، وتحدياً لقول الله تعالي: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ هذا الدين أحد إلاَّ غلبه فسدِّدوا وقاربوا»[١].

لذلك كله سدَّت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب، فحثَّت على السحور أولاً، ورَّغب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، واستحبه، وجعله سنَّة للمسلمين، فقد روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تسحَّروا فإن فى السحور بركة»[٢] ، وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى (كتاب الإيمان) (١/٢٣) (٣٩) عن أبى هريرة ﷺ.

(٢) صحيح: للشيخين والترمذى والنسائى أخرجه البخارى (٢/٦٧٨) (١٨٢٣)، ومسلم (٢/٧٧٠) (١٠٩٥)، والترمذى (٣/٨٨) (٧٠٨)، والنسائى (٤/١٤١) (٢١٤٦).

«فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحر»[(١)].

وحذَّر عن تأخير الفطر، وجعل التأخير فيه آية للفساد، والوقوع فى الفتن، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب، فعن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر»[(٢)]. وعن أبى هريرة رضى الله عنه رفعه، قال: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[(٣)]، وكذلك كان من سنَّته وسنَّة أصحابه تأخير السحور. فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه، قال: «تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية»[(٤)]. وعن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال، وابن أم مكتوم، فقال رسول الله ﷺ: «إن بلالاً يؤذّن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم، قال: ولم يكن بينهما، إلا أن ينزل هذا، ويرقى هذا»[(٥)].

وقد بسط شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى الكلام فى هذا الموضوع فذكر عناية الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية، بهذا الجانب الإصلاحى فى علم جم، وفقه دقيق، فقال:

«إن من المقاصد المهمة فى باب الصوم سد ذرائع التعمّق، وردّ ما أحدثه فيه المتعمقون، فإن هذه الطاعة كانت شائعة فى اليهود والنصارى ومتحنّثى العرب، ولما رأوا أنّ أصل الصوم هو قهر النفس تعمّقوا، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر، وفى ذلك تحريف دين الله.

وهو إما بزيادة الكمّ أو الكيف، فمن الكمّ، قوله ﷺ: «لا يتقدّمنّ أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صوماً، فليصم ذلك اليوم»»، ونهيه

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٧٧٠/٢) (١٠٩٦).

(٢) **صحيح**: للشيخين، والموطأ، والترمذى أخرجه البخارى (٦٩٢/٢) (١٨٥٦)، ومسلم (٧٧١/٢) (١٠٩٨).

(٣) حسن لأبى داود (٣٠٥/٢) (٢٣٥٣).

(٤) **صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (٦٧٨/٢) (١٨٢١)، ومسلم (٧٧١/٢) (١٠٩٧).

(٥) **حديث صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (٢٢٣/١) (٥٩٢)، ومسلم (٧٦٨/٢) (١٠٩٢)، واللفظ لمسلم.

عن صوم يوم الفطر ويوم الشكّ، وذلك لأنه ليس بين هذه وبين رمضان فصل، فلعله إن أخذ ذلك المتعمِّقون سنّة، فيدركه منهم الطبقة الأخرى، وهلمّ جرًّا، يكون تحريفاً، وأصل التعمّق أن يؤخذ موضع الاحتياط لازماً، ومنه يوم الشك.

ومن الكيف: النهى عن الوصال، والترغيب فى السحور، والأمر بتأخيره وتقديم الفطر، فكل ذلك تشدّد وتعمّق من صنع الجاهلية»[1].

والصوم كله خضوع للأمر الإلهى، فلا أكل ولا شرب، ولا متعة بما حظر على الصائم بعد تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلى غروب الشمس، مهما جمحت النفس، وطغت شهوة الطعام والشراب، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حُظر فى النهار، بعد غروب الشمس، مهما جمحت طبيعة الزهد والنسك، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة، إنما الحكم لله، ولا تجلد مع الله، ولا مصارعة مع الدين، وكلّما كان الصائم متجرّداً عن هواه، منقاداً للحكم، مستسلماً لقضاء الله تعالى وشريعته، كان أصدق فى العبوديّة، وأبعد عن الأنانية، وقد أحسن العارف الكبير، والمصلح العظيم، الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندى، فى الإشارة إلى هذه النكتة، إذ قال فى إحدى رسائله:

«يتجلّى فى تأخير التسحُّر، وتعجيل الإفطار، عجزُ الصائم وحاجته، وهو ملائم للعبودية محقّق لغرضها»[2].

الاعتكاف:

والاعتكاف فى رمضان متمِّم لفوائده ومقاصده، متدارك لما فات الصائم، من جمعية القلب، وهدوء النفس، واجتماع الهمّ، والانقطاع إلى الله تعالى بالقلب والقالب، وحقيقته الفرار إلى الله، والاطراح على عتبة عبوديته، والارتماء فى أحضان رحمته. يقول العلاّمة ابن القيّم رحمه الله:

«شرع لهم الاعتكاف الذى مقصوده وروحه، عكوف القلب على الله تعالى،

---

(١) حجة الله البالغة: (٣٩/٢).

(٢) الرسالة الخامسة والأربعون (مجموع الرسائل).

وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه فى محل هموم القلب وخطراته، فيستولى عليه بدلها، ويصير الهمّ به كله والخطرات كلها بذكره، والفكرة فى تحصيل مراضيه، وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة فى القبور، حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف فى أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان»(١).

ويقول شيخ الإسلام الدهلوى رحمة الله عليه:

«ولما كان الاعتكاف فى المسجد سبباً لجمع الخاطر، وصفاء القلب، والتفرّغ للطاعة، والتشبّه بالملائكة، والتعرض لوجدان ليلة القدر، اختاره النبى ﷺ فى العشر الأواخر، وسنّه للمحسنين من أمته»(٢).

لذلك داوم عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وحافظ عليه المسلمون فى كل جيل، وفى كل عصر ومصر(٣) وأصبح من السّنن المأثورة ومن شعائر رمضان، فعن عائشة رضى الله تعالى عنها: «أن النبى ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه، من بعده»(٤). وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: «كان النبى ﷺ يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً»(٥).

ليلة القدر:

ونوّه القرآن والسنَّة -فى قوة وتكرار- بفضل ليلة القدر، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ *

---

(١) زاد المعاد: (١٦٨/١).

(٢) حجة الله البالغة: (٤٢/٢).

(٣) الاعتكاف فى أكثر المذاهب سنة، وليس بواجب إجماعاً. وعند الحنفية سنة مؤكدة فى العشر الأخير من رمضان، سنة كفاية كما فى البرهان وغيره.

(٤) **حديث صحيح**: متفق عليه أخرجه البخارى (٧١٣/٢) (١٩٢٢)، ومسلم (٨٣١/٢) (١١٧٢).

(٥) **صحيح**: رواه البخارى (٧١٩/٢) (١٩٣٩).

تنزلُ المَلائكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ ﴾ [القدر: ١-٥]. وقال النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وكان من حكمة الله تعالى، ورحمته بعباده، أن جعلها غامضة مُبهمة فى العشر الأواخر من رمضان، ليتحرّاها المسلمون، وتعلو همتهم، ويشتدّ طلبهم، ويُحْيوا الليالى الأخيرة كلّها بقيام وعبادة ودعاء، كما كان شأن النبي ﷺ. فقد روت عنه عائشة رضى الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، أحيا الليل كله وأيقظ أهله، وجدَّ وشدَّ المئزر»(٢) ، وعنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره، وفى العشر الأواخر منه ما لا يجتهد فى غيره»(٣).

وقد تضافرت الأحاديث والأخبار، على أنها فى العشر الأواخر، والسبع الأواخر من رمضان، وأنها فى الوتر من الليالى، فعن ابن عمر رضى الله عنهما: «أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحرِّيها فليتحرَّها فى السبع الأواخر**»(٤). وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: «كان رسول الله، يجاور فى العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرّوا ليلة القدر فى العشر الأواخر فى رمضان»(٥). وعنها رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان»(٦).

وقد بحث فى ليلة القدر شيخ الإسلام الدهلوى فى كتابه «حجة الله البالغة» بحثاً ممزوجاً بعلمٍ بالكتاب والسنة، وبوجدان وتجربة، فقال:

---

(١) **حديث صحيح:** متفق عليه أخرجه البخارى (٢١/١) (٣٥)، ومسلم (٥٢٣/١) (٧٦٠).
(٢) **حديث صحيح:** متفق عليه أخرجه البخارى (٧١١/٢) (١٩٢٠)، ومسلم (٨٣٢/٢) (١١٧٤).
(٣) **حديث صحيح:** رواه مسلم (٨٣٢/٢) (١١٧٥).
(٤) **حديث صحيح** : متفق عليه أخرجه البخارى (٧٠٩/٢) (١٩١١)، ومسلم (٨٢٢/٢) (١١٦٥).
(٥) **حديث صحيح** : متفق عليه أخرجه البخارى (٧١٠/٢) (١٩١٦).
(٦) **صحيح:** رواه البخارى (٧١٠/٢) (١٩١٣).

((واعلم أن ليلة القدر ليلتان، إحداهما، ليلة فيها يُفرق كل أمر حكيم، وفيها نزل القرآن جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك نجماً نجماً، وهى ليلة فى السّنة، ولا يجب أن تكون فى رمضان، نعم، رمضان مظنَّة غالبة لها، واتفق أنها كانت فى رمضان عند نزول القرآن.

والثانية، يكون فيها نوع من انتشار الروحانية، ومجيء الملائكة إلى الأرض، فيتفق المسلمون فيها على الطاعات، فتتعاكس أنوارهم فيما بينهم، ويتقرّب منهم الملائكة، ويتباعد منهم الشياطين، ويستجاب منهم أدعيتهم وطاعاتهم، وهى ليلة فى كل رمضان فى أوتار العشر الأواخر تتقدم وتتأخر فيها، ولا تخرج منها، فمن قصد الأولى، قال: هى فى كل السّنة، ومن قصد الثانية، قال هى فى العشر الأواخر من رمضان. وقال رسول الله ﷺ أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر، فمن كان متحرّيها فليتحرّها فى السبع الأواخر. وقال: أريت هذه الليلة، ثم أنسيتها، وقد رأيتنى أسجد فى ماء وطين، فكان ذلك فى ليلة إحدى وعشرين، واختلاف الصحابة (رضوان الله عليهم) فيها مبنى على إختلافهم فى وجدانها))[1].

دور الإسلام الإصلاحى فى تشريع الصوم:

قام الإسلام بنفس الدور الإصلاحى، الذى قام به فى جميع العبادات والفرائض، والمناسك، وكان إصلاحاً جذرياً، فى مفهوم الصوم وآدابه وأحكامه، ووضعه، جعله أعظم يسراً وسهولة، وقرباً إلى الفطرة السليمة، وأضمن بالفوائد الروحية والاجتماعية، وأعمق تأثيراً فى النفس والمجتمع.

فمن إصلاحاته الكثيرة المتنوعة، هو التحويل فى مفهوم الصوم، فقد كان رمزاً للحداد والحزن، وتذكاراً للكوارث والمآسى، فى الديانة اليهودية، كما أسلفنا، فحوّله الإسلام من هذا المفهوم القاتم، الذى يغلب عليه التشاؤم، إلى مفهوم منشّط مُشرِق تغلب عليه روح التفاؤل، وجعله عبادة عامة، يتمتع فيها الصائم بالنشاط والفرح، ويستبشر بما وعده الله تعالى، وثوابه الجزيل، ورضاه، ووردت الآيات والأحاديث

(١) حجة الله البالغة، (٢/٤١-٤٢).

المبشِّرة بالثواب، المتضمنة بالفرح الطبعى، تُثير فى الصائم هذا الشعور وهذه الثقة، فقد جاء فى حديث قدسي: ((إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزى به))(١). وورد فى هذا الحديث: ((للصائم فرحتان: فرحة عند فطوره، وفرحة عند لقاء ربه))(٢). وقد أحاط الصائم بجوٍّ من السُّمُوِّ، والحظوة، والمكانة عند الله تعالى، فقال: ((لخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك))(٣)، وذلك جوٌّ يخالف جوّ الحداد والمآتم والحزن والتشاؤم.

وقد كان الصوم عند اليهود مرادفاً لتذليل النفس والعقوبة، وقد شاع هذا التعبير فى أسفارهم وصحفهم، فقد جاء فى اللاويين أو سفر الأحبار:

((ويكون لكم فريضة دهريَّة أنكم فى الشهر السابع فى عاشر الشهر، تذلِّلون نفوسكم وكل عمل لا تعملون، الوطنى والغريب النازل فى وسطكم، لأنه فى هذا اليوم يكفِّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم، أمام الربّ تطهرون(٤).

وجاء فى موضع آخر:

((وكلّم الربُّ موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع، فهو يوم الكفارة، محفلاً مقدساً، يكون لكم، تذللون نفوسكم وتقرّبون وقوداً للرب، عملاً ما لا تعملوا فى هذا اليوم عينه، لأنه يوم كفّارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم))(٥).

وجاء فى سفر العدد:

((وفى عاشر هذا الشهر السابع، يكون لكم محفل مقدَّس، وتذلِّلون أنفسكم، عملاً ما لا تعملوا))(٦).

أمَّا الشريعة الإسلامية، فلم تعتبر الصوم إيلاماً للنفس، ولا عقوبة من الله، ولم ترد فى القرآن ولا فى السنَّة كلمة تدل على ذلك، بل اعتبرته عبادة، يتقرب بها العبد إلى الله،

---

(١) صحيح: رواه الستة وقد تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه الستة عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ وقد تقدم تخريجه.

(٣) أيضاً جزء منه.

(٤) اللاويين، الإصحاح السادس عشر (٢٩-٣٠-٣١) الكتاب المقدس، أى كتب العهد القديم، والعهد الجديد ((ترجمة مرسلى الجمعية الأمريكانية)) ((طبع نيويورك)).

(٥) اللاويين، الإصحاح الثالث والعشرون (٢٦-٢٧-٢٨).

(٦) سفر العدد، الإصحاح التاسع والعشرون (٧).

ولم تشرِّع من الأحكام الغليظة المجحفة، ومن القيود القاسية العنيفة، ما تجعله مرادفاً لتعذيب النفس وإرهاقها، وحملها على ما لا طاقة لها به، بل سنَّت التسحّر، واستحبَّت تأخيره: إلى أن يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وسنَّت تعجيل الفطور، وأباحت النوم والراحة فى الليل و النهار، والاشتغال بالصناعة والتجارة، والأعمال المفيدة المباحة، خلافاً لليهودية، التى فرضت الإضراب عن العمل، والانقطاع إلى العبادة.

وكان الصوم فى كثير من الديانات القديمة -ولا يزال- مختصاً بطبقة دون طبقة، فكان فى الديانة البرهمية، فريضة على البراهمة فى أكثر الأحيان، وعند المجوس على العلماء والكهنوت (دستور)، وعند اليونان بالإناث دون الذكور.

أما الإسلام، فقد عمَّم وأطلق، فنزل: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبجانب هذا التخصيص، الذى عُرفت به الديانات القديمة، لم تستثن المعذورين، أما الإسلام فقد استثنى أصحاب العذر، وقال الله تعالي: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقد كان فى بعض الديانات جوع أربعين يوماً، لا يتناول فيها الصائم غذاءً، وبالعكس من ذلك توسَّعت بعض الديانات توسعاً زائداً، فاقتصرت على تحريم تناول اللحوم، وأباحت الفواكه والمشروبات، أما الإسلام، فقد جاء تشريعه وسطاً بين الشدة والرقة، وبين الإرهاق والإطلاق، فجاء صومه صوماً متزناً عادلاً، ليس فيه تعذيب أبدان، ولا إزهاق أرواح، وليس فيه كذلك إرخاء عنان، ولا تسريح فى رَوْح وريحان.

وكان اليهود يقتصرون على ما يأكلونه عند الفطر، ثم لا يعودون إلى أكل أو تمتع. أما العرب فكانوا لا يأكلون ولا يتمتعون بالمباحات، إذا ناموا. أما الإسلام فقد ألغى هذه القيود كلها، ونزل القرآن: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وكذلك عُفى عن الخطأ والنسيان[1]،

(١) **صحيح**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قال رسول الله ﷺ: من أكل وشرب ناسياً فلا يفطر، فإنما هو رزق رزقه الله)) (رواه الترمذي) (٣/١٠٠) (٧٢١)، ورواه الشيخان البخارى (٢/٦٨٢) (١٨٣١)، =

وكذلك لا يُفسد الصوم أفعال اضطرارية: كالقيء والرّعاف، والاحتلام[١] خلافاً لبعض الديانات.

وكان الصوم فى أكثر الديانات القديمة مضبوطاً بالشهور الشمسية، وكان ذلك يحتاج إلى العلوم الرياضية والفلكية، وإلى وضع التقاويم، ثم كانت تلك الأيام مستقرة دائمة فى فصول خاصة، لا تدور ولا تنتقل.

أما الصوم الإسلامى فهو مضبوط بالشهور القمرية، ومربوط بالهلال[٢] فقد جاء فى القرآن: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وقال النبى صلىّ الله عليه وآله وسلم: «لا تصوموا قبل رمضان، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن حالت دونه غيابة، فأكملوا ثلاثين يوماً»[٣]. وجاء فى حديث آخر: «لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمَّ عليكم فاقدروا له»[٤]. فاستطاع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، وفى البوادى وقلل الجبال وفى الدور الممعن فى البداوة والأمية، وفى أمكنة منقطعة موغلة فى الغابات والآجام، أن يبدءوا الصوم ويختموه من غير مشقة، وتكلّف، وبحث علمى عميق، وكانت فائدته كذلك، أن رمضان يدور فى فصول مختلفة، من شتاء وصيف، فلا يكلف المسلمون بالصوم فى حر

= ومسلم (٨٠٩/٢) (١١٥٥) ولفظهما: «من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه».

(١) **ضعيف**: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يفطرن الصائم: الحجامة، والقيء، والاحتلام» (رواه البخاري) ولم أجده فى البخارى إنما أخرجه الترمذى (٩٧/٣) (٧١٩)، وقال: حديث أبي سعيد حديث غير محفوظ. وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٥٦٧).

(٢) والمعتبر فى الشريعة الإسلامية، شهود الهلال، لا وجوده. فلا يحتاج إلى تكلفات رياضية وصناعية يهتدى بها إلى وجوده، كما يلجأ إلى ذلك بعض البلاد والحكومات الإسلامية. وعلى ذلك يدل الحديث الصحيح: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته» صحيح. أخرجه البخارى (٦٧٤/٢) (١٨١٠)، ومسلم (٧٦٢/٢) من حديث أبي هريرة -ﷺ-. وفى المسألة بحث علمى طويل.

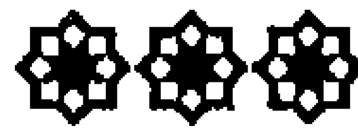
(٣) **صحيح**: رواه الترمذى أخرجه البخارى (٦٧٤/٢) (١٨٠٧)، ومسلم (٧٥٩/٢) (١٠٨٠)، وأبو داود (٢٩٧/٢) (٢٣٢٠)، والنسائى (١٣٤/٤) (٢١٢١)، وابن ماجه (٥٢٩/١) (١٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمر -ﷺ-، عن ابن عباس ﷺ .....

(٤) **صحيح**: رواه الستة إلا الترمذى ......

لافح، وفى قيظ شديد، ولا فى برد قارس وشتاء كالح، دائماً وفى كل سنة، فيتمتعون بتغيُّر الفصول واختلاف الطقوس، ويتعوّدون كل ذلك، وهم فى كل ذلك صابرون محتسبون، أو شاكرون حامدون»[1].

ومن عرف أوضاع الصوم، ومناهجه، فى الأمم القديمة، والديانات المعاصرة، ودرس تاريخها وفلسفتها، وشاهد أحوال الصائمين فيها - على قلتهم وتشتّت أحوالهم- وقارن ذلك بالصوم الإسلامى، ووضعه ومنهجه، وفقهه وآدابه، وأكرمه الله بالدخول فى هذه الأمة المسلمة، والعمل بالشريعة الإسلامية السمحة، نطق لسانه بالحمد والثناء، والشكر على نعمة الإسلام، وكان حقيقاً بأن يقول هو صائم:

﴿ الحَمْدُ للّه الّذى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِى لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].



(١) استفدنا فى هذا الفصل من كتاب سيرة النبى ﷺ، للأستاذ العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله (المجلد الخامس).

الحَجُّ

الحَجّ

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ من كُلِّ فَجٍّ عَمِيق* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّه فِي أَيَّام مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَة الأَنْعَام فَكُلُوا منْهَا وَأَطْعمُوا البَائسَ الفَقيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتيقِ ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨، ٢٩].

الإسلام دين توحيد وتجريد لا وساطة فيه ولا تمثيل:

الإسلام دين توحيد خالص، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه[1]، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره، ويصرف إليه همته، ليتخيل به الإله الذى لا تدركه الأبصار، ويرتبط به فى خياله، ويتمسك بأذياله، فلا وسائط ولا مظاهر، ولا صور ولا أصنام، ولا هياكل ولا طبقة كهّان ولا سدنة، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿ فَاعْبُد اللَّهَ مُخْلصاً لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ للَّه الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

إذاً فالإسلام دين يطلب تجرّداً فى الخيال، وسمواً فى الفكر، ونقاءً فى الإرادة والنية، وإخلاصاً فى العمل والتطبيق، وانقطاعاً عن الغير لا يتصور فوقه وأكثر منه، ومستوى فى الفكر والعقيدة لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات، والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه فى الدقّة والسمو، فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

حاجة الإنسان إلى مُشاهَد يوجه إليه أشواقه ويحقق رغبته من التعظيم والدنو:

ولكن الفطرة البشرية، هى الفطرة البشرية، فالإنسان ما زال -ولا يزال- باحثاً عن

---

(١) إلا الرسل والأنبياء، بمعنى أنهم واسطة بين الخالق والخلق فى تبليغ الرسالة، والتعريف بالله وصفاته، وما يليق به، وما لا يليق، والإرشاد إلى الطريق المستقيم.

شيء يراه بعينه، فيوجّه إليه أشواقه، ويقضى به حنينه، ويشبع به رغبته الملحّة، فى التعظيم والدنو.

شعائر الله وحكمتها:

وقد اختار الله أموراً ظاهرة محسوسة، اختصّت به، ونسبت إليه، وتجلت عليها رحمته، وحفّتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله، وارتبط بها وقائع وحوادث، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه، ودينه وتوحيده، وحسن بلاء أنبيائه، وسمّاها «شعائر الله»(١) التى جعل تعظيمها تعظيمه، والتفريط فى جنبها تفريطاً فى جنبه، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن فى نفوسهم، ورغبتهم الفطرية فى الدنو والمشاهدة، بل حثّ على ذلك، ودعا إليه فقال: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [الحج: ٣٠].

عنصر الهيام والحنان فى طبيعة الإنسان أثرهما فى الحياة ومنزلتهما من الدين:

ثم إن الإنسان، ليس عقلاً مجرداً، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون، أو إرادة قاسرة، ولا جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم، أو على خط مرسوم، إن الإنسان عقل وقلب، وإيمان وعاطفة، وطاعة وخضوع، وهيام وولع، وحب وحنان، وفى ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته، وفى ذلك سر قوّته وعبقريته وإبداعه، وسر تفانيه وتضحيته، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة، وأن يصنع العجائب والخوارق، واستحقّ أن يحمل أمانة الله التى اعتذرت عنها السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان، ووصل إلى ما لم يصل إليه ملك مقرب، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد.

إن صلة هذا الإنسان بربِّه، ليست صلة قانونية، عقلية فحسب، يقوم بواجباته ويدفع

---

(١) اقرأ البحث اللطيف فى ذلك، فى حجة الله البالغة، لحكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى (٥٥/١).

ضرائبه، ويخضع أمامه، ويطيع أوامره وأحكامه، إنما هى صلة حبٍّ وعاطفة كذلك، صلة لا بد أن يرافقها، ويقترن بها، ويتحكّم فيها حنان وشوق، وهيام ولوعة، وتفان وتهالك، والدين لا يمنع من ذلك، بل يدعو إليه، ويغذيه ويقويه، فتارة يقول القرآن: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وتارة يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]. ويذكر أنبياءه رسله، وينوِّه بحبهم وحنانهم، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم فى هذا الحبّ، فيقول عن يحيى عليه السلام: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم: ١٢، ١٣]، ويحكى قصة خليله إبراهيم كيف آثر حبَّ الله وطاعته على حب ولده، وفلذة كبده، وكيف وضع السكين على حلقومه، وحاول ذبحه حتى شهد ربُّه بصدقه وحسن بلائه، وقال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦]، ولذلك قال فى وصف إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

الصفات هى التى تثير الحب وتبعث الحنان لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن:

وذلك سر إطالة القرآن فى ذكر صفات الله وأفعاله، وآلائه ونعمائه، وإشادته بها، والعودة إليها مرة بعد مرة، فإن الصفات، هى التى تثير الحب وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن الذى يعبّر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام، «بالنفى المجمل والإثبات المفصّل»[1] ، فإن الإثبات هو الذى ينبع منه الحب، ويفيض منه الحنان، وتنبعث به الأشواق، وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفى رائد العقل، كان الإثبات رائد القلب، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى، التى نطق بها القرآن، ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنّى بها العارفون، وسبّح بها المسبّحون، وسبح فى بحارها، ونزل فى أعماقها الغوّاصون؛ لكان هذا الدين خشبياً جامداً، لا يملك على

(١) التعبير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

أتباعه قلباً، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة، ولا يحدث فى القلب رقة، ولا فى الصلاة خشوعاً، ولا فى العين دموعاً، ولا فى الدعاء ابتهالاً، ولا فى الجهاد تفانياً، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح، ولا مرونة ولا سعة، وكانت الحياة كلها رتيبة خشبية، لا عاطفة فيها ولا أشواق، ولا حنان فيها ولا هيام، وإذاً: أى فرق بين الحياة والموت، وبين الإنسان والجماد؟!

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض؟:

لقد كان المسلم فى حاجة إلى غذاء للقلب، وإلى زاد للعاطفة، وإلى أن يقضى شوقه، ويروى غلته مرة بعد مرة، وعلى فترة بعد فترة، وكان فى حاجة إلى أن تطفح كأسه، فما قيمة كأس تمتلئ ولا تطفح؟. وكان فى حاجة إلى أن تفيض هذا الكأس، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض؟.

تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيمانه:

وقد تفطّن حجة الإسلام الغزالى بذكائه النادر، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة، وعرف أن الشوق غريزة فى الإنسان الحى السليم، وحاجة من حاجاته، فيبحث له عما يقضى به حاجته، ويروى غلته، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله، والحج وما فيه من مناسك، خير ما يحقق رغبته، ويسلى حنانه وعاطفته، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴾ [الحج: ٢٦-٢٩].

يقول الغزالى:

«فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المُحبّ مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل،

فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل»[١].

ويردفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، فيشير إلى نفس النكتة، ويجعلها حكمة الحج الأساسية، فيقول:

«وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضى به شوقه فلا يجده إلا الحج»[٢].

لقد كان للمسلم أن يقضى هذا الشوق، وأن يبرز هذا الحنان، وأن تفيض كأسه فى الصلوات التى يصليها كل يوم، فيسلى بها قلبه، ويطفئ بها غلته، ويهدئ بها ثائرته، ويخفف بها حرارة شوقه، ووهج نفسه، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعاً، أو تسقط دموعاً، إنها قطرات قد لا تفى بما يجيش فى الصدر من حنان وولوع، وهى قطرات قليلة فى بعض الأحيان لا تسمن ولا تغنى من جوع.

طفرة أو قفزة واسعة من سجن ضيق إلى عالم فسيح:

وكان للمسلم أن يروى ظمأ روحه، ويقضى حاجة حنانه، ويكسر سَورة نفسه، ويثور على (وثنية) عاداته ومالوفه، وأن يغذى روحه بتخلية معدته فى شهر رمضان، ولكنها ساعات محدودات كذلك، محفوفة بما يخفف أثرها، ويضعف سلطانها، من أكلة متخمة ورى مسرف، وراحة منعمة ومجتمع ثائر، ومدنية قد أحاطت بالصائم، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة، فكان المسلم- بكل ذلك- فى حاجة إلى طفرة، او قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم، العتيق الخلق، وينتقل من عالم، كله قديم مألوف، ومقيد محدود، ومخطوط مرسوم، ومصنوع معمول، إلى عالم، كله جديد وطريف، وحر منطلق، وثائر مارد، كله حب وغرام، وشوق وهيام، وقد تحرر من كل رق، وثار على كل وثن، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن، وآمن بوحدة الإلهية، وبوحدة المنعم والوهاب، وبوحدة الإنسانية، وبوحدة العقيدة، وبوحدة المطلوب، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

---

(١) إحياء علوم الدين: (١/٢٤).

(٢) حجة الله البالغة: (١/٥٩).

لقد كان المسلم فى حاجة -بعد هذه الصلوات، التى يصليها كل يوم، وبعد شهر رمضان، الذى يصومه كل عام، وبعد الزكاة، التى يقوم بها إذا تم النصاب وحال الحول- إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان، وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين.

تحد لعبّاد العقل والمادة ودعوة إلى الإيمان بالغيب واتباع الأمر المجرد:

وكان المسلم فى حاجة إلى أن يثور على عقله، الرزين الوقور، المقلد المطبق، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟. وكان فى حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات، وقوانين وضعية، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس، ويفك قيوده وأغلاله، وينتزع الزمام من يد عقله، الذى استبد به زماناً طويلاً، ويعطيه لقلبه وعاطفته، فيتحكمان فيه ما شاءا، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون، ويذهب فى الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون، فلا حرية لمن ملكه المجتمع، وسيطرت عليه الحضارة، وتسلطت عليه آلهة التقاليد، ولا توحيد لمن أسرته العادات، والمألوفات والشهوات، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً، مسلماً مستسلماً، من اعتمد دائماً على عقله، لا ينشط لعمل، ولا يسرع لامتثال أمر، حتى يزنه فى ميزان عقله المخلوق، ويعرف فوائده المادية المحسوسة. والحج بوضعه الدقيق الغامض، المنافى للمألوف المعروف، تحدٍ لعبّاد العقل والمادة، وأسارى النظم والترتيبات، ودعوة إلى الإيمان بالغيب، واتباع الأمر المجرد، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة، وفى مكان محدود، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة، والمنطق والفلسفة فى كل حين وأوان، وفى كل زمان ومكان.

وقد أبدع حجة الإسلام الغزالى كل الإبداع فى بيان روح الحج وحقيقته، -وهى الإيمان بالغيب، والامتثال المطلق- وصوَّر بقلمه البليغ، وريشته البارعة، صورة الحج الرائعة، وبلغ إلى لب الدين وجوهره، وروح الإسلام وحقيقته فى شرح هذا الركن العظيم، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتّاب فى القديم والحديث، يقول رحمه الله:

«ووضعه (أى البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً، متواضعين لرب البيت، ومستكينين له، خضوعاً لجلاله

واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت، أو يكتنفه بلد، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم، وأتمّ فى إذعانهم وانقيادهم.

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول، كرمى الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة إرفاق، ووجهه مفهوم، وللعقل إليه ميل، والصوم كسر للشهوة، التى هى آلة عدو الله، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عزّ وجل بأفعال، هى هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل، فأما ترددات السعى ورمى الجمار، وأمثال هذه الأعمال، فلا حظ للنفوس، ولا أنس للطبع فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط.

وفيه عزل للعقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإنّ كل ما أدرك العقل معناه، مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ فى الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقًّا، تعبداً ورقًّا»[١] ، ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد، وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق، وإذا تفطنت لهذا، فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات، وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى»[٢].

---

(١) حجة الله البالغة: (١/٩٥).

(٢) إحياء علوم الدين: (١/٢٤٠) ضعيف مرفوعا: أخرجه البزار كما فى تلخيص الحبير (٢/٢٤٠) من حديث أنس. قال ابن حجر: وذكر الدارقطنى فى العلل الاختلاف فيه، وساقه بسنده مرفوعاً ورجح وقفه ا.هـ.

ويقول في الرمي، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد والأمر المجرد:

«فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية، وانتهاضاً لمجرد الامتثال، من غير حظ للعقل والنفس فيه. ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى، في ذلك الموضع، ليدخل على حجّه شبهة، أو يفتنه بمعصية. فأمر الله عزّ وجلّ، ان يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده، فلذلك رماه، وأما أنا، فليس يعرض لي الشيطان، فاعلم أن هذا الخاطر من السيطان، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان.

واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه»[(١)].

ويقول في الذبح:

«فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال، فأكمل الهدى، وارجُ أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار، فهكذا ورد الوعد، فكما كان الهدى أكبر، وأجزاؤه أوفر، كان فداؤك من النار أعمّ»[(٢)].

الحاج طوع إشارة ورهين أمر:

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد، وسعي وراء الأمر، وتلبية وإجابة للطلب، فالحاج يتقلب بين مكة و منى، وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة: يقيم ويرحل، ويمكث وينتقل، ويخيم ويقلع، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر، ليست له إرادة ولا حكم، وليس له اختيار ولا حرية، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات، من غير أن يقف بالمزدلفة، ويقف بعرفات، ويظل سحابة النهار مشتغلاً بالدعاء والعبادة، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب، ليستجم ويستريح، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة، ويقضي حياته

---

(١) إحياء علوم الدين: (١/٢٤٣).

(٢) المرجع السابق نفسه.

محافظاً على الصلوات فى وقتها، ويؤمر بترك صلاة المغرب فى عرفة لأنه عبد لربه، ليس عبداً لصلاته وعاداته، فلا يصليها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء، وتطيب له الإقامة فى المزدلفة، فيريد أن يطيلها، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى منى.

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيَّمين، نزول وارتحال، ومكث وانتقال، وعقد وحل، ونقض وإبرام، ووصل وهجر، ولا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى.

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان:

وكان ينبغى أن يكون ذلك فى مكان، قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين، وأشد الناس حباً لله، وأحبهم إلى الله فى عصره، وأسرته الصغيرة، الطيبة المباركة، بأكبر دور فى الحب والولاء، والإخلاص والوفاء، والإيثار و الفداء، وقاموا بأروع رواية وأجملها، فى تاريخ الحب السامى والولاء الطاهر، والإخلاص المعجز، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون، والموحدون المخلصون، والمحبون المتفانون فى كل عصر، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم، واحتذوا حذوهم، وترسموا خطاهم، وحكوا هذه الرواية وأعادوها، فطافوا حول البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ووقفوا بعرفات وباتوا فى المزدلفة، ورموا الجمرات، ونسكوا فى منى.

وكان فى المكان والزمان، وفصول الرواية التى يعيدونها ،والأعمال التى يقلدونها، ونسائم الحب التى ينشقونها، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذى يعيشون فيه، وطبقات الأمة، التى يتصلون بها ويعاشرونها، وفى هذا الالتقاء الدينى الروحى، الذى لا نظير له على وجه الأرض، وفى هذا الضجيج من الدعاء، والذكر والتلبية والاستغفار، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة، وينبه النفوس الخامدة، ويشعل شرارة الحب والطموح التى انطفأت، أو كادت تنطفئ، ويجلب رحمة الله.

وقد أشار العلماء العارفون إلى ما فى اجتماع المسلمين العظيم، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى، ومن تحريك للقلوب القاسية، وإثارة للأشواق.

يقول حجة الإسلام الغزالى:

«فإذا اجتمعت هممهم، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم، وامتدت إليه أعناقهم، وشخصت نحو السماء أبصارهم، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة، فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم»[١].

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى:

«اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين فى زمان، يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدِّيقين، والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات، قد قصده جماعات من أئمة الدين، معظِّمين لشعائر الله، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير، وتكفير الخطايا، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة، وهو قوله ﷺ : «ما رؤى الشيطان يوماً، هو فيه أصغر ولا أدحر، ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ... الحديث»[٢].

وقال:

«ومن باب الطهارة النفسانية، الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ويحلون فيه، ويعمرونه بذكر الله، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير، فإذا حلَّ به غلب ألوانهم على نفسه»[٣].

تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية (إبراهيم) من أعظم مقاصد الحج:

ومن مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها إبراهيم الخليل، والتشبع بروحه، والمحافظة على إرثه، والمقارنة بين حياتنا وحياته، وعرضها عليها، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون فى العالم، وتصحيح ما وقع فى حياتهم من أخطاء أو

(١) إحياء علوم الدين: (٢٤٣/١).

(٢) حجة الله البالغة: (٥٩/١) والحديث أورده ابن عبد البر فى الاستذكار (٤٠٠/٤) (١٤) من طريق مالك عن إبراهيم بن علية بن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً وإسناده صحيح إلا أنه مرسل.

(٣) المرجع السابق نفسه.

فساد، أو تحريف، وإعادة ذلك كله إلى أصله ومنبعه، فالحج عرضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياهم، ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها.

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى:

«(ومن مقاصد الحج) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإنهما إماما الملة الحنيفية، ومشرعاها للعرب، والنبى ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية، وتعلو به كلمتها، وهو قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها كخصال الفطرة[1]، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: «قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم»[2].

إعادة قصة إبراهيم وتمثيلها فى الحج:

فمن أوضح ملامح الحج، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه، هو الحب والهيام والتفانى، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة، وتقليد العشاق والمحبين، وإمامهم وزعيمهم إبراهيم الخليل، فحيناً طواف الحب والهيام حول البيت الحرام، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والاستلام، وحيناً سعى بين غايتين، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون، حتى فى تؤدها ووقارها، وفى جريها وهرولتها، ثم قصد لـــ(منى) فى يوم معين هو يوم التروية، ثم قصد إلى (عرفات) ووقوف بساحتها وعرصاتها، ودعاء وابتهال، ثم بيتوتة فى المزدلفة، وعودة إلى (منى) وحلق ونحر، اقتداء لسنة إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمى الجمرات، الذى ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل، وفى تقليد أعمال المحبين تأثير غريب فى انتقال عدوى الحب، واتصال بالمركز

---

(١) **صحيح**: قال النبى ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الأبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء-يعنى الاستنجاء- قال الراوى: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة». رواه مسلم (٢٢٣/١) (٢٦١)، وأبو داود (١٤/١) (٥٣) والترمذى (٩١/٥) (٢٧٥٧) والنسائى (١٢٨/٨) (٥٠٤٢) وابن ماجه (١٠٧/١) (٢٩٣) ورواه أحمد فى المسند (١٣٧/٦) (٢٥١٠٤) عن عائشة - رضى الله عنها - .

(٢) **صحيح**: حجة الله البالغة: (٤٣/٢) أخرجه أبو داود (١٨٩/٢) (١٩١٩) من حديث ابن مربع الأنصارى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٩٤).

الكهربائى، الذى يجرى منه التيار، ووسيلة إلى جلب رحمة الله وشمول عنايته، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر ألذّ من هذا المنظر، الذى يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التى حدثت قبل آلاف من السنين، ولكن الله أفاض عليها الخلود، وطلب من جميع المحبين المخلصين إعادها وتمثيلها، إخزاءً للشيطان، وتقوية للإيمان، واقتداءً بخليل الرحمن.

قصة إبراهيم فى القرآن وصلتها بالبلد الأمين:

ولد إبراهيم فى بيت سادن من أعظم سدنة البلد، ينحت الأصنام ويبيعها، ويقوم على الهيكل الكبير، ويتصل به عن طريق العقيدة، وعن طريق الحرفة، وما أعظم المشكلة، وما أعقد العقدة، إذا التقت العقيدة بالحرفة، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية، ولا شىء فى هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية، ولكنه قلب سليم هُيِّئ للنبوة، وأُعدّ لتكوين العالم الجديد، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]. إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل إليها، ولا تتناولها أعظم ثورة، إنها مرحلة الحياة المنزلية، ومرحلة البيت الذى ولد فيه الإنسان، وفرض عليه أن يعيش فيه، ويقع كل ما يحكيه القرآن فى أسلوبه المعجز المبين من تحطيم إبراهيم للأصنام، وغضب عبّادها وحيرتهم وعيِّهم، وانتقامهم من الفتى الثائر، واشتعال النار وتحويلها برداً وسلاماً على إبراهيم، ومناظرته البليغة، أمام الملك الجبار(١).

وتنتهى هذه الثورة إلى أن يضيق عليه البلد، ويغضب عليه المجتمع، وتطارده الحكومة، فلا يحفل بكل ذلك ولا يحسب له حساباً، كأنه شىء كان منع على ميعاد، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها، فيخرج من بلده قرير العين، رضى النفس، إذ نجا برأس ماله، وهو الإيمان، فيهيم فى أرض الله، وهو فريد لا يعرف له ثانياً، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة، وعبادة الأوثان والشهوات، حتى يهبط مصر، فيكون هدف الامتحان والامتهان، وينجو بصاحبته، التى يطمع فيها الملك، فيفلتان من يده، ويأويان

(١) اقرأ الآيات ٥١ إلى ٧٠ من سورة الأنبياء.

إلى أرض الشام، فيغرس فيها الغرس الكريم، ويلقى فيها عصا التسيار[١]، ويقوم فيها بدعوته إلى رفض الأوثان، وإلى عبادة الله وحده.

وتطيب له الإقامة فى الشام حيث يتوفر الخصب ويتسع الرزق، و يتحلى جمال الطبيعة، فلا يلبث، أن يؤمر بالتوجه إلى أرض تقابل الشام فى الخصب والماء، وإبراهيم لا يعرف لنفسه حقاً، ولا يرتبط بأرض أو وطن، إنما هو طوع إشارة ورهن أمر، يعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع.

وهنا فى واد ضيق، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب، وقسا فيه الجو، وفقد الماء، وغاب الأنيس، وأوحش المكان، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة، والمولود الصغير، توكّلاً على الله وامتثالاً لأمره، واستسلاماً لقضائه، فلا جزع ولا فزع، ولا إشفاق ولا حذر، ولا سآمة ولا ضجر، ولا خور فى العزيمة ولا ريبة فى الوعد، تمرد على التجارب، ومعاكسة للطبيعة، وانقطاع عن الأسباب، وإيمان بالغيب، وثقة بالله، حين تسوء الظنون وتزل الأقدام.

ويعرض المحذور والأمر الواقع، فيغلب على الطفل العطش، ويشتد بالأم الظمأ، ولا مطمع هناك فى ثماد[٢] تروى غلتهما، وهنا تجيش فى المرأة عاطفة الأمومة والحنان، والإشفاق على المولود الصغير، فتخرج باحثة عن الماء، أو عن سيارة تحمل الماء، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد، فترجع لتطمئن إلى وجوده وحياته، ويغلب عليها الخوف على الحياة، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء، أو عن أثر إنسان، وهى بين اضطراب توحيه الطبيعة، وسكينة يوحيها الإيمان والثقة، وتعرف - وهى زوج نبى وأم نبيٍّ - أن البحث عن الأسباب لا ينافى الإيمان والثقة بالله، فهى مضطربة فى غير يأس، ومؤمنة فى غير تعطل وتواكل، منظر لم تشهد السماء مثله، وجاشت الرحمة الإلهية، وتفجَّر الماء بطريق معجز، فكان ماءً خالداً مباركاً لا ينضب

(١) أى المسير.

(٢) **الثمد**: الماء القليل يتجمع فى الشتاء، وينضب فى الصيف، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر، جمعه: ثماد.

ولا يغيض، قد وسع الخلق، ووسع الأجيال، وكان ماء لكل عصر، ولكل أمة، فيه غذاء وشفاء، وفيه بركة وأجر.

وخلد الله هذه الحركة الاضطرارية، التى ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة، فجعلها حركة اختيارية، يكلف بها أعظم العقلاء، وأعظم الفلاسفة والنبغاء، وأعظم الملوك والعظماء، فى كل عصر، وفى كل جيل، فلا يتم نسكهم إلا بالسعى بين هذين الجبلين الذين هما ميقات كل محب، وغاية كل مطيع، والسعى خير ممثل لموقف المسلم فى هذا العالم، فهو يجمع بين العقل والعاطفة، وبين الحس والعقيدة، إنه يستعين بالعقل، ويستخدمه فى مصالح حياته، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة، التى هى أعمق من العقل، إنه يعيش فى عالم قد حفّ بالشهوات، وملئ بالزخارف والمظاهر، لكنه يمر بينها، كالساعى بين الصفا والمروة، لا يُعرّج على شىء، ولا يتقيّد بشىء، إنما غايته وهمه ما يستقبله، يعتبر حياته أشواطاً محدودة، يقطعها إطاعة لربه، واقتداء بأم نبيه ﷺ لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعى، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به، حركة قيمتها وروحها ورسالتها «الحب» و «الانقياد».

ويكبر الولد، ويبلغ السن التى تقوى فيها عاطفة الأبوة، فيرافق والده ويسعى معه، ويشعر الوالد العظيم الذى قويت فيه العاطفة الإنسانية، وطبع على الحب والحنان بميل شديد إلى ولده وفلذة كبده، وهنا المشكلة، فإن قلبه هو القلب السليم الذى خص بالمحبة الإلهية، إنه ليس كقلب كل إنسان، إنه قلب (خليل الرحمن)، والمحبة لا تعرف شريكاً، ولا تحتمل عديلاً، فكيف وهى المحبة الإلهية، وهنا يتلقى إبراهيم إشارة بذبح الولد الحبيب، ورؤيا الأنبياء وحى، وتتكرر الإشارة، فعرف أنه أمر يراد، وأنه جد، فيختبر ولده، لأنه شئ لا يتم إلا بموافقته وجلادته، فيجد عنده غاية البر، وغاية النجابة، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلهى، وهو نبى ابن نبى، وجد نبى، ﴿ **قَالَ يَا بُنَىِ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب، ذلك ليذبح ولده، وهذا يطيع ربه ووالده، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره، وعرض لهما

الشيطان- ذلك الذى تكفل بالضلال، ومنع الإنسان من السعادة- فحاول صرفهما عن التنفيذ، وزين لهما العصيان، ورغّبهما فى الحياة، فاستعصيا عليه، وأبيا إلا أن ينفذا أمر الله، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة، ويفزع له الإنس والجن، فينتصب الولد للذبح، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح، ووقع ما أراده الله. فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل، إنما كان المقصود ذبح الحب الذى ينازع الحب الإلهى ويقاسمه، وقد ذُبح بوضع السكين على الحلقوم، إنما ولد أسماعيل ليعيش ويزدهر ويَنسِل، ويولد فى ذرّيته آخر الأنبياء وسيّدهم، فكيف يُذبح وكيف يموت، قبل أن يتحقّق ما أراده الله؟، وفدى الله إسماعيل بكبش من الجنّة يُذبح مكانه، وجعلها سنّة باقية فى عقبه وأتباعه، يذبحون أيّام النحر ويجدّدون ذكرى هذا الذبح العظيم، ويضحُّون فى سبيل الله ما يشترونه بحرِّ أموالهم:

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٩].

وخلد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم، وجعل رجمه بالحصى فى الأمكنة التى اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه، عملاً يتكرّر كل عام، وقصة تُمثّل فى أفضل الأيام، إثارة لبغض الشيطان، وإظهاراً للتمرّد عليه والعصيان، وهى حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة، إذا صحّ فيه الإيمان، واستقام فيه الفهم، وكمل الانقياد للأوامر، ويعرف أنه فى صراع دائم مع قوى الشر، ومعركة مع إبليس وجنوده، وأنّه ليس له نصيب منه إلاّ الرّجم والهوان.

ويدور الزمان دورته، وإسماعيل الصغير شاب قوى، أكرمه الله بالنبوة والسيادة، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسّعت وانتشرت، وكان لا بد لها من مركز تأوى إليه، وتعتمد عليه،وكثرت القصور للملوك، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى، ويعبد فيها الشيطان، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته، ويطهر لقاصديه وعابديه، فيؤمر إبراهيم بعدما قام الدين على قدمه وساقه، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفة، لبناء بيت الله تعالى، يكون مثابة للناس وأمناً، ومعبداً لله وحده، فيتعاون الوالد والولد فى بناء هذا

البيت البسيط المتواضع فى مظهره، العميق الرفيع فى عظمته، فينقلان الحجارة، ويرفعان البناء: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص، ليس لهما نظير فى الدنيا، وتقبّله الله بقبول حسن، وقضى ببقائه، وكساه الجمال والجلال، وعطف إليه القلوب والنفوس، وجعله مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب، يودّ الناس لو يسعون إليه على رءوسهم، ويصلون إليه ببذل مُهجهم ونفوسهم، مع تجرّده عن كل ما يستهوى القلوب، ويستلفت الأنظار، ووقوعه فى بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبَهرج المدنية. ولما كان ذلك نودى إبراهيم: ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٧-٢٩].

كان العالم فى عصر إبراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنيّة أُخرى غير الوثنيّة التى أغرقوا فيها وغَلوا، من عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيين، ودعوة إلى التوحيد النقى الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شىء وأنّه يخلق الأشياء من عدم، وأنّه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها، وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها، ويسخّرها لما يشاء ومتى يشاء، أشعل الناس له النيران، وقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة، لا تنفك عنها، إنما هى طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزّمام، وحوّلها إلى برد وسلام، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى

إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

واعتقد الناس أنه لا حياة إلاّ بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضى مخصبة تكثر فيها المياه، ويتوفّر فيها الخصب، وتسهل فيها التجارة والصناعة، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعُرف الشائع، والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة- المكونة من أم وابن- واديًا غير ذى زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرخاء والثراء، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب، ويجبى إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف، فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه، فضمن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطاً للخيرات، والثمرات: ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣، ٤]. تركهم فى أرض لا أثر فيها لماء يروى الغلّة، ويبل الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس فى سخاء، ويحملونه إلى بلدهم. ويترك أهله فى بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يُصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فجٍّ عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادية المسرفة الشائعة فى عصره، وعبادة الأسباب واتِّخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شىء، وهكذا كانت سنة الله معه، يُخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

الحج تخليد لخصائص إبراهيم ومآثره وتجديد لدعوته وتعاليمه:

والحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات، وحوادث، وما يتلبس به الحاجّ من التجرُّد عن المظاهر، وما يأتى به من عمل ونسك- من إحرام ووقوف، وإفاضة، ورجم

وسعى وطواف- تخليد لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفى الأسباب، والتوكل على الله والتفانى فى سبيله، وإيثار لطاعته ومرضاته، وتمرّد على العادات والأعراف، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة، وتجديد لذلك الإيمان القوى، والحب العميق والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع، والحج ضامن لبقاء هذه المعانى السامية كلّها، وهذه القيم الربانية كلّها، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التى هى فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج إبراهيم ويتشبَّعوا بروحه، ويقوموا بدعوته فى كل عصر وفى كل مكان، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

عنوان جديد وخط فاصل فى كتاب الإنسانية:

إن إبراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد نيِّر مشرق فى كتاب الإنسانية وامتدادها، ينفصل به التاريخ عن التاريخ، وتتوزّع به الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن، ويبتدئ به عهد وينتهى به عهد، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية، وجعل فى ذريته النبوة والولاية، والوصاية الدينيّة على العالم للأبد، وكتب لأسرته ومن دخل داره، الجهاد للحق، والوقوف فى وجه الباطل إلى آخر الأبد، والدعوة إلى الله، وتجديف سفينة البشريّة فى عواصف هوجاء، وأمواج عاتية، والمحافظة على هذا السراج من أن ينطفئ، وهو العامل البنّاء الوحيد الذى استعمله الله فى إسعاد البشرية وعَصمها من تخريب العالم وتدمير الإنسانية، وسوقها إلى الجحيم.

عماد الإنسانية وقيام للناس:

والحج وشهود الموسم، والتقاء أبناء ملّة إبراهيم فى مكة كل عام، وهو كافٍ لبقاء هذه الصلة، بين إبراهيم وأتباعه، وأبنائه الروحيين، وتجديد هذه المعانى والعقائد والأهداف التى فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلها، لذلك قال الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ

الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المائدة: ٩٧].

مركز دائم للهداية والإرشاد والإصلاح والجهاد:

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الروحى، والغذاء العاطفى، تقام حوله المناسك، وتغذّى به العاطفة، وتشعل به مجامر القلوب، وتشحن به (بطاريتها) الفارغة، ويتلقى منه الرسالة الدينية، ويجتمع حوله العالم الإسلامى كل عام، يُؤدى خراجه من الطاعة، وضريبته من الحب والانقياد، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين، ولجوئه إلى هذا الركن الركين، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء، والزعماء والعظماء، والملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، فى ولهٍ وهيامٍ، وفقه وحكمة، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق، متوحدون على تعدد، متركزون على انتشار، أغنياء على الفقر، أقوياء على الضعف، ينتشرون فى العالم ويسعون فى أرزاقهم ومصالحهم، وينتسبون إلى أمم وسلالات، ويختلفون فى الحضارات والثقافات، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة واحدة، وحياتهم كلّها طواف وسعى، ونسك وعبادة، وإيمان وعقيدة، ومقاماتهم كلّها منى وعرفات، وأسفار ووقفات، وإنما هم فى رحلة دائمة، وتقدم مستمرّ، وتعارف متكرّر، حتى يقضوا نحبهم ويلقوا ربّهم.

إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده العظيم:

وكان من الطبيعى بعد ذلك كله، أن يحنّ المسلم، لا سيما الوافد من مكان بعيد، إذا قضى حجّه، وأدّى مناسكه إلى مهجر خاتم المرسلين ومثواه الأخير، ومأرز[(١)] الإسلام، إلى المسجد الذى انبثق منه النور، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم، وقوة الإسلام فى العالم، إلى المدينة، التى آوى إليها الإسلام، وتمثّلت فيها فصول التاريخ

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٦٣) (١٧٧٧)، ومسلم (١/١٣١) (١٤٧) من حديث أبى هريرة - ﷺ - قال: قال رسول الله - ﷺ - «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» ويأرز أى يجتمع وينضم بعضه إلى بعض. راجع شرح النووى على مسلم فى الموضوع المذكور به.

الإسلامى الأول، وابتلّ ترابها بدموع الصحابة رضى الله تعالى عنهم ودمائهم، فيصلى فى المسجد الذى تُعادل ركعة فيه بألف ركعة فى غيره[1]، ويقف فى مواقف، وقف فيها الشهداء والصدّيقون، والسابقون الأولون، فيستمد منها الصدق والإيمان، والحب والحنان، والبطولة والشهادة فى سبيل الإسلام، ويصلّى ويسلّم على هذا النبى الذى خرج بدعوته وجهاده من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وذاق لأول مرةٍ حلاوة الإيمان، وعرف قيمة الإنسان.

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل:

والحج عرضة سنوية للملّة، يرجع إليه الفضل فى نقائها وأصالتها، وفى بقاء هذا الدين بعيداً عن التحريف، والغموض والالتباس، وفى بقاء هذه الأمة، بعيدة عن الانقطاع عن الأصل، والمصدر والأساس، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التى وقعت أمم كثيرة فريستها فى الزمن الماضى، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة، تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها الإبراهيمية الولوع الحنون، العطوف الرءوف، الثائرة القويّة الحنفيّة السمحة، وتتوارثها جيلاً بعد جيل، فكأنها القلب الحى القوى الفياض الذى يوزّع الدم إلى عروق الجسم وشرايينه، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها فى صعيد واحد، فينفى بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وخرافة المخرفين، ويردونها إلى الأصل الإبراهيمى الحنيفى، وإلى الشرعة المحمدية (الصّافية)، وإلى الدين الخالص، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينيّة والعقلية والثقافية، وتعتصم عن أن تؤثّر فيها الإقليمية والمحلية تأثيراً يُفقدها الوحدة الحنيفية الإبراهيمية، والصبغة الإسلامية المحمدية، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة، والأمم الدينية العديدة.

---

(١) **صحيح**: عن أبى هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام)) (متفق عليه) أخرجه البخارى (١/٣٧٨) (١١٣٣)، ومسلم (٢/ ١٠١٢) (١٣٩٤).

لقد قدّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش فى بيئات مختلفة، وفى أقاليم عديدة، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً، مختلفة جداً، من حرارة وقوة وجمود وخمود، وعنف وقسوة، ومصارعة ومقاومة، وإغراءات مادية وسياسية، وتقدم فى الحضارة والمدنية، وتوسُّع فى المال والمادة، وضيق وضنك، وبذخ وترف، وعسر ويسر، وشدة ورخاء، وتسلُّط عدو قاهر وملك جائر، وكانت الأمة فى حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان، وإثارة عاطفة الحبّ والحنان، وإعادة الوفاء والولاء فى سائر الأجزاء والأعضاء، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام، وتؤتى أُكلها كل حين بإذن ربّها، وتكتسى فيه هذه الشجرة العالميّة لباساً جديداً قشيباً، غضاً طرياً.

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، بما أكرمه الله من فقه دقيق، وفهم عميق لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام، فأشار إلى هذه النكتة فى كتابه (حجة الله البالغة) فقال:

«وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليتميّز الناصح من الغاش، والمنقاد من المتمرِّد، ليرتفع الصِّيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملّة تحتاج إلى حج، ليتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس فى دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي»(١).

وقال: «وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم، ولا شيء مثله فى تذكُّر الحالة التى كان فيها أئمة الملّة والتحضيض على الأخذ بها»(٢).

وقال: «ومنها تحقيق معنى العرضة، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأقاصى والأدانى، ليعرف فيه بعضهم بعضاً، ويستفيدوا أحكام الملّة، ويعظموا شعائرها.

والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملّتهم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) حجة الله البالغة: (١/٥٩-٦٠).

(٢) المرجع السابق نفسه.

وقضى الله أن لا يخلو (الحج) فى أشد أيام هذه الأمة وأحلكها، من الربّانيين المخلصين، ومن الصالحين المقبولين، ومن الدعاة المرشدين، ومن الداعين المبتهلين، ومن الخاشعين المنيبين، ومن العلماء الراسخين الذين يملئون الجوّ روحانية وخشوعاً، فترق القلوب القاسية، وتخشع النفوس العاصية، وتفيض العيون الجامدة، وتلتهب المجامر الخامدة، وتنزل رحمة الله وتغشى السكينة، ويخزى الشيطان، لذلك جاء فى الحديث، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة، وما ذاك إلاّ بما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[1]. ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون الذين جاءوا من كل صوب بعيد وفج عميق، (بطارية) قلوبهم الفارغة، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة، وعلم وفقه، يعيشون عليه فى حياتهم الباقية، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتسويل، وتخويف وتزيين، ويشركون فى هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف، أو المرض أو العدو، وهكذا يجرى هذا التيار الكهربائى الإيمانى فى جسم هذه الأمة المنتشرة فى الآفاق، فيتعلم الجاهل، ويقوى الضعيف ويتحمس الخامد، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها، وتستأنف كفاحها من جديد.

مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية:

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التى قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة، وهو إظهار لشعار هذه القومية، فتتجرّد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التى تميِّز بعضها عن بعض ويتعصّب لها أقوام؛ وتظهر كلها فى مظهر واحد يسمى (الإحرام) فى لغة الدين والفقه وفى مصطلح الحج والعمرة، حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرءوس، وصغير وكبير، وغنى وفقير، وتهتف كلها فى لغة واحدة، «لبّيك اللهمّ لبّيك،

(١) رواه مالك مرسلاً وإسناده صحيح إلا أنه مرسل وقد تقدم تخريجه.

لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وهكذا تتجلّى القومية الإسلامية فى اللباس والهتاف، وهما من أوضح ما تجلّت فيه قومية، وفى وحدة المناسك والغايات التى يقوم بها جميع الأفراد والشعوب، ويسعى إليها العرب والعجم، ويلتقى عليها القاصى والدانى، فكلهم يطوفون حول بيت واحد، ويسعون بين غايتين مشتركتين (الصفا والمروة)، وكلّهم يقصدون (منى)، وكلّهم يؤمون (عرفات) ويقفون فى موقف واحد، وكلّهم يبيتون فى مبيت واحد، ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ويفيضون إفاضةً واحدة، ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وكلهم يقفون أياماً فى (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي.

وما دام الحج- والحج فريضة باقية إلى يوم القيامة، ومؤسسة خالدة خلود هذه الأمة- فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات، كما ابتلعت أمماً كثيرة، ولا يصبحون ضحيتها، ولا تكون بلادهم التى يحبُّونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية، قبلة يتوجهون إليها، وكعبة يحجون إليها، إنما هى قبلة واحدة يتوجه إليها الشرقى والغربى، والعجمى والعربى، وإنما هى كعبة واحدة يحجّ إليها الهندى والأفغانى، والمسلم الأوروبى والأمريكى، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ويحنّ إليها المسلم فى أقصى الأرض، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى إليها على الرأس والعين، ويعتبر ذلك غاية الأوطار وأقصى الأمانى وأعظم السعادات.

ليشهدوا منافع لهم:

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التى نعلم منها الكثير، ونجهل منها الكثير، وربما كان ما نجهله ونتعتع به أكثر مما نعرفه، ومما نوّه به حكماء الإسلام، وأشادوا به فى مؤلفاتهم، فقد قال الله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨]، فأطلق المنافع، ونكّرها وأبهمها، ودلّ هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوّعها وتجدّدها، فى كل زمان

وأنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء(١).

يجب أن يُمثّل البلد الأمين الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامى المثالى فى كل زمان:

ولما كان الحج عرضة سنوية للملّة، يلتقى فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية، فى جوٍّ دينى ربّانى، وفى محيط روحى إيمانى، يستمدون منه قوة جديدة وروحاً جديدة، ويُصحّحون ما وقع فى عقيدتهم من انحراف، وفى عاداتهم وشعاراتهم من فساد، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات العجميّة الأجنبيّة، وتقليد الشعوب والأمم التى تجاورهم، أو يعيشون فيها، ويستطيعون أن يردّوا كل شيء إلى أصله، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة، وجب بحكم العقل والمنطق، وبحكم روح الإسلام وحكمة الحج، أن يظلّ البلد الأمين الذى يقع فيه الحج، ويدور حوله، أميناً للحياة الإسلامية، الصافية الأصيلة (يصور الحياة الإسلامية) بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها، حتى يلمسها ويتذوّقها كل وارد إليه مهما قصرت إقامته وقلّت معرفته، لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج إلى

(١) إن الحج لا شك موسم، يشهده المسلمون من آفاق الأرض ونواحى العالم الإسلامى، ليشهدوا منافع لهم، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأى السديد والفكر الحصيف، ويتعرف بعضهم ببعض، ويجتمعوا على كلمة واحدة ومصلحة راجحة راشدة.

ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة، كما اعتاد الكتاب العصريون أن ينوّهوا بها، وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب، كما يصوّره كثير من حملة الأقلام، ورجال السياسة والاجتماع فى هذا العصر، فلو كانت هذه هى الحكمة التى شرع لها الحج، لكان فى الحج استقرار وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ومن نسك إلى نسك، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء، والأذكياء والنبهاء، وعلى الخاصة من المسلمين. إنها لا شك ثمرة من ثمرات الحج، ولكن ليست هى الغاية التى شرعت لها هذه الفريضة العظيمة، وقد فرضت على المسلمين، فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِى عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال رسول الله ﷺ: ((من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً))، ضعيف. أخرجه الترمذى (١٧٦/٣) (٨١٢) عن على رضي الله عنه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٨٦٠). ولكان له وضع غير هذا الموضع، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي.

آخر الزمان، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم فى كل سنة، يَفدون إليه، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدِن الطهر، ومولد الدين، وعاصمة الإسلام الروحيّة، وكل ما يشهد ويسمع فى جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذى يعيش بعيداً عن مهد الإسلام، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين ((وما وراء عبّادان قرية)).

وهذه الطبيعة البشرية التى لا نستطيع أن نتغلّب عليها بمنطق أو دليل، أو خطابة أو بلاغة، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أو حضارة، وهو العرف الذى جرى فى مجال اللغة والآداب، والحضارة والفقه، فكانت لغة قريش، ثم لغة البادية العربية، هى الحجة فى اللغة العربية، ومناهج كلامها ولهجاتها، وكان عمل أهل المدينة حجة فى مذهب كبيرٍ من المذاهب الفقهية الإسلامية[1]، وظلّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت فى أوجها العلمى الثقافى، وكانت مجمع العلماء والقضاة، واحتجّ الناس قديماً وحديثاً بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضارى، وتنافس الناس فى تقليدها، ورأوا فيها المثل الكامل، والقدوة فى الحضارة والأناقة والظرف، ودعاة الإسلام وزعماءُ الإصلاح يلقون صعوبة ومحنة، إذا احتجّ الحجّاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه فى مركز الإسلام ومهبط الوحى مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، أو آدابها ويصعب إزالتهم عن ذلك[2].

يجب أن يبقى البلد الأمين محتفظاً بطراز خاص والحج بروح الجهاد والتقشف:

وجانب أدق من هذا، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين- على مرّ العصور والأجيال، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة فى العالم- محافظاً على شىء من البساطة والطبيعة، وعلى شىء من التقشف، ويتذكّر فيه الوافدون من أنحاء العالم، الجوّ الذى كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم، ويشعرون بشعورهم، أو قريب من شعورهم،

(١) كالمذهب المالكي.

(٢) مقتبس من حديث ألقاه المؤلف فى المؤتمر الإسلامى الذى عقدته رابطة العالم الإسلامى فى مكة، سنة ١٣٨٤هـ.

ويشعرون بانتقال من عالم إلى عالم، ومن جوّ إلى جوّ، ومن حياة إلى حياة، فإنّ هذا الشعور يُحدث فى النفوس تخليًا عن الماضى، واستعداداً لتلقّى شىء جديد، وفرحة روحية لا يشعرون بها فى مكانهم، أما إذا بقى البيت وحده، والحرم وحده على قدَمهما، وتغيّر كل شىء حولهما، وأصبح البلد الأمين وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبا أو أمريكا، وحلّت المدنيّة الغربيّة بخيراتها وشرورها، وبأصولها وفضولها، وأصبح الحاج الذى وصفه لسان الشرع بـ(الشعث التفل) يتقلّب فى أعطاف المدنية والنعومة، وينتقل من راحة إلى راحة، ومن تنعُّم إلى تنعُّم، ومن حديث إلى أحدث، فإنه لا يشعر بشىء جديد قوى يُحدث فى مشاعره انقلاباً، ويشحنه شحناً روحيًّا.

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد، وقد روى البخارى عن عائشة مرفوعاً: «أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور»(١) ، وعنها قالت: «قلت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور»(٢). وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول: «شدّوا الرحال فى الحج، فإنّه أحد الجهادين»(٣).

وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها، وتوفّرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التى لا توجد إلاّ فى العواصم الغربية الكبرى، شعر الحجاج بشىء من الفراغ الروحى، وبشئ من الجفاف، وبانحطاط ملموس فى فوائد الحج، وآثاره فى النفس والحياة.

التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج وتقوية أثره فى النفس والحياة:

وقد هيّأ الوحى الإلهى والتشريع السماوى للحج جواً، يثير الجدّ والقصد، وينبّه النفس والفكر، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسيّة، فإنّه كان فى أكثر الأحيان رحلة طويلة، وانتقالاً من بلد إلى بلد يمرّ فيه الحاج ببقاع مختلفة، وأجواء متنوعة، ومَلاّذ ومَلاّه، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول، ويدخل فى

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٠٢٦/٣) (٢٦٣٢) بدون لفظ «وأجمله»، وكما فى الحديث أنه أفضل الجهاد للنساء «حيث إن عائشة – رضى الله عنها – سألته عن جهادهن».

(٢) صحيح: وهو مكرر الحديث السابق.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى معلقاً بصيغة الجزم (٥٥٢/٢) باب «الحج على الرحل».

بلد جديد، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة، ويخرج النساء مع الرّجال، وفيهم الشيوخ والشباب، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته، وكل ذلك خليق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته وقدسه، وروح العبادة والجهاد فيه، وتصبح هذه الرحلة كأى رحلة عادية طبعيّة، أو الإقامة فى مكة، والتنقّل فى مواضع المناسك كأى إقامة فى أى بلد.

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً لا يزول، لوناً من الجديّة والقدس، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول، والعبث والفضول، وله فى ذلك تشريعات دقيقة حكيمة، كانت كفيلة بأن يبقى الحجّ عبادة عميقة الأثر، فى النفس والحياة، وركناً من أركان الإصلاح والتربية، ووسيلة قوية للتقرّب إلى الله.

منها: أنه جعل ركناً من أركان الإسلام الأربعة، وفريضة على من استوفى شروطها، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً، فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِى عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد روى الترمذى عن على رضى الله تعالى عنه رفعه: «من ملك راحلة وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام و لم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا، وذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران: ٩٧] [(١)]» . وقال النبى ﷺ: «بُنِى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، من استطاع إليه سبيلاً» [(٢)].

وقد نوّه لسان النبوّة بفضل الحج ومكانته عند الله، وأكثر من بيان فضائله، لأنّها هى التى تُثير فى النفس الشوق والرغبة، وتبعث الإيمان والاحتساب، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ويكونان هما الباعثين على إتيانها، فقد روى السّتة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً: «الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة» [(٣)] ، وعن أبى هريرة

(١) ضعيف: تقدم تخريجه قريباً.

(٢) صحيح: متفق عليه وقد تقدم تخريجه.

(٣) حسن: أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨١/١١) (١١٤٢٩) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ، والنسائى (١١٢/٥) (٢٦٢٢) من حديث أبى هريرة ﷺ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٧٠).

رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حجّ لله فلم يرفث و لم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه))(١). وروى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((تابعوا بين الحج والعمرة، فإنّهما ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلاّ الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلاّ غابت الشمس بذنوبه))(٢). وعن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: ((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النّار من يوم عرفة))(٣). وسُئل النبى ﷺ: ((أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور))(٤).

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة، (المواقيت) التى تُنبّه فى الحاج شعوراً جديداً، ويقظة فكرية روحية، فيعرف أنّه دَنا من الحضرة الملوكية، ودخل فى حدودها المحمية المقدسة، فلولا المواقيت لاقتحم الحجّاج الحضرة المقدسة، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين، فيقابلون باستنكار وجفاء، وطرد وإهانة، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى بيان حكمة المواقيت، وسرّ تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة، قال:

((الأصل فى المواقيت، أنه لما كان الإتيان إلى مكة شعثاً تفلاً، تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً، وكان فى تكليف الإنسان، أن يحرم من بلده حرج ظاهر، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر، وجب أن يُخَصّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها، ولا يؤخرون الإحرام بعدها، ولا بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة؛ ولا تخفى على أحد، وعليها مرور أهل الآفاق، فاستقرأ ذلك، وحكم بهذه

---

(١) صحيح للستة، إلا أبا داود أخرجه البخارى (٢/٥٥٣) (١٤٤٩)، ومسلم (٢/٩٨٣) (١٣٥٠)، والترمذى (٣/١٧٦) (٨١١)، والنسائى (٥/١١٤) (٢٦٢٧)، وابن ماجه (٢/٩٦٤) (٢٨٨٩).

(٢) صحيح للنسائى (٥/١٥٥)، (٢٦٣١) والترمذى (٣/١٧٥) (٨١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠١).

(٣) صحيح رواه مسلم (٢/٩٨٢)، (١٣٤٨).

(٤) صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (١/١٨) (٢٦)، ومسلم (١/٨٨) (٨٣) من حديث أبى هريرة ﷺ.

المواضع، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت، لأنها مهبط الوحى ومأرِز الإيمان ودار الهجرة، وأول قرية آمنت بالله ورسوله، فأهلها أحق بأن يبالغوا فى إعلاء كلمة الله، وأن يخصوا بزيادة طاعة الله، وأيضاً فهى أقرب الأقطار التى آمنت فى زمان رسول الله ﷺ، وأخلصت إيمانها بخلاف جؤاثى والطائف واليمامة وغيرها، فلا حرج عليها»[١].

ومنها (الإحرام) الذى ينبه فى الحاج الشعور والانتباه، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول، وينبهه إلى أنه مقبل على أمر عظيم، وأنه قاصد للحضرة الملوكية، وإلى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة، وأبّهة مصطنعة، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة تنقله من جو إلى جو، ومن حرية وانطلاق إلى تقيد وارتباط، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى رحمة الله عليه:

«اعلم أن الإحرام فى الحج والعمرة بمنزلة التكبير فى الصلاة، فيه تصوير الإخلاص والتعظيم وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله»[٢].

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة تُنبّه فى النفس الشعور، ولا يصعب إتيانها، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة أو مفاجأة، ويتمتع بالمباحات، إلا بعمل ظاهر، وقصد وإرادة، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم، وهو الحلق، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى:

«السر فى الحلق أنه تعيين طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافى الوقار، فلو تركهم وأنفسهم، لذهب كل مذهباً، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتم، ومثله كمثل السلام من الصلاة»[٣].

ومنها (التلبية) التى حث الشرع على الإكثار منها، واستحسن النبى ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها، وقد سئل أى الحج أفضل؟ قال: «العجُّ والثجُّ»[٤]، وفى التلبية تأثير غريب

(١) حجة الله البالغة: (٢/٤٤).
(٢) حجة الله البالغة: (٢/٤٤).
(٣) حجة الله البالغة: (٢/٤٥).
(٤) حسن: رواه ابن ماجه فى سننه (٢/٩٧٥) (٢٩٢٤) عن ابن عمر ﷺ وحسنه الألبانى فى صحيح

فى تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج، وشحنها بالإيمان والحنان، والاطراح على عتبة الرحمن، وبها يسرى التيار الإيمانى الروحى فى جسم الحاج ومشاعره وأعصابه، كما يسرى التيار الكهربائي فى الأسلاك، ويُعدّ الحاج للاستفادة من هذا الركن العظيم، الذى قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد، أو من غير تفقه ووعى، فإذا قال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه، وثارت فيه الأشواق، وفاضت كأس الحب والحنان، والتهبت شعلة التوحيد فى عروقه ودمه، واتصل بإبراهيم الخليل، الموحد الحنيف، واتصل بمحمد ﷺ والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً، واندمج فى حزبهم.

وقد جمع الله للحج حرمتين، حرمة الزمان والمكان، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم، وجلاله وروعته، والشعور بالمسئولية، وليكون الحاج فى جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحس حاضر الفكر، لا يذهل لحظة عن الجو الروحانى الذى يحيط به.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد روى مسلم عن النبى ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان».

وأما حرمة المكان، فقد جاء فى القرآن: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١]. وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة): «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[1] ، وقال يوم الفتح- فتح مكة-: «إن هذا البلد

= الجامع (١١٠١).

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣/١٠٢٥) (٢٦٣١).

حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ فيه القتال لأحد قبلى، و لم يحلّ لى إلاّ ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفّر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرّفها، ولا يختلى خلاها، وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الإذخر»(١).

وقد كانت المعصية فى الحرم أغلظ وأشد، وقد استدل بعض العلماء على أن إرادة المعصية فيه معصية، بخلاف غيره من البقاع، بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥]. قال ابن كثير: وهذا من خصوصية الحرم، أنه يعاقب البادى فيه الشر إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه.

وقد ضم إلى ذلك كله حرمة الإحرام، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة، منها: حرمة الصيد فى حالة الإحرام، فقد قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٦](٢).

يقول شيخ الإسلام الدهلوى رحمة الله عليه:

«وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه، ومؤاخذة نفسه أن لا تسترسل فى هواها، وإنما الصيد تَلَهٍّ وتوسع»(٣).

ولما كان الحج سفراً طويلاً فى غالب الأحيان، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [الحج: ٢٧]، وانتقال من حال إلى حال، ويكثر فيه الاختلاط، وتطول الزمالة، وتتنوع المعاملات، كان ذلك مثاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات، وكثيراً ما تثور النفس

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٥٣/١) (١١٢)، ومسلم (٩٨٦/٢) (١٣٥٣) من حديث أبى هريرة- رضي الله عنه.

(٢) اقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منهما، وما فى ذلك من خلاف، وتفصيل فى كتب التفسير وأحكام القرآن.

(٣) حجة الله البالغة: (٤٤/٢).

ويضيق الصدر، وينفد الصبر، فيلجأ الحاج إلى ما يتحاشى عنه فى الوطن والإقامة، والأحوال العادية، ويتورط فى بعض المعاصى والأخلاق القبيحة، وما ينافى روح الحج ومقاصده، فجاء النهى عن ذلك بصفة خاصة فى الحج، لأن الحج مظنة قوية له، فقال تعالى: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**(١) **فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ**(٢) **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد أسبغت هذه التشريعات، وهذه الأحكام التى تتصل بالقلب والجوارح، والقصد والعمل، والزمان والمكان، على الحج لباساً من القدس، والطهر، والتورع والتقشف، والمراقبة لله تعالى، والحسبة للنفس والجهاد، لا يشاركه فيه ما يماثله، أو يدخل فى موضوعه فى الديانات الأخرى وطوائف الأمم، وكانت لها آثار عميقة فى النفس والأخلاق والحياة، يتحقق معها قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»(٣).

حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية:

حج رسول الله ﷺ سنة عشرة من الهجرة، وكانت حجة الإسلام، وشهد معه هذا الحجّ أكثر من مئة ألف إنسان، وهى حجة الوداع(٤).

وقد دلت كل القرائن على أن هذه الحجّة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل، ولم تكن فلتة من الفلتات، بل جاءت فى وقتها المناسب، ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد: ٨]. وكان فى تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة، ومصلحة راجحة، فقد انتشر الإسلام فى جزيرة العرب، وكثر المسلمون، وقوى الإيمان، وشبّ الحبّ، واستعدت

---

(١) هى شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة، علقه البخارى بصيغة الجزم، ورواه ابن جرير موصولاً، وهو مروى عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين، وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة، وأحمد ابن حنبل، (راجع تفسير ابن كثير).

(٢) اقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها فى كتب التفسير والأحكام.

(٣) صحيح: رواه الستة عن أبى هريرة، إلا أبا داود وقد تقدم تخريجه قريباً.

(٤) وتسمى (حجة الإسلام) و(حجة البلاغ) و(حجة التمام). (البداية والنهاية والخميس).

النفوس للتعلم والاستفادة، وهفت القلوب، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة، ودنت ساعة الفراق، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة ليحجّ البيت، ويلقى المسلمين، ويعلمهم دينهم ومناسكهم، ويؤدى الشهادة، ويبلغ الأمانة، ويوصى الوصايا الأخيرة، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق، ويمحو آثار الجاهلية ويطمسها، ويضعها تحت قدميه.

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة، وألف درس، وكانت مدرسة متنقلة، ومسجداً سيّاراً، وثُكنة جوّالة، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيها الضعيف، وكانت سحابة واحدة تغشاهم فى الحل والترحال هى سحابة صحبة النبى ﷺ وحبه وعطفه، وتربيته وإشرافه.

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلى، وقوة حبهم، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكل حادث من حوادثها الصغيرة، لا يحتفل بأمثالها فى رحلات العظماء والرؤساء، والملوك والأمراء، والعلماء والنبغاء، وذلك شأن المحب الوامق، والعاشق الصادق، الذى يرى كل شئ لمحبوبه حسناً، فليتلذذ بذكره، ويسترسل فى حديثه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها، ولا دقيقة نادرة إلا يستقصيها.

يتطيب رسول الله ﷺ عند إحرامه فيذكرون من باشر هذا التطييب، ويذكرون نوع هذا الطيب، فيقولون: «ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[1] وطيب فيه مسك، حتى يرى وبيض المسك فى مفارقه ولحيته ﷺ»[2]، ويشعر رسول الله ﷺ هديه، فيذكرون تفصيله وتحديده، هل كان فى الجانب الأيمن أو الأيسر، وكيف سالت عنها الدم، ويذكرون احتجامه، والاحتجام فعل طبى طبعى لا صلة له بمناسك الحج، فيحددون مكانه من الجسم، وموضعه من الطريق فيقولون: «واحتجم بملل» (وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة).

(١) وقد أفاض الشراح فى وصف الذريرة وأنواعها.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٥/٢٢١٦) (٥٥٨٦)، ومسلم (٢/٨٤٧) (١١٨٩) من حديث عائشة – رضى الله عنها – فذكرت نحوه.

ويقولون: واحتجم على رأسه بلحى جمل (وهو موضع فى طريق مكة)، وتهدى له قطعة لحم، وهى حادثة عادية تتكرر ولا تسترعى الاهتمام فى عامة الأحوال، فيذكروها بالتحديد والتفصيل، فيقول الراوى: «حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي». ويحددون المنازل بين المدينة ومكة، ويعدون أيامه فى السفر، وذلك فى زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات، وتدوين المذكرات، ولكن الحبّ يلهم ويخترع، فيقول الراوى: «ثم نهض إلى أن نزل بذى طوى، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة». ولم تفتهم شاردة ولا نادرة فى هذه الرحلة التى كثرت فيها الشواغل، وتعددت فيها المنازل، واشتد فيها الزحام، فلم يفتهم أن يقيدوا خروج حية فى هذا المشهد الحافل، وإفلاتها من القتل، فيقول الراوى وهو يذكر ليلة منى: «وخرجت حية وأرادوا قتلها، فدخلت فى جحرها» ويذكرون كل من كان رديف[1] رسول الله ﷺ فى هذه الرحلة، ويذكرون اسم الحلاق وكيف قسم شعره، ومن خصهم بالشق الأيمن، ومن خصهم بالشق الأيسر، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحب العميق.

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها فى رحلات القادة، وتاريخ المشاهير، وقد أخلّت أمم كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم، ومراحل حياتهم، وضيعوا منها الشيء الكثير، الذى لا تكمل حياتهم ولا يتم تاريخهم إلا به، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم، فجل ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، هو أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرته وأخباره[2]. وهنالك أصحاب رسالات وديانات فى بلاد متمدنة عريقة فى العالم لم تبق إلا أسماؤهم ونتف من أخبارهم لا تشفى العليل، ولا تروى الغليل، ولا تقود الأجيال ولا تنير السبيل»[3].

---

(١) وقد استوعب صاحب (نسيم الرياض) أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ فى حياته، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً، وزاد ابن منده على هذا العدد.

(٢) وقد توصل الباحثون والمؤرخون أخيراً إلى أن هذه المدة كانت أقل مما ذكر بكثير، فهى لا تزيد على شهرين أو ثلاثة أشهر، اقرأ المقالة الواردة فى (دائرة المعارف البريطانية).

(٣) مقتبس من تقديم لكتاب (حجة الوداع وعمرات النبى ﷺ)، للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى،

الحج والزيارة فى الديانات القديمة سماتهما وفوارقهما:

لم تُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم، إلا وعندها أمكنة مقدسة تشدُّ إليها الرحال، وتحثُّ فيها المطى، ولها طرق وعادات وتقاليد، وآداب لهذا السفر الدينى، (والزيارة المقدسة)، وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة، وتلبية لنداء الضمير، فالإنسان كما قلنا لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه، ويوجه إليه أشواقه، ويقضى به حنينه، ويشبع به رغبته الملحة فى التعظيم والدنو، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاقٍّ يكفِّر به عن ذنوبه الجسام، وسقطاته الفاضحة، ليتغلب به على وخز الضمير وتأنيب الحس الدينى ولائمة المجتمع، ولم يزل فى حاجة إلى مشهد دينى عظيم، يلتقى فيه على الأخوة الدينية والعاطفة الروحية، لذلك لم تخل أمة من الأمم، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية، ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس، ويذبحون الذبائح، ويقرِّبون القرابين لله تعالى، أو لآلهتهم ومعبوداتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** ﴾ [الحج: ٣٤]، وقال: ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج: ٦٧]. وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه المناسك والمشاهد فى المدنيات البائدة، والمدن المطمورة، وتحدّث التاريخ عن وجودها، وعن بعض أخبارها، ولكن الاهتداء إلى حقيقتها وتاريخها، والأحكام والآداب التى تتعلق بها صعب جداً، فقد لا يرجع الباحث فى ذلك، إلا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة، لا يستطيع أن يُكوِّن بها فكرة كاملة، أو صورة واضحة.

والديانة اليهودية، ثم المسيحية من أقرب الديانات إلينا، وقد عاشتا زمناً طويلاً فى عصر التاريخ والعلم، وعُنى بهما المؤرخون والمؤلفون، ولا تزالان ديانتى أمتين كبيرتين نشيطتين فى الثقافة والتأليف والسياسة، والبيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين، ومركزهما الروحى الأصيل، والحج إليه قديم وأصيل عندهما،

= بقلم أبى الحسن على الندوي.

ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير يكتنفه الشئ الكثير من الغموض والاضطراب، وقلة المعلومات، (إذا قارنا ذلك بالحج الإسلامى، الذى تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة هائلة، وهو مدوَّن تدويناً لا يجد فيه الباحث عناء).

وهنا خلاصة ما جاء فى (دائرة المعارف اليهودية) المجلد العاشر[١]:

((إن الحج إلى بيت المقدس الذى كان يدعى بالزيارة (REYIAH) يُؤدى فى زمن ثلاثة أعياد: وهى عيد الحصاد[٢] وعيد الفصح (اليهودي)، وعيد المظال، وكان الحج فريضة على جميع اليهود، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، والإناث، والعميان، والعرج، والضعفاء والمصابين بأمراض بدنية أو عقلية، وكانت الشريعة الموسويَّة توجب على كل (حاج أو زائر) أن يأخذ معه (تقدمةً للرب)، ولكنها لم تعين المقدار وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الأزواج والآباء كما هو الشأن فى الأسواق العامة، ولا تخلو الروايات التى وردت عن عدد الزائرين فى أزمنة مختلفة من المبالغة[٣]، وكانت الخرفان تذبح فى عدد كبير، وكانت جلود الذبائح تقدّم إلى حراس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وإيوائهم من غير مقابل.

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير (المعبد) أيضاً، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام (١١٨٧م)، تسنَّى لليهود القاطنين فى المنطقة الشرقية أن يزوروا بيت المقدس، وما عداه من الأمكنة المقدسة (بين دمشق، وبابل، ومصر) وقد اعتاد اليهود فى الشرق ولا سيما فى بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادى، أن يؤدوا فريضة الحج مرة فى السنة، على أقل تقدير، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود فى أوروبا على الحج والزيارة، وفى

---

(١) جيويش إنسانكلوبيديا (Jewish Encyclopedia-Vol-See Pilgrimage).

(٢) جاء فى (دائرة المعارف اليهودية) تحت عنوان: (عيد الحصاد)، وهو من أعياد الحج الثلاثة التى كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور فى بيت المقدس، اقرأ عنوان: (Pentecost).

(٣) منها، ما قيل إنه بلغ عدد الخرفان المذبوحة فى عام بين ٦٣-٦٦م إلى ٥٠٠ ٢٥٦، فإذا فرض أن خروفاً كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم إلى أكثر من مليونين ونصف حاج أو زائر، ويذكر مصدر يهودى أنه بلغ عدد الخراف إلى ١٢٠٠٠٠٠ خروف، وقد اعترف كاتب المقال فى ((دائرة المعارف)) بأنه لا يخلو من المبالغة.

عام (١٤٩٢م) عندما أجلى اليهود من إسبانيا، وهاجر عدد كبير منهم إلى مناطق المسلمين، تضاعف عدد اليهود الزوار، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبى (صموئيل) فى قرية الرامة[1]،حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوى، وتقام التقاليد الدينية.

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين فى بلدان أخرى، الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة، وزهدوا فيهما، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة.

وللحج أيام معينة يسميها اليهود فى الشرق وشمالى أفريقيا أيام الزيارة، وقد شاع فيهم أن يزوروا فيها قبور عظمائهم، ومنهم من اشتهر كملك، أو كنبى، أو كصالح وولى، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية وإظهار الفرح والسرور، شأنهم فى الأعياد العامة، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز إلى اليوم التاسع من (آب) ثلاثة وعشرين يوماً متوالية، مقابل الجدار الغربى لهيكل (سليمان)، وتبتدئ هذه العبادة فى اليوم التاسع من آب من نصف الليل.

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية، يُشد إليها الرحال فى كل قطر وبلد»[2].

أما الحج والزيارة عند المسيحيين، فهنا خلاصة لما جاء فى (دائرة المعارف الأديان والأخلاق):

«الحج اسم للرحلة التى يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام فى فلسطين، أو مراكز زعماء الدين المقدسة فى «روما»، أو الأمكنة المقدسة التى تنسب إلى المقبولين من الزهّاد والشهداء».

إن الجيل المسيحى الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها، بالنسبة إلى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحى، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره، وزيارتها، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه.

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض

(١) قرية فى فلسطين (الجليل).

(٢) راجع دائرة المعارف اليهودية، عنوان «Pilgrimage».

المقدسة، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً، وكانت (روما) المدينة التى تلى بيت المقدس فى الأهمية، يؤمها الناس للزيارة فى عدد كبير وجمٌ غفير.

إن الأسباب التى بلغت بها البابوية قمتها، جعلت روما مركزاً للزيارة، ولا سيما، فإن ضريحى القديس (بطرس)، والقديس (بولس) قد أضفتا عليها من العظمة والجلال ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك فى العالم كله، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً، وقد كان إقبال الزوار عظيماً على سراديب الأموات(Cata combs)[1] التى تقدَّس لأجل عظام الشهداء، إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة (روما) فى أى فترة من فترات التاريخ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس فى كل زمان.

والقارئ يتخم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد، العامة فى أرض فلسطين، والمحلية المنتشرة فى كل قطر أو ولاية أو بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد. وصاحب مقال (الحج والزيارة) فى (دائرة المعارف اليهودية) وفى (دائرة الديانات والأخلاق) يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين فى أقطار أوروبية وآسيوية مختلفة، ويذكر الأيام والشهور التى تزار فيها، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد، وإذا تأمل القارئ فى مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد، وتقديسهم لها، وتجشم الأسفار والمتاعب فى سبيلها، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم فى كل زمان ومكان، وكيف أثارت فيهم الغلو فى التقديس والتعظيم، حتى وصلوا إلى حد الشرك، وعبادة غير الله، عرف سر شدة إنكار النبى صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة، وإشفاقه من أن يتسرب ذلك إلى المسلمين–حملة لواء التوحيد إلى الأبد، والأمة الأخيرة– وحرصه الشديد على أن يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلوّ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له فى مرضه الأخير، فقد روى البخارى عن عائشة وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قالا: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذّر ما صنعوا»[2].

---

(١) تقع أشهر هذه السراديب فى الفاتيكان.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (١٦٨/١) (٤٢٥)، ومسلم (٣٧٧/١) (٥٣١).

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1] ، وعن عائشة رضى الله عنها: «أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[2] ، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3].

وقد ضيّق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم السبيل فى وجه تجشّم السفر الطويل، وشدّ الرَّحل إلى المشاهد والضرائح، والأمكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور: «لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى»[4]. فوقى بذلك أمَّته من الوقوع فى فتنة المشاهد والآثار، كما وقع فيها اليهود والنصارى، والأمم الجاهلية، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة.

ولكن طوائف من المسلمين فى القديم والحديث لم تعمل بوصيّته التى لم ينسها فى آخر عهده بالدنيا، ولم تُلقِ لها بالاً، وافتتنت بالمشاهد والآثار، وشدِّ الرحل إليها من بلدان نائية، والعكوف عليها تبرّكاً وتعبّداً، افتتاناً عظيماً، فكان ذلك تصديقاً لقوله، وتحقيقاً لإخباره: «لَتَتَّبِعُنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع»[5] ، واغتصبت هذه المشاهد والضرائح، -ومنها ما هو مكذوب ومزوّر- حَظ المساجد، وحظ المسجد

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١/١٦٨) (٤٢٦)، ومسلم (١/٣٧٦) (٥٣٠).

(٢) صحيح: الجامع الصحيح للبخارى، كتاب الصلاة، باب الصلاة فى البيعة (١/١٧٦) (٤٢٤).

(٣) صحيح: رواه مالك فى الموطأ (١/١٧٢) (٤١٤) مرسلاً.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٢/٦٥٩) (١٧٦٥) ومسلم (٢/٩٧٥) (٨٢٧) عن أبي سعيد الخدرى ﷺ، وأخرجه البخارى (١/٣٩٨) (١١٣٢)، ومسلم (٢/١٠١٤) (١٣٩٧)، وعن أبي هريرة ﷺ، مرفوعاً.

(٥) صحيح: عن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قيل: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (متفق عليه). أخرجه البخارى (٣/١٢٧٤) (٣٢٦٩) ومسلم (٤/٢٠٥٤) (٢٦٦٩).

الحرام فى بعض الأحيان، وقد جعلها الجهّال فى كثير من الأقطار (كعبة) يشدّون إليها الرّحال، ويقصدونها من نواح بعيدة، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه فى كل سنةٍ ويجتمعون فى عدد كبير، ويقيمون الأسواق.

وقد أجاد شيخ الإسلام تقى الدين بن تيميّة فى وصف هذه الطوائف بجملته التاريخية البليغة: ((مشاهدهم معمورة، ومساجدهم مهجورة))[١]. والسائح فى الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح، ومساحاتها الواسعة، وأبنيتها الضخمة، وقبابها الرفيعة فى كل بلد يمرّ به، ويرى هنالك من أعمال شركيّة كالسجود، والنّذور والذبائح، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح، ما يندى له جبين الإسلام.

أما الديانات الهنديّة- بما فيها من البوذيَّة والجينيَّة والبرهميّة- فقد كثُرت فيها المشاهد والمعابد، والأمكنة (المقدَّسة) المقصودة من النواحى والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال، وهى الأمكنة التى يرون لها شرفاً عظيماً، وقُدساً خاصاً، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة، وأُكرم فيها بعض عظمائهم بالقُرب أو الكلام، أو الوصول والمعرفة، أو تجلّت فيها بعض آلهتهم -كما يزعمون- تجلّياً خاصاً، وكثرت فيها الأعياد الدينيّة، والمواسم والأسواق، التى انصبغت بصبغة الدين.

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدَّسة على ساحل نهر (الكنج) **(GANGES)** المقدَّس، يجتمع فيها أهل البلاد فى عدد هائل، للاغتسال فى النهر المقدَّس، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً، أو عدة مرات فى السنة، ومنها ما يجتمعون فيها بعد سنين، كغسل (KUMBH) الذى يجتمعون له بعد اثنى عشر عاماً، عند ملتقى نهرى (الكنج وجمنا) فى برياك (PARAYAG)[٢]. ومن أشهرها مدينة (بنارس) فى الولاية الشمالية، على نهر (الكنج) ويُعدُّون الاغتسال فيه كفّارةً للذّنوب، ومن أعظم الحسنات والقربات، ويؤثرون الموت فى هذه المدينة، وتُنقل إليها جُثث الموتى من النواحى البعيدة، لتُحرق هناك، أو تُترك فى النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهنديّة، ومنها بلدة (أجودهيا) التى كانت مركزاً لـــ (راما) (RAM CHANDER) و(متهرا) التى لها

---

(١) راجع ما قاله شيخ الإسلام فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من منهاج السنة، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) من ضواحى ((إله أباد)) المدينة المشهورة.

اتصال بتاريخ (كرشنا) (KRISHNA)، ومنها (هردوار)[1] وكلّها فى الولاية الشمالية الغربية، وهنالك مشاهد وشواطئ، ومعابد هامّة تُعدّ بالعشرات فى شبه القارة الهندية، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق، وباختلاف الطوائف التى تدين بها.

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة (كيا) (GAYA) فى ولاية (بهار) التى قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤَلَّهُ كوتم بده(GOTAM BUDDHA) مدةً طويلةً، وتشرّف بالشهود أو المعرفة، التى يسمونها نيروان (NIRT VAN).

والأعياد والأسواق التى تُقام فى هذه الأمكنة المقدّسة، وعلى الشواطئ، مسرح الفوضى والجنايات، ويتجلّى فيها عدم النّظام، وعدم النّظافة لكثرة الزوّار والقاصدين الذين قد يبلغ عددهم- خصوصاً فى الأعياد والأسواق التى تُقام بعد مجموعة من السنين- إلى ملايين من النفوس، رغم حرص الحكومة على إقامة النظام وقوانين الصّحة، والوقاية من الأمراض، وتقترن بتقاليد جاهلية، وأعمال شركيّة، وأساطير الآلهة والإلهات القديمة.

ومن إعجاز القرآن، أنه لما ذكر حج البيت الذى بناه إبراهيم وحث عليه، نعى على الشرك والوثنية والزور الذى تلوّثت به المناسك، وأعمال الحج والزيارة فى الديانات والأمم الأخرى، فقال: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة، والرحلة الدينية فى ديانات العالم الرئيسية، التى لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدّون بالملايين، وملايين الملايين، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى رحمة الله عليه، عميق النظر، واسع الاطلاع، غير مجانب للصواب والإنصاف، إذ قال فى كتابه (حجة الله البالغة) وهو يتكلم فى موضوع الحج:

«وأصل الحج موجود فى كل أمّة، لا بدَّ لهم من موضع يتبرّكون به، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها، لأنها تذكر المقرَّبين وما كانوا فيه.

---

(١) معناه باب المعبود، أو باب الإله.

وأحقّ ما يحج إليه بيت الله، فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه، المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم، بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً، إذ ليس غيره محجوج، إلاّ وفيه إشراك أو اختراعُ ما لا أصل له»(١).

ويستطيع القارئ فى سهولة أن يُقارن بينها وبين الحج الإسلامى، ويَعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع، ويقرأ قوله تعالى، ويحدِّث بنعمة ربِّه: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

دور الإسلام الإصلاحى فى تشريع الحج:

وقام الإسلام -شأنه فى الأركان الثلاثة الأخري- بدوره الإصلاحى التجديدى فى الحج، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا فى الحج عادات جاهليَّة، وأموراً ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان، واصطلحوا على أشياء، وتواضعوا عليها من الزمن القديم، فكان تحريفاً فى الحج الذى شرعه الله على لسان إبراهيم، وتوارثته قبائل العرب جيلاً بعد جيل جنى على كثير من مقاصده وفوائده، وكانت الحميّة الجاهليّة، والنخوة القبليّة، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء، وحرصهم على التميُّز، هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات، فجاء القرآن والتشريع الإسلامى بإزالة هذه البدع والتحريفات، وإبطالها، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة، فاجتثّه واستأصل شأفته، وأبدله بخير منه.

فمن ذلك أن قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج، بل يقفون فى الحرم، ويقولون: نحن أهل الله فى بلدته وقُطّان بيته، ويقولون نحن الحمُس(٢)، وما ذلك إلاّ ليتميّزوا عن سائر الناس، ويحافظون على مركزهم الجاهلى، وعلى ما كانوا يتخيّلونه من سموّ وامتياز، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلى، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس،

---

(١) حجة الله البالغة: (٥٩/١).

(٢) قال العلامة محمد طاهر الفتنى فى (مجمع بحار الأنوار) حمس هو جمع أحمس: وهم قريش ومن ولدته وكنانة وجديلة قيس، لأنهم تحمسوا فى دينهم، أى تشددوا.

ويقفوا بعرفات، وقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، روى البخارى بإسناده عن عائشة رضى الله عنها: «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الحُمُس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلمّا جاء الإسلام، أمر الله نبيّه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]. قال ابن كثير: وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسّدى، وغيرهم رضوان الله عليهم واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع.

ومنها أن أهل الجاهلية، كانوا قد اتخذوا الموسم سوقاً للتفاخر والمساجلة كما كان شأنهم فى (عكاظ) و(مجنة) و(ذى المجاز)، وكانوا ينتهزون كل فرصة للاجتماع وتلاقى القبائل للتطاول بالأنساب ومآثر الآباء، وعدَّ المفاخر. وكان الاجتماع فى (منى) خير مكان لإرضاء العاطفة الجاهلية، فنهى الله عن ذلك، وأبدلهم بما هو خير منه، وهو ذكر الله، فقال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. قال ابن عباس رضى الله عنه: كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم، فيقول رجل منهم: كان أبى يُطعم ويحمل الحمالات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ومنها أنّ الحج قد فقد على مرِّ الأيام شيئاً كثيراً من قُدسه وطهره ونزاهته، وأصبح عيداً من أعياد الجاهلية، ومكاناً للّهو والخصام، فذمَّ الله ذلك فى القرآن، وقال: ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. قال ابن كثير: قال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فالجدال فى الحج - والله أعلم - أنَّ قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، هذا فيما نرى، والله أعلم. وعن محمد بن كعب قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى، قال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجكم، وقال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجكم.

ومنها أنّ العرب كانوا فى الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، وضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ

دمَاؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]. قال ابن كثير: قال ابن أبى حاتم: حدَّثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج، قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحقّ أن ننضح، فأنزل الله تعالى: **﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾** [الحج: ٣٧].

ومنها أنّ العرب كانوا إذا نووا الحج تحرَّجوا من دخول البيوت من الأبواب، وكانوا يرون ذلك إثماً وتفريطاً فى جنب الله وفى جانب الحج، وكانوا يتسوَّرون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين، فأبطل الله ذلك، ونفى أن يكون من أنواع البرِّ، وقال: **﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾** [البقرة: ١٨٩]. قال البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: **﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾** ، وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبى إسحاق عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم، لم يدخل الرجل من قِبَل بابه، فنزلت الآية.

ومنها أنّ أناساً من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحجِّ مع زاد يبلِّغهم إلى البيت ويتخلَّدون، ويتظاهرون بالتوكل، ويقولون: نحن ضيوف الله، ولا نتزوّد ولا نتبلَّغ، وكانوا لا يتحرّجون من التسوُّل والشِّحاذة، والاستجداء، ويعدُّون ذلك فى سبيل الله، فنهاهم الله عن ذلك، وقال: **﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** [البقرة: ١٩٧]. قال ابن كثير: قال العوفى عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة؛ يقولون: نحجُّ بيت الله ولا يُطعمنا؟، فقال الله تعالى: ((تزودوا)) ما يكفّ وجوهكم عن الناس.وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فأنزل الله: **﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** [البقرة: ١٩٧].

وكذلك كانوا يتأثّمون من التجارة فى الموسم، وذلك تحريم ما أحلّ الله، روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى

الجاهليَّة، فتأثموا أن يتّجروا فى الموسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]. فى مواسم الحج. وعن مجاهد رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج، يقولون أيّام ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومنها أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراةً، ويقولون: لا نطوف فى ملابس عصينا فيها، فكان ذلك باباً لفساد عظيم، وتشريعاً جاهليًّا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، رواه مسلم والنسائى، وابن جرير، واللفظ له: عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كانوا يطوفون بالبيت عراةً، الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحلّه

فقال الله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوأة، وما سوى ذلك من جيِّد البزّ والمتاع، فأُمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وقال ابن كثير: هكذا قال مجاهد وعطاء، وإبراهيم النخعى، وسعيد بن جبير، وقتادة والسُّدِّى، والضحَّاك ومالك عن الزهرى وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها، أنها نزلت فى طوائف المشركين بالبيت عراةً.

وقد قُرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله ﷺ فأرسل أبا بكر رضى الله عنه فى العام التاسع، وأمره بأن يُعلن: لا يطوف بالبيت عريان. وقد روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه: «أنَّ أبا بكر الصديق بعثه فى الحجة التى أمَّره النبى ﷺ عليها قبل حجة الوداع يوم النحر فى رهط يؤذّن فى الناس لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان»[1].

---

(١) صحيح: الجامع الصحيح للبخارى، كتاب المغازى، باب حج أبى بكر ﷺ بالناس (٢/٥٨٦) (١٥٤٣)، ومسلم (٢/٩٨٢) (١٣٤٧).

ومنها أنّ الطوائف من أهل العرب كانت تتحرَّج أن تطوف بالصفا والمروة، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهليَّة، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨]. قال عروة عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨]. قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوَّف بهما، فقالت عائشة رضى الله عنها: بئس ما قلت يا بن أختى، إنها لو كانت على ما أوَّلتها عليه، كانت فلا جناح عليه أن لا يَطَّوَّف بهما، ولكنّها إنَّما أنزلت، أن الأنصار قبل أن يُسلموا كانوا يهلُّون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلّل، وكان من أهلَّ لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إنّا كنا نتحرَّج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

قالت عائشة رضى الله عنها: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما، (أخرجاه فى الصحيحين). وقال البخارى رضى الله عنه: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان، قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة، قال: كنَّا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام، أمسكنا عنهما، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر ردَّ التشريع الإسلامى هذا الركن العظيم، إلى أصله الإبراهيمى، ووضعه الأصيل النَّقى، البعيد عن تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين[1].

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى، إذ قال:

«اعلم أنه ﷺ بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة

(١) استفدنا فى هذا البحث من توجيهات أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله فى (سيرة النبي) المجلد الخامس.

نورها، وذلك قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ولما كان الأمر على ذلك، وجب أن تكون أُصول تلك الملة مسلمة، وسننها مقررة، إذ النبى إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة، فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها، لأنه أطوع لنفوسهم، وأثبت عند الاحتجاج عليهم»[1].



(١) حجة الله البالغة: (٢/٥٦).

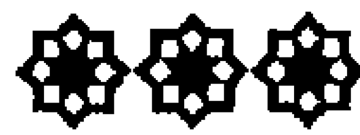
فهرس الموضوعات

الصلاة

الزكاة

الصوم

الحج





أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥